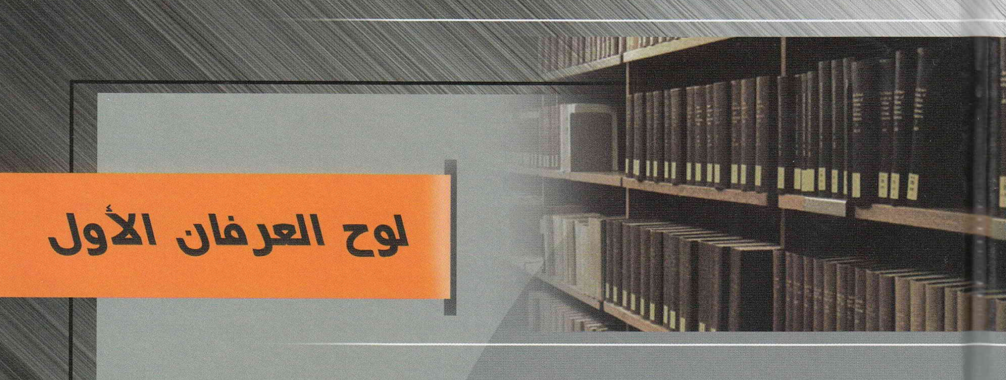


لوح العرفان الأول

الجماعات التكفيرية

قراءة في البنية الفكرية والعقائدية

النشأة والتأصيل

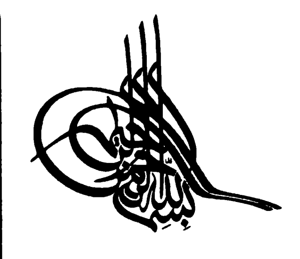
مجموعة من الباحثين

الجزء الأول

الجماعات التكفيرية

قراءة في البنية العقائدية والفكرية

الجماعات التكفيرية
قراءة في البنية العقائدية والفكرية
(النشأة والتأصيل)



تأليف: مجموعة من الباحثين

الناشر: مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية

توزيع: مؤسسة المصباح الثقافية

الكمية: ١٠٠٠

الطبعة الأولى

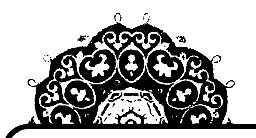
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: ٨٦١ لسنة ٢٠١٥

تنفيذ طباعي:



شارع الرويس، الرويس، برج البراجنه، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 P.O. Box: 307/25
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com | www.daralwalaa.com



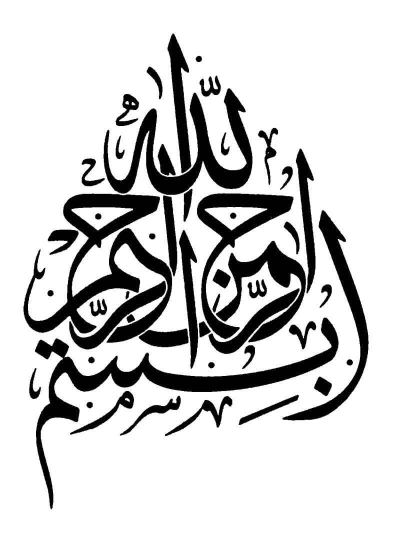
الإشراف العلمي: الشيخ مهدي البغدادي، د. عبد الزهرة زبون، التدقيق اللغوي: د. أحد عيسى المطيري، مراجعة النص: د. أحمد حسين الربيعي، الإخراج الفني: رياض الساعدي، تصميم الغلاف: ممتاز الحسن.

الجماعات التكفيرية
قراءة في البنية العقائدية والفكرية

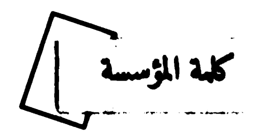
(النشأة والتأصيل)

الجزء الأول




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطيبين الطاهرين ..

وبعدُ:

إنَّ ما يمرُّ بهِ إسلامُنا الأصيلُ، من مواجهةٍ معقدةٍ، وتحدّياتٍ كثيرةٍ وكبيرةٍ، تمثلتْ في اصطفافِ الدولِ الاستكباريةِ وتوابعِها في المنطقة؛ خلفَ هذا الكيانِ التكفيريِّ (داعش)؛ الذي يسطو على التسميةِ والقيمِ والمعارفِ الدينيّةِ، ويُعيدُ إنتاجَها بصورةٍ مشوّهةٍ معكوسةٍ، خَدعتْ كثيراً مِنَ السُّذَّجِ، وجعلتهُمْ يوجّهونَ أسلحتَهمْ إلى صدورِ أشقّائِهِمُ المسلمينَ، حتى شكّلوا دِرعاً يقي إسرائيلَ الأذى، وجعَلَها في أمانٍ ومَندوحةٍ من ضَرَرِ المُواجَهةِ، وَقَد شَهدَ بِذلكَ بَعضُ حاخَامَاتِ اليَهود، إذ قَالَ: إنَّ الرّبَ بَعَثَ بِداعِش لِحِمَايَتِنا.

ثمّ مَا كانَ مِنْ دَورٍ لوسائلِ الإعلامِ؛ التي صوّرتْ هذا المِسْخَ، على أنّهُ هُوَ وجْهُ الإسلامِ ولِسانُهُ ويدُهُ.

ولأنّنا نعيشُ في عالمٍ مفتوحٍ؛ يَمُورُ بالتواصُلِ، والتأثرِ، والتأثيرِ المتبادَلِ؛ صَارَ التصدّيَ لِهذا المشروعِ، وبَيانُ زَيفِهِ وتعريتِهِ؛ منْ أوْلوِيَّاتِ المعنيِّينَ بالشأنِ الإسلاميِّ؛ فكانَ هذا اللوحُ بِباحثيهِ وأبحاثهِ عِمادًا ومِدادًا لِمنْ يجْهَد بالْقلمِ في ساحةِ الفكرِ، دَعمًا لِمنْ يُجاهِدُ مِنْ أُخوانِنا وأبنائنا في ميادينِ الشهادةِ.

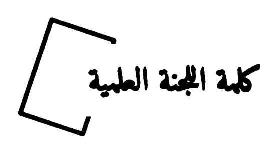
وقد أردْنا بهذا الْعمَلِ؛ فَهْمَ أُسُسِ هَذه الجَماعاتِ، وتشريحَ مبانيِها، وبيانَ انْحرافِها، وَ تحريكَ الوعيِ لدى المجتمعِ على خطورةِ هذا الكائنِ المَوجودِ؛ المُرادِ شرْعنَتُهُ، وفرْضِ واقعيَّتِهِ بقُوّةِ السّيفِ على الأمّةِ.

ولاشكَّ في أنَّ بِناءَ قاعدةٍ مفاهيميّةٍ وفكريّةٍ؛ قادرةٍ على إيجادِ مُقارباتٍ تنظيريّةٍ، وتحليلٍ عقيديّ؛ وترجمةِ هذِهِ الرُّؤى إلى واقعٍ ثقافيٍّ ملموسٍ حاضرٍ في وعيِ الأمّةِ، سينعكِسُ إيجاباً في عَمليةِ تَثقِيفِ جيلِنا الجَديدِ، على روحِ الإسلامِ المُمانِعَةِ العَزيزةِ؛ وهذا ما أردْناهُ منْ خِلالِ العديدِ مِنَ العناوينِ الّتي حاورَها هذا اللوح، وسلّطَ الضوءَ على مفرداتِها، بمنهجٍ يقومُ على البناءِ العلميِّ والبحثيِّ؛ بعيدًا عنْ سطحيّةِ التفكيرِ.

إنَّ مِنْ واجبِنا - كباحثِينَ - أنْ نشخّصَ الانْحرافَ الفكريَّ والعقيديَّ، وأنْ نستلهمَ منْ إسلامِنا الأصيلِ الفهْمَ الصوابَ، ونحتكِمَ إليْهِ؛ لِنُحقِقَ غائيّتَنا بِهِ؛ فذلكَ هُوَ الوَقُودُ الرُّوحيُّ الذي يُوقِظُ الحْصَانةَ في مجالِ الفِكْرِ، ويحققُ النَّصْرَ في درْبِ الفِداءِ لعُشاقِ الإسلامِ.

وأخيراً باقةُ شكرٍ، وعرفانٍ، وامتنانٍ، وتقديرٍ؛ لِكلِّ مَنْ ساهمَ في الإعدادِ والتنسيقِ؛ لإنجاحِ هذِهِ التظاهرةِ البَحثيةِ العلميّةِ، ولِكلِّ مَنْ شاركَ في فعاليّاتِ هذا اللوحِ؛ راجينَ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيمِ التوفيقَ والسدادَ للجميعِ. وآخِرُ دعْوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ وصلّى اللهُ على محمّد وآلِهِ الطاهرينَ .

مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فها أولاءِ نحن نجتمع اليوم في مواجهة التكفير؛ قد دعونا الباحثين العلماء الذين خَبَروا هذه الحركات، ودرسوها، وتتبعوها؛ تمحيصاً، وإنعام نظر، برؤية ثاقبة، وبرويّة دائبة.

فكان هذا اللوح الذي لبيّتم نداءه، فإن لم يحالفكم الحظ للحاق في حِمى الثغور.

ها أنتم أولاءِ تصدّون بأقلامكم وبانثيالات أفكاركم؛ الفكرَ التكفيريَّ القائمَ على الحماقة، والتعصّب الأعمى، وضعف السند.

إنّنا؛ ونحن نقيّم هذه البحوث ألفيناها كلَّها فائزة، وكلّها أحاطت بالتكفير خُبْراً، وبيّنت هشاشته ووهنَه؛ فكان أوهى من بيت العنكبوت.

وجاءت هذه البحوث لتزيل هذا النسيج عن عورات مَن ادّعى أنّه كالسلف الصالح.

ولكثرة ما ورد إلينا من بحوث؛ صار لزامًا علينا أن نقدِّم الفائز منها على وَفق ما اعتمدته اللجنة من معايير، وبناء على طبيعة البحوث، وتبعًا لغاية مؤسستنا، نرى أنّ به حاجة للتفصيل والتحليل والوقوف على دقائق الأمور، فارتأينا أن نقدّم هذه البحوث في هيأة

كتابين: ضمّ الأوّل البحوث التي اختصّت بالكشف عن الأفكار التي أسهمت في تشكُّل هذا التنظيم وتبلوره نهجًا قارًّا في عقول كثير من أدعياء الحركات الإسلاميّة.

أمّا الكتاب الثاني، فقد خصصّناه بالبحث في آراء الجماعات التكفيريّة ومفاهيمها في مجالات الحياة المختلفة. ويجدر بنا الإشارة إلى أن ترتيب الأبحاث في الكتابين خضع لغايات فنية بحت؛ فالبحوث المشاركة كلّها فائزة ومرضيٌّ عنها.

وأمّا عدوّكم فهو وفكرُهُ؛ مقمح وذليل وأختمُ بقول أمير المؤمنين عليه السلام للخوارج: أنّه لا يخرج علينا منكم فئة، قلت أو كثرت إلى يوم القيامة إلا جعل الله حتفها على أيدينا، وإنّ أفضل الجهاد جهادكم وأفضل المجاهدين من قتلكم، وأفضل الشهداء من قتلتموه.

والحمد لله ربِّ العالمين

السلفيّة التكفيريّة

تنظيمات ما بعد القاعدة

السلفيّة التكفيريّة
تنظيمات ما بعد القاعدة

الشيخ شفيق جرادي*

قبل الحديث عن التكفيريين بما هم جماعات محدّدة تنسب نفسها إلى الإسلام، فإنّ من المفيد أن نسلّط الضوء على أصل التكفير بما هو منهجيّة صادرة عن عقليّة إقصائيّة تختزل الحقّ والخير والصلاح، وتحصره في أفق الذات، لتبني عليه رفضًا مدّمرًا للآخر المختلف، والتكفير بهذا المعنى هو مزاج أيديولوجيّ يجتاح الجماعات بتنوّعها الفكريّ، والدينيّ، والمذهبيّ.

ولا يمكن نسبته إلى الظاهرة الإسلاميّة وحدها؛ إذ شهدت الأديان في مساراتها كثيراً من مثل هذه الحالة؛ بل يمكننا القول: إنّ الاتجاهات اللادينيّة في المراحل الحديثة والمعاصرة من العهد الذي استتب على ما أطلق عليه عصر التنوير وإفرازاته من علمنةٍ، وليبراليّة، وحداثة، وديمقراطيّة إلى آخره من أمور، لم يحجب قيام نزعة إقصائيّة متطرّفةٍ في دول تدّعي أنّها منارات الانفتاح والحريّة، أمثال الدول الأوروبيّة، والولايات المتحدة الأمريكيّة، ومجموع من الدول العلمانيّة الأخرى، وهي دول شهدت رعاية لدعوات الألفيين والمحافظين الجدد، والتمييز العنصريّ العرقيّ والدينيّ بأسوأ صوره، كما أنّها دول وحركات تشكّل اليوم حضورًا قياديًّا في إدارة صراعات الشعوب والحضارات.

---

* مدير عام معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية – لبنان .

وهذا يعني أنّ دراسة النزوع التكفيريّ لا يتأتّى من النصّ الدينيّ - بغض النظر عن أيّ دين نتحدّث - وحده، بل لا بدّ لنا حين دراسته من التوقّف مليًّا عند الأسباب التي تشكّل بمجملها مفاصل أساسيّة لقراءة الظاهرة، بوصفها ظاهرةً اجتماعيّة، وتاريخيّة، (فضلًا عن بعدها الدينيّ)، أو بنحو أدق، فضلًا عن سَمْتِها الدينيّ.

وإلى جانب ذلك فإن ما يعنينا في هذه المعالجة هو التوقّف عند الموجة التكفيريّة الإسلاميّة التي تجتاح العالم انطلاقًا من البيئة السنّيّة، والقراءة السلفيّة التكفيريّة فيها، والتي اتّسمت بسمة المسارعة إلى إلصاق حكم (التكفير - الشركيّ)، بكلّ من خالفها، مسلمًا أم غير مسلم.

ولا يخفى أنّ مثل هذا الحكم إذا اندرج تحت حكم آخر يفيد أنّ كلّ الذنوب تُغتفر إلّا الشرك بالله.. صارت النتيجة مفتوحة على كلّ وجوه التصدّي وصنوفه، والمواجهة مع الذين حُكم عليهم بالكفر والشرك، من إجراءات عمليّة كالقتل، والسبي، والتمثيل بالجثث، وهتك حرمة مقدّسات المساجد، والأنبياء، والأولياء، وغير ذلك...

ولعلّ أوّل بذرة لمثل هذا التوجّه، إنّما كان أيام الخوارج...، ووصف الخوارج هو أوّل التهم التي ألصقها أهل السنّة بجماعات السلفيّة الوهّابيّة (على وجه الخصوص)...، ولقد كان لها وقعٌ عنيفٌ، ومزعجٌ للغاية في نفوس السلفيين الوهّابيين الذين لطالما عملوا على الدفاع عن أنفسهم بمواجهة هذا الاتهام، وهي من النقاط التي يمكن الاشتغال عليها... إلّا أنّي، وإلى جانب ذلك، أعتقد أنّ الأصل لهذه الظاهرة إنّما يكمن في المزاج الجاهليّ– القبليّ الذي أباح لنفسه وأد البنات دونما ذنب، والقتل، والتمثيل العشوائيّ بالجثث، واستعباد الناس، وعدم احترام خصوصيّات الأسرى، أو أيّ أخلاقيّة في حرب أو سلم.

وهذا المزاج إنّما حمله معه أبو سفيان الذي استطاع اختراق أسوار حصن التقوى الإسلاميّ، وذهب بعيدًا نحو بلاد الشام ليزرع هناك ابنه الذي تحوّل إلى سلطة تحريفيّة لقيم الإسلام، وأنظمته في الحكم، والمسلكيّات الإيمانيّة والإداريّة، وهو ما سمح لتأسيس الخط البيانيّ المتصاعد لأطروحة السب واللعن على منابر المساجد، كما رسم استراتيجيّات جماعات

الفتنة، وآلات القتل والعنف الوحشيّ في ديار المسلمين، ومن ديار المسلمين أنفسهم، وعليه، إنّ كلّ حركة إقصائيّة جاءت في التاريخ الإسلاميّ إنّما هي وليدة هذه البذرة السفيانيّة اللئيمة، وعلى شاكلتها تكوّنت دول البطش في تاريخنا، كما تكوّنت جماعات التكفير التي استجمعت كلّ موروثها التاريخيّ والنفسيّ لتتشكّل بصورة مذهبيّة أطلقت على نفسها اسم السلفيّة الوهّابيّة.

الآباء المؤسّسون للتيّار السلفيّ:

وقع كثير من المسلمين بشبهة دلالة اصطلاح السلفيّة؛ إذ نسبوا أنفسهم إليها انطلاقًا من أمرين:

الأمر الأوّل: إنّ السلفية هي عودة إلى المرحلة التطهّريّة، من حيث العلاقة مع النصّ الدينيّ - القرآن والحديث - أو من حيث العلاقة مع الفترة التاريخيّة الأولى لعصر الرسول ﷺ (الصحابة)، ثمّ عصر التابعين.

الأمر الآخر: الانسجام الذهنيّ العام لبعض العقليّات الإسلاميّة المبنيّة على استحسان الماضويّة في فهم الزمن، الذي يقوم على أنّ الزمن الأصلح هو زمن رسول الله ﷺ، ثمّ عصر الصحابة، ثمّ التابعين، ثمّ تابعي التابعين، ثمّ تبدأ مرحلة الانحطاط العام...، وهذه الذهنيّة أفاد منها منظّرو التطرّف السلفيّ، الذين جعلوا الزمن بذاته مبنيّاً على الكفر الشركيّ، وخلقوا شبهة خلطوا بها بين السلفيّة بمعنى العودة إلى السلف الصالح، والسلفيّة بوصفها مذهباً أو نزعةً مذهبيّة خاصّة لها قواعدها.

وقد وقع كثير من القادة والحركات الإسلاميّة في هذه الشبهة من أمثال: رشيد رضا، وحسن البنّا، ومالك بن نبي...

وفي ضوء ذلك، ينبغي تبيان أساس طرح فكرة السلفيّة، ومسارها نحو التمذهب الذي أوّل من أطلقه أحمد بن حنبل في مواجهة الثقافات الوافدة من خارج العالم الإسلاميّ، وفي مواجهاته مع (محنة خلق القرآن) أيام المأمون، ومن بعده المتوكّل.

فقد ذهب أحمد بن حنبل إلى القول: «وما في اللوح المحفوظ، وما في المصحف وتلاوة الناس وكيفما وُصف، فهو كلام الله غير مخلوق، فمن قال مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكّفره فهو كافر»[1]، ثم ذهب إلى القول: إنّ الطريق الوحيد لفهم الدين هو النصّ القرآنيّ، والشارح الوحيد له هو الحديث النبويّ.

ثمّ اعتبر أنّ كيفيّة تفسير القرآن والحديث إنّما يكون على وفق الظاهر فقط، بما في ذلك معنى الأسماء، والصفات، وأنّ لله يداً، ومعنى الكرسي، والعرش، وغير ذلك...، وأن لا دخل للعقل في أيّ تأويل لهذه الأمور.

وعليه، إن علينا العودة للقرآن والسنّة بظاهر لفظهما، وتكفير من لا يقول بهذا القول؛ بل تكفير من لا يكفّرهم أيضًا.

ثمّ توسّع هذا الطرح توسعاً منهجيّاً واضحاً على يد ابن تيميّة الذي أخذه إلى أبعاد وتوظيفات لم تكن في وارد الإمام أحمد بن حنبل.

ويمكن القول: إنّ معرفة الملامح الأساسيّة لمنهج ابن تيميّة أصل لا يمكن فهم السلفيّة التكفيريّة بدونه أبدًا؛ بل لا يمكن فهم التحولات التي اجتاحت الحركات الوهّابيّة التكفيريّة من دونه.

إذ إنّ إدخال مفهوم التوحيد في حقل تفصيليّ يشابه في مستلزماته وأحكامه حركة العمليّة الفقهيّة في إنتاج الأحكام، والموقف، وربط المفهوم التوحيديّ الخاص بكونه أصلاً لفهم النصّ...، ثمّ إسقاط الهالة الكلاميّة- التي دعت الغزالي لكتابة إلجام العوام عن علم الكلام- لتكون في تداول العامّة من الناس، وسلوكيّاتهم وأنماط تفكيرهم، ومواقفهم من بعضهم بعضاً، إنّما كانت على يد (ابن تيميّة)، وهذا ما كان له أعظم الأثر في كلّ الحركات السلفيّة في ما بعد، كما سوف يتبيّن معنا.

---

(١) أحمد بن حنبل، العقيدة برواية الخلال (دمشق: دار قتيبة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الصفحة ٦٠.

ومن أجل قراءة معالم المقولات التيميّة سنلتزم بدراسة رسالتين لابن تيميّة كان لهما التأثير المركزيّ في صياغة العقل التكفيريّ على صعيد العقيدة والفقه السياسيّ أو (الدعويّ)، وهما:

الرسالة الأولى: رسالة (**العقيدة الواسطيّة**)؛ التي تعد النصّ الرسميّ الذي يتداول تدريسه أصحاب المدرسة التكفيريّة اليوم.

الرسالة الثانية: رسالة (**السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة**)؛ لما تمثّل من بُنًى فقهيّة لمواقف السلفيّة التكفيريّة، ونظام الإمرة عندهم؛ بل فكرة السلطة.

أ. البعد العقيديّ في الرسالة الواسطيّة:

صدّر ابن تيمية رسالته (**العقيدة الواسطيّة**) بقوله: «أمّا اعتقاد الفرقة الناجيّة المنصورة إلى قيام الساعة من أهل السنّة والجماعة...»[1].

ومنذ ذاك الحين صار المصطلح (الفرقة المنصورة) هو التعبير الرائج عند شرّاح الفكر السلفيّ التكفيريّ ومنظّريه، كصفة لحركتهم...، وشرح معتقداتها،... ويقوم هذا الاعتقاد على ما يأتي:

الإيمان بالله وصفاته إيمانًا بحرفيّة تعبير النصّ دون أيّ تأويل...، معتبرًا أنّ شرح الحديث النبويّ الوارد في « أحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها »[2]، إذاً أصل الإيمان مرتبط بكلّ كلمة موجودة وبحرفيّة في كتاب الصحاح، وهو ما يعدّه مورد إجماع أهل السلف.

١. الإيمان بأنّ القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، «وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف»[3]؛ لذا كلّ ما تمّ شرحه من معاني هو

---

(١) أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، تحقيق علوي بن عبد القادر السقاف (الظهران: الدرر السنيّة، ١٤٣٣هـ)، الصفحة ٩١.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، الصفحة ١٠٦.

(٣) حُذِفت هذه الفقرة من النص في أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، صفحة ١١٦. أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، تحقيق أبو محمّد أشرف بن عبد المقصود (الرياض: دار أصول السلف، ١٤٢٠)، الصفحة ٩٠.

شرح لكلام الله، والردّ عليه إنّما هو ردّ على الله، وهكذا، تمّت مصادرة كلّ تفسير غير التفسير المعتمد.

٢. ثمّ يذكر الإيمان بالآخرة، وفتنة القبر، وشفاعة النبيّ ﷺ لعموم أهل الموقف، ولخصوص أهل الجنّة؛ بل يشفع لبعض أهل النار قبل دخولها؛ بل وبعد دخولها أيضًا.

٣. التركيز على الإيمان بالقدر وهو العلم الأزليّ إضافة إلى الإيمان بـ «مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»(١).

هذا دون أن ينسى القول بأنّ العباد مسؤولون عن أعمالهم...؛ لذا يمكن محاسبتهم عليها...، أمّا المشيئة النافذة فهي التي تربط كلّ قلوب الذين يصبرون لحكم ربّهم ولا يتراجعون...، ومن هنا تأتي مسألة ربط الوقائع بجبريّة لا بدّ منها.

٤. من أصولهم أنّهم «لا يكفّرون أهل القِبلة بمطلق المعاصي والكبائر... كما يفعله الخوارج، بل الأخوّة الإيمانيّة ثابتة مع المعاصي»(٢)...«ولا يسلبون الفاسق الملّيّ الإسلام بالكلّيّة»(٣)، بل هو «مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم»(٤)، وفي هذا بعض المرونة التي كانت ملحوظة في كلمات ابن تيميّة والتي فقدناها مع ابن عبد الوهاب ومن جاء بعده.

٥. ثمّ يتحدّث عن موقفه العقائديّ من الصحابة، وأنّ قرنهم خير القرون، ويرى أنّ أبا بكر وعمر مقدّمان على عثمان وعليّ، أمّا الأخيران وأيّهما مقدّم على الآخر فهي ليست من «الأصول التي يضلّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة، لكن التي يضلّل فيها مسألة الخلافة»(٥).

إلى أن يقول: «ويتبرّؤن من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة، ويسبّونهم،

---

(١) أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، الصفحتان ١٢٢ و١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٣) المصدر السابق، المعطيات نفسها.
(٤) المصدر السابق، المعطيات نفسها.
(٥) أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، الصفحة ١٢٦-١٢٧.

وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل»[1].

٦. «ومن أصول أهل السنّة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم، والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات»[2].

ثمّ يعتبر أنّ الإجماع هو أصل يعتمد عليه في الدين بعد القرآن والسنّة.

إنّ الصورة العامّة التي وردت في هذه الرسالة وكيفيّة التعاطي معها يفيد أنّ ابن تيميّة قد وضع قواعد ذهنيّة ونفسيّة تجعل من القناعة الحرفيّة التي تتبنّاها (الطائفة المنصورة) أي السلفيّة التكفيريّة - الشرعيّة، لا مجال لردّها أو الخروج منها؛ لأنّ في ذلك عين الخروج عن مضمون معنى القرآن والسنّة، وأنّ ملاقاة الصعاب هو قدر ومشيئة إلهيّة بمقدور العباد أن يجعلوا منها إمّا موردًا لرحمة الله في الآخرة والدنيا، وإما نقمة إلهيّة في الدنيا والآخرة.

والذي يبقى بحاجة للاشتغال عليه موقفه من تكفير أهل القِبلة، والموقف من الكرامات، ثمّ الموقف من الإجماع.

أمّا الأوّل، ولعلّه هو الأهم بين بقية النقاط، فيفيد - بحسب مجموعة الفتاوى - أنّ «كلّ طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم، فإنّه يجب قتالهم حتّى يلتزموا بشرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين...»[3]، وهو هنا في مورد الجواب عن سؤال حول حلّية قتال التتار، إلّا أنّه بعد ذلك يعقّب بالقول: إنّ «من أصول أهل السنّة والجماعة الغزو مع كلّ برّ وفاجر»[4]؛ شريطة أن يحصل من مثل هذا الغزو مصلحة شرعية، وهذا يعني أنّ الحكم على الموقف السياسيّ إنّما يكون بحسب وجهة النظر الشرعيّة للفقيه، لا بحسب صفة المتصدّي للغزو والقتال.. (فالأصل عنده صفاء التشريع أمّا الأمر فلا).

---

(١) أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، ص ١٢٩.

(٢) حذفت هذه الفقرة من أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، تحقيق علوي بن عبد القادر السقاف، وهي في أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة، تحقيق أبو محمّد أشرف بن عبد المقصود، الصفحة ١٢٢.

(٣) أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، مجموع فتاوي ابن تيميّة (الرياض: مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥)، الجزء ٢٨، الصفحة ٥٠٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٥٠٧.

ثمّ يبيّن رأيه في الشيعة ويرى أنهم أخطر من الخوارج لرفضهم خلافة (الثلاثة)، وينسب إليهم مفاسد الأخلاق، ثمّ يقول: «**وَالرَّافِضَةِ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا مِنْ الْعِزِّ مَا لَا يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ** »[1]، ثمّ يشدّد أنّ هذه الطائفة قد دخل فيها من أهل الزندقة والإلحاد... ويقصد بذلك الفيلسوف الطوسي.

ليطلق بعد كلّ ذلك قاعدة السلفيّة التكفيريّة؛ التي يمكن لنا تسميتها بالقاعدة الذهبيّة عندهم:

«إنّ عقوبة المرتدّ أعظم من عقوبة الكافر الأصليّ»[2].

وهكذا فإنه أسّس للأمور الآتية:

الأمر الأوّل: إمكانيّة التحالف مع الفاجر إن كانت المصلحة الشرعيّة، بحسب فهم السلفيّة، مضمونة.

الأمر الثاني: إنّ الرافضة يحكم عليهم بحسب أمرين: مخالفتهم لأصل المعتقد السلفيّ، إضافة لمواقفهم السياسيّة المباشرة...؛ إذ لو وافقوهم في المواقف المباشرة لأمكن التخفيف من حدّة الحكم تجاههم، كما يظهر ذلك بوضوح من بعض أقوال ابن تيميّة وغيره.

الأمر الثالث: أمّا إذا تمّت المعاداة في أصل المعتقد والموقف السياسيّ، فإنّ الحكم على الشيعيّ هو بجعله مرتدًّا ويُطبّق عليه جزاءٌ يفوق ما يطبّق على الكافر الأصليّ.

الأمر الرابع: إنّ قاعدة أولويّة قتال المرتد الأقرب فتحت الباب واسعًا أمام أولويّة القتال الداخليّ بين المسلمين وشقّ عصاهم.

ب. البعد السياسيّ، أو السياسة الشرعيّة:

تكاد تخلو هذه الرسالة من أيّ إشارة إلى الشورى بوصفها حاكماً يتمّ في ضوئه تحديد

---

(١) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مجموع فتاوي ابن تيمية، الجزء ٢٨، الصفحتان ٥٢٧ -٥٢٨.
(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢٨، الصفحة ٥٣٨.

صاحب الإمرة...؛ بل إنّ ابن تيميّة لا يحسم أيّهما أولى بالخلافة أهو عثمان أم علي، ولا يعتمد على الشورى في تقديم عثمان.

ثمّ إنّه يعتبر المرحلة التي تلي عهد الخلفاءَ أنّ الحكم فيها يختلط بالملك وهو ممّن يجيز ذلك فاتحًا إمكان تعدّد أساس الحكم...، أمّا صاحب الولاية أو الإمرة فهو (صاحب الشوكة) المتصدّي للحكم الذي يكفي أن يوافقه ولو مجموعة قليلة على حكمه وإمرته...، وعلى الرعيّة طاعته طالما أنّه كان ملتزمًا وأمينًا على تطبيق الشريعة، أمّا إذا رأى أحدٌ أنّه غير أمين على تطبيق الشريعة فيجب الانقضاض عليه؛ لأنّ الأصل هو للشريعة وليس للولي.

وهنا يُفصِّل بين الأحكام الواضحة في الشريعة وهي التي على الأمير التزامها، وبين الأمور التي تُترك للأمير، بوصفه صاحب حقّ في الولاية، وفي التصرّف، وفي التدبير... طالما أنّه يحقّق الهدف الآتي: «إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانًا مبينًا...، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلّا به من أمر دنياهم وهو نوعان: قسم المال بين مستحقّيه... وعقوبات المتعدّين»[1]، ثمّ يدخل بعد ذلك في تفصيلات أمور كثيرة منها:

الأمر الأوّل: الحاجة في أيّ إمرة إلى معرفة الفارق بين الأصول الثابتة في الشريعة (وهي التي تحتاج إلى فقيه)، وإلى الأمور التدبيريّة وهي التي يعود الأمر فيها إلى صاحب الإمرة مما يفتح للأمير مساحاتٍ واسعة من حق التصرّف، والتقرير، وتقليب الأمور، ووجوه المواقف.

الأمر الثاني: لو فرضنا أنّ شخصًا ما كان ينتمي إلى جماعة ما، ولها أميرها، فإذا قدَّر ذاك الشخص خروج الأمير عن ظاهر حكم الشريعة فإنّه من المجوَّز له أن يقوم عليه أو يتركه، فإذا تصدّى لدعوة جديدة أمكنه تأسيس إمرةٍ جديدة، وبحسب ابن تيميّة، فلا ضرورة لكون الإمارة واحدة.

الأمر الثالث: يمكن الإفادة من هذه الرسالة في التفريق بين الإمرة بالمعنى القياديّ، وإمرة

---

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة، السياسة الشرعيّة، الطبعة١ (الرياض: وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ)، الصفحة ٢٠.

الفقيه الذي يعالج الموقف الفقهيّ.

والنقطة الأخيرة هي التي فتحت المجال واسعًا لبناء حركات دعويّة سلفيّة فيها الفقيه وفيها الأمير، وهي التي على أساسها بدأ الزرقاوي حركته الدعويّة في الأردن؛ إذ كان فقيه الدعوة فيها (المقدسي)، وكان هو (الأمير)، ثمّ بعد ذلك حصل الفراق ليتأسّس بموجبه مرحلة جديدة.

مرحلة محمّد بن عبد الوهاب:

بعد ابن تيميّة جاء (محمّد بن عبد الوهاب)، وقدّم نفسه على أنه محيي فكرة السلفيّة، وباني سلطانها، علمًا أنّ الباحثين فيه جعلوه مجرّد ناقل لأفكار (ابن تيميّة)؛ إلّا أنّه لا يخفى على أحد حجم الدور الذي قامت به (الوهّابيّة).

أمّا الأمر الجديد الذي أكّده (محمّد بن عبد الوهاب) فهو ما أورده في **كتاب التوحيد، الذي هو حقّ الله على العبيد**...؛ إذ صاغ الكتاب بمضامين عقيديّة حادّة تحمل طابع التقنين الفقهيّ، حتّى تحولت القناعات العقائديّة إلى مجرّد حرام، وحلال، وجائز، وواجب...

ومن أكثر الإقحامات التي قام بها قوله: «إنّ العبادة هي التوحيد؛ لأنّ الخصومة فيه»[1]، فكلّ من يختلف في أمور العبادة وأحكامها سيكون عُرضة للخصومة التي قد تصل إلى حد القتل والتكفير الصريح.

واعتباره أن لا أحد معذور؛ لأنّ «الرسالة عمّت كلّ أمّة»[2].

وهو صاحب تلك الرسالة؛ كأنّما هو نبيّ جديد، وهذا ما يذكّرنا بتجربة معاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام.

ثمّ ذهابه إلى أنّ التوحيد بما هو عبادة تستقيم بحسب شرح (ابن عبد الوهاب) لها، لا

(١) محمّد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد، تحقيق علي بن محمّد بن سنان (المدينة المنورة: دار الكتاب الإسلاميّ، ١٩٩١)، الصفحة ٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٦.

يكفي الاعتراف بها فقط؛ بل لا بدّ من التزام «المسألة الكبيرة - وهي - أن عبادة الله لا تحصل إلّا بالكفر بالطاغوت...، والطاغوت عامٌ في كلّ ما عُبد من دون الله»[1].

بعد هذا يأخذ ليبيّن كيف يكون اتباع الكفر والطاغوت، فيصل في كلّ شيء لدرجة «أنّ من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه»[2]، وليعتبر أنّ «سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»[3]، وليفتح المجال أمام القول: إنّ «من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله، أو تحليل ما حرَّم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله»[4].

وهكذا يصبح كلّ موقف فقهيّ يأخذ أصالته من عنوان التوحيد الذي صاغه (محمّد بن عبد الوهاب) بحسب فهمه الخاص... ممّا جعل الدارسين له يعتبرون أنّ كلّ رأي، أو كلّ مرة يكون الكلام فيها عن الكفر والكافرين فإنّما يكون المقصود بهم الذين لم يفهموا التوحيد على الطريقة الوهّابيّة.

بل إنّه أسقط علاقة الأمم قبل الإسلام مع الأوثان والأصنام على كلّ فرقة إسلاميّة تمارس علاقة ما مع النبيّ ﷺ، أو الأئمة ﷺ، والأولياء، والضرائح، والمقامات؛ بل لا مانع عنده من هدم مسجد إذا كانت فيه شبهة مكان لضريح.

كما أنّه حكم على البدو بالكفر - وبطريقة قبليّة لافتة - إذ اعتبر أن كفرهم أعظم من كفر اليهود، وحاد عن طريقة ابن تيميّة في (عذر الجاهل)، ليعتبر أنّ كلّ قول أو عمل فيه مخالفة لرسول الله ﷺ إنّما هو تكذيب للنبيّ، ولا عذر لأحدٍ في ذلك، ويقول: «إنّه لم يعذر بالجهالة»[5]، وهذا ما فتح المجال عند السلفيّة التكفيريّة للأخذ بالظنّة، والقطع في الحكم، والموقف التكفيريّ لكلّ أحد، متسلّحين بتهمة الخروج عن ربقة الإسلام ودين محمّد ﷺ.

---

(١) محمّد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد، تحقيق علي بن محمّد بن سنان (المدينة المنورة: دار الكتاب الإسلاميّ، ١٩٩١)، ص ٦.

(٢) محمّد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد، تحقيق علي بن محمّد بن سنان (المدينة المنورة: دار الكتاب الإسلاميّ، ١٩٩١)، ص ١٥.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٨.

(٤) محمّد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد، الصفحة ١٠٥.

(٥) المصدر السابق: ص ١٥.

إذ إنّ ابن عبد الوهاب اعتبر أنّ الجدال في مثل هذه الأحكام أقلّ ما يقال في صاحبه أنّه «فاسق لا يقبل خطّه ولا شهادته، ولا يُصلّى خلفه؛ بل لا يصحّ دين الإسلام إلّا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم»[1].

وما ذلك إلّا لأنّ أيّ ترك لآراء الوهّابيّة كان يعتبرها - بحسب مفاد رسالة تأنيب أرسلها لأحد تلامذته في الإحساء - أنها:

١. خروج عن دين الإسلام.

٢. وقوع في الشك يتبعه الشرك.

٣. مداهنة أعداء المسلمين.

٤. تبرّؤ من ملّة إبراهيم.

وكان يذهب إلى: إنّ المذهب الأشعري هو الذي أطاح بحقيقة التوحيد، وجعل الإسلام غريبًا، لذا قد قامت دعوة ابن عبد الوهاب على الركائز الآتية:

الركيزة الأولى: إعادة معنى التوحيد، ومن ثَمَّ تبيان حقيقة معنى الإسلام.

الركيزة الثانية: إعادة بعث الإسلام بعد أن كان غريبًا.

الركيزة الثالثة: تجميع أهل الحقّ وإن قلّوا.

الركيزة الرابعة: ربط مواقفه - بحسب ادعائه - بالمصاعب التي مرّت لتبيان حقيقة التوحيد بصبر رسول الله ﷺ على الأذى، وصبر أحمد بن حنبل في مواجهة السلطان.

ورفض ابن تيميّة للباطل وعسكره وقتاله لتثبيت مبدأ التوحيد والسلفيّة؛ ليشكّل بذلك إعادة لحلقة (الإحيائيّة الإسلاميّة) بمنهجيّة مذهبيّة بنحو حَرْفي، وببُعد نفسيّ يصمد أمام المصاعب؛ لأنّ في ذلك كلّ وجوه الحقّ... وبذاكرة تاريخيّة مشبعة بالمواجهات والتحدّيات.

وهذه العناصر الثلاثة تأذن بإعطاء أيّ دعوًى قوّة حضور، واستمرار، وصلابة موقف

---

(١) الحسين بن غنّام، تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، تحقيق ناصر الدين الأسد، الطبعة٤ (القاهرة: دار الشروق، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م)، الصفحة ١٤.

ينبغي أن لا نستهين في قدرته على الاستمرار؛ بل على تجديد نفسه أيضًا؛ لأنّه مبنيٌّ على أيديولوجيّة جبريّة في تقديس الذات، وتصنيم المعتقد، ونفي كلّ آخر تحت كلّ الظروف.

سلوك الهجرة والإمرة

حينما تكاملت نظرته بتجهيل المجتمع، واعتقاده أنّه محيي الإسلام ومجدّده... يتجه الشيخ إلى (الدرعيّة)، ويعلنها (دار هجرة وإسلام)، ويقسّم الناس على قسمين: هم الموحّدون، ودارهم دار الإسلام، وهم أتباعه ومبايعوه. والمشركين، ودارهم دار الشرك، وهم من لم يفعلوا ذلك.

في هذه المرحلة رسم خط مبايعة الملك محمّد بن سعود على الجهاد، على أن ينصر الملك دعوة محمّد بن عبد الوهاب... وليتأسّس مُذّاك جدليّة العلاقة بين الفقيه والسلطان، وبين الدعوة والدولة، وبين المتشرّع والأمير لدى الجماعات التكفيريّة.

وأخذ بفتاويه التي تشير إلى وجوب اتباع الإمام (السلطان) سواءً أكان من الأبرار أم الفجّار ما لم يأمر بمعصية الله؛ حتى إنه حرَّم الخروج عليه... بحسب (الدرر السنيّة في الأجوبة النجديّة)[1]...، واللافت أنّه لم يقبل بالشورى في قبال إمامة السلطان المسترشد بالفقيه...

ومع ابن عبد الوهاب... يمكن أن نختم حلقة التأسيس الأولى لمنطق منهجيّ عقيديّ هو عينه يمثّل مفتاح الأحكام الشرعيّة...، والتي تقوم في وجهها النظريّ على تحديد الثوابت من خلال حرفيّة النصّ القرآنيّ، والحديث النبويّ، وتكفير أيّ تأويل لهما، الشارح بحرفيته لتمام المعنى القرآنيّ المنزل من عند الله دون أيّ (تكييف)، أو (تمثيل) لتلك النصوص (الأحكام)...؛ ثمّ عرض آراء السلف، وفقهاء السلفيّة، والتحرّك في دائرتها فقط... وبقطعيات لا تقبل النقاش.

---

(١) مجموعة من المؤلّفين، الدرر السنيّة في الأجوبة النجديّة، المحقّق: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم العاصمي النجدي (الرياض: دون ناشر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

أمّا اللغة المستخدمة في تحديد الأحكام فهي (وصفيّة) تعرض ما أسلفنا ذكره...، وأحيانًا تحمل طابعًا إنشائيًّا وعظيًّا يعتمد المغالطة في إثارة الإشكالات، والإسقاطات القطعيّة في إنتاج الجواب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فطالما أنّ المساحة المعطاة (للأمير) في الدعوة...، أو (السلطان) في الحكم اتسعت لكلّ ما فيه إجرائيّات حكم المال، والسياسة، والحرب، والسلم، والحدود، وغير ذلك؛ فقد وجد المتصدّون للدعوات والإمرة السلطانيّة الباب مشرَّعًا لاستخدام لغة إنشائيّة قطعيّة في تقريراتهم تعتمد على شواهد من النصوص، والقيام بطرح مستلزمات افتراضيّة متعلّقة بها، لأخذ مواقفهم بحيث يشرِّعون كلّ أشكال العنف والتصدّي تارة، وكلّ أشكال الطاعة والانقياد للواقع، والسلطة، وللجماعات من حولهم تارةً أخرى... دون أن يسقطوا حكم التكفير الخاص بكلّ هذه الجماعات، ممّا يعني أنّ هناك فصلًا واضحًا بين حكم التكفير وبين إجراء مستلزمات حكم التكفير...، وفي ظنّي أنّ هذا يفتح المجال واسعًا- كما حصل في أزمنة متعدّدة - لقراءات سلفيّة تكفيريّة لا تعتمد لغة العنف ولا لغة الجهاد حتّى...، فضلا عن أنّها قد تفتح الباب واسعًا لممارسات عنفيّة تستبيح حتّى المقدّس تحت اسم الظاهر والمصلحة؛ وهو ما يجعلنا أمام تيّار حزبيّ أيديولوجيّ أكثر ممّا هو تيّار عقيديّ مذهبيّ.

المنحنيات الجديدة لتيارات السلفيّة:

بعد تجارب ثوريّة قام بها رجالٌ - على غير عقليّة السلفيّة - من أمثال جمال الدين الأفغاني وتيّاره، وهي التي سُميت بحقبة عصر النهضة.

شهدت هذه المرحلة قبولًا للسلفيّة عند تلامذة جمال الدين الأفغاني، ومحمّد عبده...، فمحمّد رشيد رضا الذي تبنّى هذا الاتجاه السلفيّ...، اعتبرها تعبيرًا حيويًّا لاستفاقة دينيّة ترفض الخرافة والأسطورة...، وقارنها بالحركة البروتستانتيّة في الغرب، والتي أنتجت عصر التقدّم والتنوير...، فكأنّما السلفيّة هي هذه الثورة من النهضة الخاصّة بأمّتنا، ولقد لامس هذا

الموقف آراء أمثال (مالك بن نبي) في بعض كتاباته؛ بل لعلّه حمل بعض التأثير في أفكار حركة الإخوان المسلمين في مصر، والجماعة الإسلاميّة في باكستان.. وإن كانت الأولى قد جمعت بين النزعة الروحيّة الصوفيّة التي تربّى عليها بالأساس مؤسّسها (حسن البنّا) الذي جمع بين قدرته الاستثنائيّة على التكيّف مع مقتضيات الواقع، وبين انشداده (للطهرانيّة الدينية) النصوصيّة...

أمّا باكستان فإنّها البلد التي احتضنت حركات صوفيّة المنشأ والنظام، سلفيّة التوجّه بعد أن تلاقى مؤسّسو تلك الدعوات مع رموز من أرض الحجاز يحملون مقولات السلفيّة؛ ممّا نقل فكرة السلفيّة وكثير من برامجها التعليميّة إلى باكستان.

وفي باكستان أطلّت أفكار (أبو الأعلى المودودي)؛ لتشكّل إعادة قراءة للإسلام بروحيّة تتوافق مع الفهم التوحيديّ عند السلفّية...، ففي كتابه (المصطلحات الأربعة في القرآن)، أثار فيه أنّ إعادة فهم القرآن ينبغي أن تكون بتحديد واضح ومنهجيّ لمصطلحات (الإله، الرب، الدين، العبادة)[1].

وأسّس فهم كلٍّ منها بما يتناسب مع روح الفهم السلفيّ للتوحيد، وربطها بمعنى العبادة وعواملها النفسيّة...

بل ذهب أبعد من ذلك ليقول: «إنّ كلًّا من الإلوهيّة والسلطة تستلزم الأخرى وأنّه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح»[2].

وأنّ «من يملك حقّ السلطة هو الذي يجوز أن يكون إلهًا، وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلهًا»[3]، ثمّ إنّ السلطة لا تُجزّأ، فكما أنّ الله هو الخالق فهو الحاكم؛ لذا أطلق مفهوم (الحاكميّة الإلهيّة)، وهو الذي أفادت منه كلّ الحركات الإسلاميّة، التكفيريّة منها على وجه الخصوص،

---

(١) أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ترجمة: محمّد قاظم سباق، الطبعة ٤ (الكويت: دار القلم، ١٩٨١).

(٢) أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، الصفحة ٢٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩.

وأثمرت هذه الفكرة إنتاج ثقافة يمكن لنا تسميتها بثقافة (الوعي الحركيّ)، وهي التي شدّ أزرها (سيد قطب) في كتابه (معالم في الطريق) [1]. إذ اعتبر أنّ «العالم يعيش اليوم كلّه في جاهليّة من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقوّمات الحياة وأنظمتها» [2].

واعتبر أنّ «هذه الجاهليّة تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخصّ خصائص الإلوهيّة ... وهي الحاكميّة» [3]، وهو بهذا اعتمد فكرة (أبو الأعلى المودودي)، ثمّ اعتبر أنّ المجتمع اليوم يعيش عصر الجاهليّة الحديثة؛ ممّا سمح للجماعات التكفيريّة أن تحكم على منابع أصول الحياة ومجتمعات اليوم بالكفر الجاهليّ الصريح.

أمّا كيف يمكن مواجهة هذا المجتمع الجاهليّ ومعايشته فيقول سيّد قطب:

وأنا أعرف أنّ المسافة بين محاولة (البعث) وبين تسلم(القيادة) مسافة شاسعة... فقد غابت الأمّة المسلمة عن (الوجود) وعن (الشهود) دهرًا طويلًا، وقد تولّت قيادة البشريّة أفكار أخرى وأمم أخرى، وتصورات أخرى، وأوضاع أخرى طويلة، وقد أبدعت العبقريّة الأوروبيّة في هذه الفترة رصيدًا ضخمًا من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادّي...، وهو رصيد ضخم تقف البشريّة على قمّته، ولا تفرّط فيه ولا في من يمثّله بسهولة! وبخاصّة أنّ ما يسمّى (العالم الإسلاميّ) يكاد يكون عاطلًا من كلّ هذه الزينة! ولكن لا بدّ- مع هذه الاعتبارات كلّها- من (البعث الإسلاميّ) مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تسلّم القيادة. فمحاولة البعث الإسلاميّ هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطّيها [4].

فكيف تبدأ عمليّة البعث الإسلاميّ؟

إنّه لا بدّ من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهليّة الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا، تمضي وهي تزاول نوعًا من العزلة من جانب، ونوعًا من

---

(١)سيّد قطب، معالم في الطريق، الطبعة ٦ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩).
(٢)سيّد قطب، معالم في الطريق، الطبعة ٦ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، الصفحة ٨.
(٣)المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، الصفحتان ٦ و٧.

الاتصال من الجانب الآخر بالجاهليّة المحيطة"[1].

ويقدّم بعد ذلك جملة من النصائح في كيفية فهم هذه الجاهليّة ومواجهتها.

وهذا المنحى هو الذي أسّس أمورًا منها:

أ. تقسيم المجتمع على فئة طليعيّة هي (الإسلام)، وأخرى هي (المجتمع) الذي ينتمي للجاهليّة، وهكذا أفرز الثقافة القطبيّة قطبين: (الإسلام) وهو المجموعة القتاليّة، و(المجتمع)، وهو كلّ ما عدا تلك المجموعة.

ب. أن يكون الطموح هو قيادة كلّ العالم وتغيير كلّ أنظمته، وهذا ما قام كلّ أمير أو جماعة بتحديده بحسب رؤاهم وأمزجتهم الخاصّة.

ج. التركيز على ضرورة العزلة النفسيّة والعمليّة، حيث لا يتأثّر ولا يتكيّف أصحاب هذه الحركة بما يحيط بهم، وبهذا تنفصل الجماعات عن كلّ مكوِّن وطنيّ أو قوميّ أو سياسيّ.

د. رسم الخطط لمسير التغيير الشامل، وهو الذي تناوبت فيه حركة المراجعات عند الجماعات السريّة تحديدًا بين الإصلاح المدنيّ والتغيير العنفيّ.

هـ. إدخال ثقافة الوعي الحركيّ بوصفه أصلاً جديدًا في تمييز أفكار الحركات الإسلاميّة، وهو ما سمح بتحويل الاتجاه الدينيّ البحت إلى (منحًى أيديولوجيّ)، طبع أصحاب الدعوات التكفيريّة في خطاباتهم، وبرامجهم، ومواقفهم، وآرائهم حتّى الفقهيّة منها؛ ممّا سمح لهم بتغليب الحزبيّة على المذهبيّة.

وهذا الحجم من التأثير الذي تركه سيّد قطب يعبّر عنه (أيمن الظواهري) في كتاب له نُشرت بعض فصوله صحيفة الشرق الأوسط (فرسان تحت راية النبيّ)... عندما يقول:

وأصبح سيّد قطب نموذجًا للصدق في القول، وقدوة للثبات على الحقّ، فقد نطق بالحقّ في وجه الطاغية، ودفع حياته ثمنًا لذلك، وزاد من قيمة كلماته موقفه العظيم عندما رفض

---

(١) سيّد قطب، معالم في الطريق، الطبعة ٦ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، الصفحة ٩.

التقدّم بطلب العفو من جمال عبد الناصر، وقال كلمته المشهورة، ... (إنّ إصبع السبّابة التي تشهد لله بالتوحيد في كلّ صلاة تأبى أن تكتب استرحامًا لظالم)..

ويذهب الظواهري إلى القول:

إنّه بعد مقتل سيد قطب تكونت النواة التي انتمى إليها كاتب هذه السطور (جماعة الجهاد)، وأضافت الأحداث عاملًا خطيرًا أثّر في مسار الحركة الجهاديّة في مصر ألا وهو نكسة ١٩٦٧م وسقط الرمز جمال عبد الناصر الذي حاول أتباعه أن يصوّروه للشعب على أنّه الزعيم الخالد الذي لا يقهر[1]..

وبذلك إنّ الأيديولوجيا التي أسّس لها سيد قطب تحولت إلى تيار(جهاديّ) وجد المناخ مؤاتيًا له بسبب الإخفاق والإحباط الشامل الذي ولّدته هزيمة (١٩٦٧)..

وهنا تصاعدت أمواجٌ وتيارات إسلاميّة رفضت حتّى منطق الإخوان الذي عبَّر عنه (الهضيبي) في كتاب له - ردَّ فيه على كتاب سيد قطب - وأسماه (دعاة لا قضاة)[2].

وبرزت شخصيات وأفكار انقلابيّة من أمثال صالح سريّة ومحاولته انتهاج منهج الانقلاب من خلال خليّة (الفنيّة العسكريّة)، ومحمّد عبد السلام فرج صاحب كتاب (الفريضة الضائعة) الذي تحوَّل إلى الوثيقة الأولى للحركات الجهاديّة والعنفيّة.

وعمر عبد الرحمن الزعيم الروحيّ للجماعة الإسلاميّة، ويحيى هاشم، وعصام القمري، وغيرهم...، وهذه المجموعات حفرت في ذاكرة جماعات الجهاد عميقًا، إذ إنّ أصحابها كلّهم أو أغلبهم قد استُشهد، أو قُتل، ولا يخفى الأثر الذي يتركه الدم لدى التابعين.

ويستفيد الظواهري من هذه الظاهرة التي انبعثت في مصر للقول:

١. إنّ الشجاعة إذا لازمها الإيمان حقّقت المعجزات.

---

(١)راجع: أيمن الظواهري، فرسان تحت راية النبيّ، منبر التوحيد والجهاد، الصفحتان ١٣و ١٤. الرابط: http://www.tawhed.ws/

(٢) حسن إسماعيل الهضيبي، دعاة لا قضاة (القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلاميّة).

٢. إن القضاء على رؤوس الشر يستلزم مع الإيمان والشجاعة كفاءة عالية في التدريب والتخطيط.

٣. إنّ التغيير الجذريّ للأنظمة هو الأصل لأيّ حركة جهاديّة.

٤. ضرورة زرع الرعب بقلوب الأعداء (أمريكا، وإسرائيل، والدول العربيّة)، بحيث إنّ أيّ فعل سيستلزم ردّ فعل قاسٍ.

٥. رفض أيّ مساومة مع الأنظمة العلمانيّة، وقوانين الدول وقراراتها.

٦. قدرة اختراق الأجهزة الأمنيّة والعسكريّة المعادية.

لكنّ الظواهري، رغم ذلك، اعتبر أنّ الواقع القائم لن يحقّق الآمال، فذهب بطموحه ليعايش التجربة الأفغانيّة.

وبالعودة إلى الحركات في مصر، فإنّها قد أصدرت جملة من الوثائق جمعها الدكتور رفعت سيد أحمد في كتاب له اسمه (النبيّ المسلّح)[1]، وفي جزئه الأوّل أورد تلك الوثائق التي تقاسمت المشتركات الآتية:

١. الله وحده صاحب التشريع، وكلّ تشريع آخر باطل.

٢. ربط الإيمان بالعمل.

٣. اعتماد عقيدة السلف الصالح.

٤. تطبيق الشريعة يعني التطبيق الكامل للإسلام.

٥. شموليّة الإسلام لمختلف متطلّبات الحياة.

٦. الحكم القائم في بلاد المسلمين هو حكم كافر، والمجتمعات هي مجتمعات جاهليّة.

٧. الاستفادة من العلوم الحديثة.

٨. وجوب الهجرة لبلوغ الغاية.

٩. إحياء نظام الخلافة الإسلاميّة.

---

(١) رفعت سيّد أحمد، النبيّ المسلّح - الرافضون (بيروت: دار رياض الريس، ١٩٩١).

١٠. قتال العدو القريب أولى من البعيد.

وهذه النقاط المستخلصة من مجموع الوثائق تمثّل روح ما وصل إليه العقل السلفيّ القتاليّ، إنّما جاءت لترسم مسلكًا يقوم على السلب؛ بدءًا من بطلان كلّ تشريع لا يعتمد على عقيدة السلف الصالح، مرورًا بأنّ الممارسة العمليّة للإيمان تعني التطبيق الكامل للإسلام وكلّ ما هو دون ذلك كفرٌ صريح، وصولًا لإقرار إحياء نظام الخلافة، وأنّ الهجرة سبيل بلوغ هذا الهدف الذي يمنح نفسه فرصة الاستفادة من كلّ معرفة أو صناعة حديثة لقتال العدو، وأنّ قتال العدو القريب أولى من البعيد.

هذه الحبكة تشير إلى منطق ما اعتمدته القاعدة وما جاء في سياقها من حركات...، إلّا أنّ هناك مرحلة ما بعد القاعدة، وهي التي تحتاج منّا إلى تسليط بعض الضوء عليها، وهي في تقديري مرحلة إسلام الشارع بكلّ ما يحمله الشارع من تمايزات وتقاطعات، فيها التجاريّ المصلحيّ، وفيها السياسيّ التعبويّ التحريضيّ، وفيها العنفيّ الثأريّ في حركة العصابات، والعشائر، والمذهبيات الحاقدة، وغير ذلك؛ إلّا أنّ الخطورة هنا أنّه شارع يحصّن نفسه بدعوى القداسة (الإسلام)، ويوظّف الدين ليخدم زعيم الشارع الذي يمتهن لعبة العصبيات والأمزجة القاسية.

من هنا، إنّ ما أعتقد به أنّ هذا الاتجاه من الإسلاميين خرج من ضوابط المذهب، أو الأيديولوجيا المذهبيّة؛ لينفلت في أيديولوجيا النزاعات العصبيّة، والأمزجة المتغايرة؛ وبذلك، لا يمكن لنا في دراسة هذه الظاهرة أن نقتصر على المحامیل المفهوميّة والعقيديّة وحدها؛ بل ينبغي دراسة أمور أساسيّة من مثل: الذاكرة التاريخيّة القائمة على تفوّق الأكثريّة العدديّة وحقّها في السلطة والحكم، وهي ذاكرة تعرّضت لضربات قاسية بعضها مذهبيّ، وبعضها قوميّ، إلّا أنّ الضربة الأعنف كانت نتيجة الأفق السياسيّ.

لقد اعتبر قادة هذه الجماعة أنّهم خسروا سياسيًّا في إدارة شؤون الحكم والمجتمع، على حين ربح غيرهم في تجارب مشابهة؛ لكن في مجتمعات غير مجتمعاتهم، مما ولّد عندهم إحساسًا

هائلًا بالإحباط دعاهم للتخلّي عن هويّاتهم المجتمعيّة والوطنيّة التي خاصموها، كما خاصموا الناجحين من الإسلاميين في بيئاتهم الخاصّة، ولقد استخدموا لغة الجحيم في هذه المواجهة التي أطلقوا فيها على كلّ خصومهم اسم (الكفّار)، ووظّفوا كلّ الطاقة المعنويّة للمذهب في هذه الحرب.

من هنا، يكون فهمنا لمصطلحات: الدولة، الخلافة، الشريعة ... عندهم أنّها قد زُحزحت عن معانيها الدينيّة والمعرفيّة، وألبسوها ثوب الشارع، فلم تعد جغرافيّة الخلافة هي الأمّة بقدر ما هي الحقد العصبيّ والمذهبيّ.

ولم تعد جغرافيّة الدولة هي الوطن؛ بل صارت عبارة عن أحياء وشوارع مركزيّة؛ وعليه لم تعد السلفيّة مذهبًا، ولا الإسلام دينًا بمقدار ما صارا عصابةً وحزبًا... وفي ظنّي أنّ كلّ قراءة لهذه الظاهرة تستثني (الشارع) بوصفه قيمةً هي قراءة قاصرة عن فهم تنظيمات ما بعد القاعدة...

أسس البناء الفكري للجماعات الإرهابية

بين الاتجاهات السلفية والحركية

أسس البناء الفكري للجماعات الإرهابية بين الاتجاهات السلفية والحركية

د. نور الدين أبو لحية *

مقدمة

من الأخطاء الكبرى التي يقع فيها من يزعم لنفسه أنه يقاوم الإرهاب، أو يجفف منابعه، أنه يرى هذه الظاهرة مجرد عمل عسكري منظم من طرف جماعة، أو جماعات من المتعصبين الذين دفعتهم ظروفهم النفسية أو الاجتماعية لممارسة هذا النوع من التطرف في المجتمع.

وأصول الخطأ في هذا التحديد للإرهاب يكمن في أمرين:

الأول: وصفه عمل عسكري منظم فقط، يقوم به مجموعة من المنهزمين نفسياً أو اجتماعياً، وذلك غير صحيح، والواقع لا يدل عليه، فالإرهاب منظومة متكاملة تبدأ بالفكر والعقيدة، وتنتهي بتلك الممارسات العسكرية، ولا يمكن استئصال الإرهاب من دون استئصال جذوره ومنابعه وأسسه التي يقوم عليها.

الثاني: حصره بالإرهابيين الذين حملوا السلاح فقط، في حين يغفل عن كثير من الذين يحملون فايروس الإرهاب، ولو لم تظهر عليهم أعراضه، وفايروس الإرهاب يتمثّل في الأفكار التي تتجول في المجتمع بحرية، بل تتاح لها كل الوسائل لتقوم بنشر الأفكار الإرهابية، لتخرج لنا كل يوم جماعة إرهابية جديدة، أكثر تطوراً، وأشد شراسة.

---

* دكتوراه في أصول الدين بجامعة باتنة – الجزائر.

وبناءً على هذا تظهر أهمية البحث في الأسس الفكرية والعقدية التي يقوم عليها البناء الإرهابي؛ وذلك أن مقاومة الإرهاب تستدعي البحث عن تلك العقول التي تنشر الإرهاب بخطبها ودروسها وكتبتها وحواراتها، التي تتنقل بحرية بين عواصم العالم لتمدّ الإرهاب بكل ما يحتاجه من عناصر ومناصرين.

والبحث في هذا يجعلنا نرى بوضوح المفارقة العجيبة التي تمارسها الأنظمة العربية والإسلامية والعالمية، حين تكتفي فقط بوصف أشخاص أمثال أسامة بن لادن، وأبي بكر البغدادي، وأبي محمد المقدسي، وأبي قتادة الفلسطيني، وغيرهم بالإرهابيين، في حين تجعل أشخاصاً آخرين، قد يكونون أكثر خطراً، وأشد حقداً، أمثال القرضاوي، والعريفي، والحويني، والضاري، وغيرهم، دعاةً إلى الله وإلى دين الله، فتيسر لهم ارتقاء جميع المنابر، والوصول إلى جميع الناس لتحريضهم ونشر الفتنة في ما بينهم.

وهذا ما يدل عليه الواقع، فداعش لم تكن لتؤسَّس، لولا ذلك التحريض الشديد الذي كان يقوم به القرضاوي، والعريفي، والضاري، وغيرهم من المشايخ الذين كانوا، وما زالوا يحرضون بكل الوسائل والأساليب على تدمير سورية، والعراق، وليبيا، وغيرها من بلاد العالم الإسلامي.

وباستقراء عينات كثيرة من المشايخ الذين يعدّون بحق السند الفكري للإرهاب، أو يعدّون العقل المفكر له، أو الأب الروحي له، رأينا وجود منبعين كبيرين للإرهاب، لكل منهما تصوراته العقدية والسلوكية الخاصة، ولكل منهما فهمه الخاص للإسلام، ولكل منهما هدفه الخاص، الذي يرى فيه رسالته التي يجب أن ينهض بها في هذا العالم، ولكل منهما في الأخير الجهة السياسية التي تنتصر له، وتنشر فكره، وتدعمه بكل الوسائل.

وهذان المنبعان الكبيران هما:

١ ـ **المدرسة السلفية الوهابية:** وهي المدرسة المتفرعة من مذهب أهل الحديث قديماً، التي مثلها ونظّر لها ابن تيمية، ثم سار على نهجه محمد بن عبد الوهاب، فدعمها بتأسيس

حركته المشهورة، وقد أثّرت هذه الحركة في كل الحركات والمدارس، سواء نُعتت بالسلفية أم لم تُنعت.

٢ ـ المدرسة الحركية السياسية: أو ما يسمى بالإسلام السياسي، التي تمثلها في الغالب حركة الإخوان المسلمين، ومن انتهج نهجها من الجماعات والأحزاب، مثل جبهة العمل الإسلامي في الأردن، وحركة مجتمع السلم في الجزائر، وحركة النهضة في تونس، وحزب التجمع والإصلاح في اليمن، والإخوان المسلمين في العراق، والإخوان المسلمين في سورية، وغيرها من الجماعات والأحزاب.

وقد رأينا نفي إمكان مواجهة الإرهاب، ودحره، واستئصاله من حياتنا إلا بعد تجفيف هذه المنابع الفكرية تجفيفاً كلياً، ومنع نفوذها وانتشارها، وإلا فإن العمليات العسكرية لن تنفع وحدها، فهي تقضي على الأعراض، أو ما خرج من الإرهاب إلى الواقع، أما المصدر الذي يمد الفكر الإرهابي، فإنه يظل يصدّر أفكاره كل حين، ليخرج لنا في كل يوم جماعة أو جماعات إرهابية جديدة أكثر تطرفاً وغلواً.

وقد حاولنا في هذه الدراسة - باختصار- تعرّف أهم المواد الفكرية التي يصدّرها هذان الاتجاهان لبناء الشخصية الفكرية للجماعات الإرهابية، التي تقوم على ثلاثة أسس كبرى هي:

١ ـ التميز والطائفية .

٢ـ التضليل والتكفير .

٣ ـ العنف والإرهاب .

فالإرهاب يبدأ -أولاً- حينما يكون الشخص أو الجماعة نفسها متميزة عن الآخرين، وأن لها حق الوصاية عليهم، وأنها الطائفة الوحيدة المنصورة الناجية، وأنها وحدها تمثل الإسلام.

ثم يتعدى ذلك إلى الحكم على المخالفين الذين لم ينصاعوا لوصايتها، بأنواع الأحكام

المختلفة، التي تنطلق من التضليل والتبديع وتنتهي بالتكفير.

ثم يتعدى ذلك إلى ممارسة العنف بأنواعه المختلفة على هؤلاء الذين حكم عليهم بالضلال أو البدعة أو الكفر.

فهذه الأسس الثلاثة هي الركائز الكبرى التي يقوم عليها البناء الفكري والعقيدي للشخصية الإرهابية، وبقدر المدد الذي تحظى به هذه الأسس، بقدر ما تكون شراسة الإرهابي وعنفه.

وقد حاولنا في هذا البحث أن ندرس المادة الفكرية التي تزود بها هذه الأسس من جانب الاتجاهين الكبيرين العاملين في الواقع الإسلامي: الاتجاه السلفي، والاتجاه الحركي.

وقد قسمنا الدراسة على ثلاثة مباحث، تناولنا في كل مبحث منها أساساً من الأسس.

أولاً ـ التميز والطائفية

الأساس الأول الذي تُبنى عليه الشخصية المعنوية للجماعات الإرهابية هي شعورها بالتميز، الذي يجعلها تتصرف، وكأنها الممثل الوحيد للإسلام، وأنها الفرقة الناجية، وأن من عداها كفرة ومبتدعون ومرتدون، وهذا الشعور هو الذي يولد كل قيم الطائفية، وهو الذي يقف عائقاً في طريق الوحدة الإسلامية، بل يقف عائقاً في وجه كل داعية من أجل التقريب بين المسلمين، ويقف عائقاً بعد ذلك في طريق إبراز النزعة الإنسانية للإسلام، بوصفه رحمة للعالمين؛ لأن الاستعلاء الذي يحمله هذا الفكر يحول بينه وبين التواصل مع الآخر، مهما كان ذلك الآخر.

ومع أن لهذا الأساس أسباباً نفسية كثيرة، إلا أن الفكر الذي تتغذى به هذه الأسباب، يساهم بنحوٍ كبير في ترسيخ المرض وتعميقه، وقد رأينا أن من أهم المواد الفكرية التي تُغذي هذه العقد النفسية، تلك المواد التي تفرزها كل حينٍ التنظيمات والجماعات السلفية والحركية باستخدام جميع الوسائل المتاحة لها.

وسنحاول هنا - باختصار - أن نبين أثر هذين الاتجاهين كليهما في ترسيخ هذا الأساس، وإمداد الجماعات الإرهابية به.

١ ـ الاتجاهات السلفية:

تنطلق الاتجاهات السلفية - في أول ظهور لها - من محاولة التميز عن سائر المسلمين، جاعلةً من نفسها صاحبة الحق المطلق، وأنها الفرقة الناجية، وأن من عداها ضال ومبتدع ومنحرف عن الطريق المستقيم.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فلا حرج على أية جماعة أن تعتقد في نفسها الصواب، وتعتقد في غيرها الخطأ، ولكن الذي يفرق السلفيين من غيرهم في هذا، هو تميزهم وطائفيتهم، فشعارهم - كما يذكر ابن بطة (المتوفى: ٣٨٧هـ): «من لم يكن معنا فهو علينا»[١].

ولهذا إن هذا الاتجاه وضع منظومة محددة، تجعل كل من خرج عليها مبتدعاً ضالاً أو كافراً مرتداً، أو كما عبّر عن ذلك أبو محمد الحسن البربهاري (المتوفى: ٣٢٩هـ)، وهو من كبار المؤسسين لهذا الاتجاه، إذ ألّف رسالة في (شرح السنة)، قال في خاتمتها: «فمن أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماماً، ولم يشكّ في حرف منه، ولم يجحد حرفاً واحداً، فهو صاحب سنة وجماعة، وهو كاملٌ، قد كملت فيه السنة، ومن جحد حرفاً مما في هذا الكتاب، أو شكّ في حرف منه أو شكّ فيه أو وقف فهو صاحب هوًى . ومن جحد أو شكّ في حرف من القرآن، أو في شيء جاء عن رسول الله ﷺ، لقي الله تعالى مكذباً، فاتقِ الله واحذر وتعاهد إيمانك»[٢].

وهكذا نلحظ في كل الكتابات السلفية، سواء من المتقدمين أم المتأخرين، فهم يرون أنهم في الأصول والفروع من أصحاب الحق المطلق، ومن خالفهم فهو ضالّ مبتدع، أو كافر مرتد،

---

(١) الإبانة الكبرى، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وحمد التويجري، وغيرهما، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ج٢، ص ٤٧٤.

(٢) شرح السنة، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، المحقق: عبد الرحمن بن أحمد الجميزي، دار المنهاج، ١٤٢٦ هـ، ص: ١٣٢.

ويبنون على هذا بعد ذلك ما سنراه من أحكام.

وبناءً على هذا الشعور بالتميز عن سائر المسلمين، فإنهم يرون أنفسهم غرباء في الواقع الإسلامي، وهم يمدحون هذه الغربة، ويشعرون فيها بأنهم هم المجتبون المصطفون الذين اختارهم الله لحفظ دينه، ولهذا نجد في كتبهم ورسائلهم وخطبهم أنهم يرددون مصطلح الغربة كثيراً، وينقلون عن سلفهم في ذلك كثيراً من المرويات التي تزيد من شعورهم بالتميز والطائفية.

ومن أمثلة ذلك ما نقله ابن رجب (المتوفى: ٧٩٥هـ)، في كتابه (كشف الكربة في وصف أهل الغربة) تحت عنوان: «الإسلام لا يذهب، ولكن يذهب أهل السنة»[١] من روايات قدم لها بقوله: و«لهذا المعنى يوجد في كلام السلف كثيراً مدح السنة ووصفها بالغربة ووصف أهلها بالقلة»[٢].

ومن تلك الروايات قول الأوزاعي: «أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنة حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد»، وقول الحسن لأصحابه: «يا أهل السنة! ترفقوا - رحمكم الله - فإنكم من أقل الناس»، وقول يونس بن عبيد: «ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها»، وقول سفيان الثوري: «استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء»[٣].

ثم عقبّ على هذه الروايات بقوله: «صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم السنة عبارة عما سَلِمَ من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم باسم السنة؛ لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة»[٤].

---

(١) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (وهو مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي)، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دراسة وتحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ص٣١٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣١٩.

(٤) المصدر السابق، ص٣٢٠.

وهم لهذا، يذكرون ما ورد في النصوص المقدسة من مدح القلة، ويرون أنها خاصةٌ بهم، ويروون عن يوسف بن أسباط قوله: «أهل السنة أقل من الكبريت الأحمر»، ويقول ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ): «إن الله لم يكن ليجمع هذه الأمة على ضلالة، وإنه لا يزال فيها طائفة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، ولا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعة الله»[١].

ويضيفون إلى هذا جعل أنفسهم الأمة الوسطية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢].

وقد أوضح ابن تيمية الكثير من مظانّ هذه الوسطية، وانطباقها على الاتجاه السلفي وحده من دون سائر المسلمين، وهي في أكثرها قضايا فرعية خلافية، يخالفهم فيها أكثر المسلمين، منها «فهم- أي أهل السنة -[٣] في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه، حتى يشبهوه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال، ويشبهونه بالمخلوقات، فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف وتمثيل»[٤].

وابن تيمية يقصد بهذا عقيدة التجسيم التي يتبناها الاتجاه السلفي، التي يعدّ خلافها كفراً وبدعة وتعطيلاً لصفات الله، فلهذا يجعلون من أول اليد أو العين، ولم يرَ أن المقصود ظاهرها منحرف عن العقيدة الصحيحة، بل كافر، حلال الدم كما سنرى.

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، (٨/ ٣٥٠).

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) مصطلح أهل السنة عند أصحاب الاتجاه السلفي قاصر عليهم وحدهم دون غيرهم من الأشاعرة والماتريدية، كما سنرى.

(٤) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، (٣/ ٣٧٣)

وهكذا نجدهم وضعوا سياجاً من الضوابط يحمي حماهم، وكل من عداه مبتدع ضال، إن نجا من بدعة، فسيقع لا محالة في بدعة أخرى يكفر على أساسها.

ولهذا قد ينجو الأحناف مثلاً؛ بسبب مواقفهم من الصحابة التي أعطوها بعداً دينياً عقدياً، ولكنهم سيقعون في مواقفهم من القرآن الكريم، أهو مخلوق أم لا، يقول أبو الحسين بن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ) ناقلا إجماع الاتجاه السلفي على هذا: «أجمع من أدركنا من أهل العلم أن الجهمية افترقت ثلاث فرق فقالت طائفة منهم القرآن كلام الله مخلوق، وقالت طائفة القرآن كلام الله وسكتت، وهي الواقفة الملعونة، وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة فكل هؤلاء جهمية كفار يستتابون، فإن تابوا، وإلا قتلوا وأجمع من أدركنا من أهل العلم أن من هذه مقالته إن لم يتب لم يناكح ولا يجوز قضاؤه ولا تؤكل ذبيحته»[1].

ومعلوم أن تطبيق هذه المقولة وحدها على الأمة كافٍ وحده لإخراجها من الملّة، فلا أحد من الأمة - غير أصحاب الاتجاه السلفي - إلا وهو يقول بأن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة.

وقد ورث الوهابية عن سلفهم هذا الشعور بالتميز والطائفية، فلذلك لا يمكن جَعْل الوهابية شيئاً حادثاً، بل هي مظهر من مظاهر السلفية القديمة، أو هي مجرد مرحلة من مراحلها، وقد وصف أمين الريحاني ذلك التميز الذي يشعر به الوهابية، فذكر أنهم «يعتقدون أن من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم، فيشيرون إلى ذلك في سلام بعضهم على بعض: (السلام عليكم يا أيها الإخوان حيا الله المسلمين). وإذا سلّم عليهم سني أو شيعي فلا يردون السلام»[2].

ورسائل محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ممتلئة بمثل ما كتبه ابن بطة، والبربهاري، وابن تيمية، وغيرهم من ذلك الاستعلاء السلفي الذي يسمونه عِزة، ولهذا نجد لديهم كل ما نجده لدى أسلافهم من العجب والغرور والكبرياء.

---

(١) طبقات الحنابلة، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت، (١/ ٣٤٣).

(٢) نقلا عن: معجزة فوق الرمال، أحمد عسه، المطابع الأهلية اللبنانية - بيروت، ١٩٧٥م، ص ٦٤.

فهم يجعلون أنفسهم القلة المؤمنة السنية، في وسط الكثرة المشركة المبتدعة، وقد دافع ابن عبد الوهاب كسلفه، على أن الحق محصور في قلة قليلة، فقال في رسالة له إلى الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف: «إن رسول الله وأصحابه ... أخبروا أنه لا يصبر على الدين إلا الواحد بعد الواحد، وإن الإسلام يصير غريباً كما بدأ ... فإذا كان الإسلام يعود كما بدأ، فما أجهل من استدل بكثرة الناس وإطباقهم ... فلتكن قصة إسلام سلمان الفارسي منكم على بال، ففيها: إنه لم يكن على دين الرسل إلا الواحد بعد الواحد، حتى أن آخرهم قال عند موته قال: لا أعلم على وجه الأرض أحداً على ما نحن عليه، ولكن قد أطل زمان نبي. واذكر مع هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[1]»[2].

وهم يبالغون في تزكية أنفسهم وأتباعهم بكونهم الوحيدين الذين فهموا عقائد الإسلام، يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن متحدثاً عن جده محمد بن عبد الوهاب: «ولهذا المجدد علامة يعرفها المتوسمون، وينكرها المبطلون، أوضحها وأجلاها وأصدقها وأولاها، محبة الرعيل الأول من هذه الأمة، والعلم بما كانوا عليه من أصول الدين، وقواعده المهمة التي أصلها الأصيل وأسها الأكبر الجليل معرفة الله بصفات كماله، ونعوت جلاله، وأن يوصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم- من غير زيادة ولا تحريف ومن غير تكييف ولا تمثيل»[3].

وهذا نفسه ما زعموه لابن تيمية أو للسلف الذين جعلوهم الناطقين باسم الإسلام، وقد ذكر ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ) في كتابه: «الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» هذه المنقبة لابن تيمية، التي رواها ابن حجي عن البطائحي المزي قال: «كنت شاباً وكانت لي بنت، حصل لها رمد، وكان لنا اعتقاد في ابن

---

(١) هود: ١١٦.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، (١/ ٤١) مع تصرف يسير.

(٣) المصدر السابق، ج١٤، ص١٩٤.

تيمية، وكان صاحب والدي، ويأتي إلينا ويزور والدي، فقلت في نفسي: لآخذن من تراب قبر ابن تيمية فلأكحلها به، فإنّه طال رمدها، ولم يفد فيها الكحل، فجئت إلى القبر، فوجدت بغدادياً قد جمع من التراب صرراً، فقلت: ما تصنع بهذا ؟ قال: أخذته لوجع الرمد أكحل به أولاداً لي فقلت: وهل ينفع ذلك؟ فقال: نعم، وذكر أنه جربه، فازددت يقيناً فيما كنت قصدته، فأخذت منه فكحلتها، وهي نائمة، فبرأت»[1].

وهم يقبلون هذا، ولا ينكرون عليه[2] في الوقت نفسه الذي ينكرون فيه بشدة، بل يكفّرون من يعظم تراب الحسين عليه السلام ويستشفي به .

٢ ـ الاتجاهات الحركية:

من باب الموضوعية العلمية، لا يمكن وضع الشخصيات الممثلة أو المنتمية أو المحترمة لدى الاتجاهات الحركية في محل واحد؛ وذلك أن هذه الحركات تضم بعضاً من المثقفين من أصحاب النيات الطيبة، الذين صدقوا في التزامهم بالإسلام، وأحبوا أن يمارسوا أي خدمة تنتصر له، فلم يجدوا إلا هذه الحركات بما تملكه من وسائل وجماهير.

ولذلك يمكن تصنيف المواقف الفكرية لدى هذه الاتجاهات في ما يخص هذه النقطة خصوصاً على قسمين:

الحركيون الوحدويون:

ونريد بهم بعض الشخصيات الفكرية الإسلامية التي تدعو إلى الانفتاح على الآخر، وتدافع عن الإسلام، وتدعو إلى الإسلام بعيداً عن الطائفية، وهي - يا للأسف - فئة محدودة جداً في هذه الحركات، وهي في الغالب مهمشة، ولا يتاح لها أن تصل إلى مراكز حساسة، وإذا

---

(١) الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، محمد بن عبد الله (أبو بكر) القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين، المحقق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣، ص٧٤.

(٢) وقد ذكر ابن ناصر الدين في (الرد الوافر، ص: ٧٥) تعقيباً على تلك القصة، قال فيه: (وحكيت ذلك لابن قاضي الجبل يعني الإمام شرف الدين أبا العباس أحمد ابن الحسن بن عبد الله بن شيخ الإسلام أبي عمر المقدسي قال وكان يأتي إلينا فأعجبه ذلك وكان يسألني ذلك بحضرة الناس فأحكيه ويعجبه ذلك).

ما وصلت حيل بينها وبين تنفيذ مشروعها الوحدوي.

ومن الأمثلة على ذلك الشيخ محمد الغزالي، الذي يعدّه كثير من الإخوان المسلمين واحداً منهم، فهو في هذا الأمر خصوصاً كان من المدافعين عن الوحدة الإسلامية، وشنّ في كتبه ومحاضراته حملة شديدة على الطائفيين، ومن الأمثلة على هذا موقفه من فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر المشهورة، التي نص فيها على أن: «مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر المذاهب، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة»[1]، فقد علق الشيخ محمد الغزالي على هذه الفتوى بقوله: «واعتقد أن فتوى الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت، قطعت شوطاً واسعاً في هذا السبيل، واستئناف لجهد المخلصين من أهل السلطة وأهل العلم جميعاً، وتكذيب لما يتوقعه المستشرقون، من أن الأحقاد سوف تأكل الأمة، قبل أن تلتقي صفوفها تحت راية واحدة... وهذه الفتوى في نظري، بداية الطريق وأول العمل»[2].

وقال: «إنَّ الشيعة يؤمنون برسالة محمد ﷺ، ويرون شرف عليٍّ في انتمائه إلى هذا الرسول، وفي استمساكه بسنته، وهم كسائر المسلمين، لا يرون بشراً في الأولين ولا في الآخرين أعظم من الصادق الأمين، ولا أحق منه بالاتباع، فكيف ينسب لهم هذا الهذر؟ والواقع أن الذين يرغبون في تقسيم الأمة طوائف متعادية، لمّا لم يجدوا لهذا التقسيم سبباً معقولاً لجؤوا إلى افتعال أسباب الفرقة، فاتسع لهم ميدان الكذب حين ضاق ميدان الصدق، لست أنفي أن هناك خلافات فقهية ونظرية بين الشيعة والسنة، بعضها قريب الغور وبعضها بعيد الغور، بيد أن هذه الخلافات لا تستلزم معشار الجفاء الذي وقع بين الفريقين، وقد نشب خلاف فقهي ونظري بين مذاهب السنة نفسها، بل بين أتباع المذهب الواحد منها، ومع ذلك

---

(١) وقد صرّح مفتي مصر السابق الشيخ علي جمعة - كما ورد في شبكة إشارة الإخبارية، بتأريخ ٥/ ٢/ ٢٠٠٩م-بنفس الفتوى قائلاً: (يجوز التعبّد بالمذاهب الشيعيّة ولا حرج، وقد أفتى بهذا شيخ الأزهر الراحل محمود شلتوت، فالأمّة الإسلامية جسد واحد، لا فرق فيه بين سنّي وشيعي، طالما أنّ الجميع يصلّي صلاة واحدة ويتّجه لقبلة واحدة، وأنّ الشيعة كانوا دائما جزءاً لا يتجزأ من الأمة الإسلاميّة).

(٢) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، ص٢٥٧.

فقد حال العقلاء دون تحول هذا الخلاف إلى خصام بارد أو ساخن»[١].

ويقول في موضع آخر داعياً إلى ما دعا إليه الشيخ شلتوت من إتاحة الحرية الدينية بين المسلمين؛ ليختار كل مسلمٍ ما يراه مرضياً له عند ربه: «إن السلف والخلف وأهل السنة والشيعة والمتصوفة والمتفلسفة كلهم يرى أنه يخدم الإسلام ويناصر نبيه ﷺ، ويرفع رايته، ومن الصعب إقناع الحَرْفيين من أهل النص بأن مذهب العقليين أولى بالحق وكذلك العكس، ومن الصعب إقناع العاطفيين من أصحاب القلوب أن مذهب أهل الفقه أدق وأجدر بالاستمساك، وكذلك العكس، ومن الصعب إقناع الشيعة الذائبين في محبة آل البيت أن النظام الجمهوري في اختيار الإمام وعزله أولى من الالتفاف حول قريب للرسول ﷺ تضفى عليه العصمة، وكذلك العكس، ونحن نرفض في التعليق على مذاهب أولئك جميعاً قول الشاعر: وكل يدّعي وصلا لليلى وليلى لا تقّر لهم بذاكا، كما نرفض اعتبار الحق سائلاً يتلوّن مع كل إناء، وأنه ليست له حدود قائمة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها»[٢].

وصرّح في موقف آخر تصريحاً لا يقل عن تصريح محمود شلتوت، فقال: «ولقد رأيت أن أقوم بعمل إيجابي حاسم سدّاً لهذه الفجوة التي صنعتها الأوهام، فرأيت أن تتولى وزارة الأوقاف ضم المذهب الفقهي للشيعة الإمامية إلى فقه المذاهب الأربعة، وستتولى إدارة الثقافة تقديم أبواب العبادات والمعاملات في هذا الفقه الإسلامي لمجتهدين من إخواننا الشيعة، وسيرى أولو الألباب عند مطالعة هذه الجهود العلمية أن الشبه قريب بين ما ألفنا من قراءات فقهية، وبين ما باعدتنا عنه الأحداث السيئة»[٣].

وتظهر قيمة موقف الشيخ محمد الغزالي إذا ما قارناه بموقف يوسف القرضاوي في المسألة نفسها، إذ نجده يستعمل كل الوسائل لينكر هذه الفتوى مع تحققها وثبوتها[٤].

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة : الأولى، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٣.

(٣) كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، ص١١٨.

(٤) انظر لقاء جرى بينه وبين بعض الشباب في دورة (علماء المستقبل) التي ينظمها (اتحاد العلماء في القاهرة)، كما هو منشور في موقعه بتاريخ ٩/ ٤/ ٢٠٠٩م.

الحركيون الطائفيون:

ونريد بهم أكثر الحركيين الموجودين في الساحة الإسلامية سواء أكانوا من الإخوان المسلمين أم غيرهم؛ وذلك نتيجة تأثرهم الشديد بالفكر الوهابي؛ ونتيجة تبني السعودية لكثير منهم إبان المحن التي مروا بها.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدّ أو تحصى؛ لأن الواقع الحركي الآن واقع وهابي سلفي ذو ميول علمانية، وما إن نتابع الحوارات التي يجريها قادة هذه الحركات، نرى بوضوح مدى تغلغل الفكر السلفي الوهابي الطائفي فيهم.

ومثال على ذلك سعيد حوى - الذي تولى أرفع المناصب في حركة الإخوان المسلمين السورية- والذي تعامل مع الثورة الإسلامية في إيران بنظرة طائفية، وكتب كتابه المعروف (الخميني: شذوذ في العقائد، شذوذ في المواقف)، الذي يتخذه الإرهابيون من مراجعهم التي يستندون إليها في حرب الشيعة في كل مكان.

وهو لم يكتفِ بالخميني فقط، وإنما عمّم أحكامه على جمهور الشيعة كلهم، وعدّهم خطراً على الإسلام، يقول في ذلك: «جاءت الخمينية المارقة تحذو حذو أسلافها من حركات الغلو والزندقة التي جمعت بين الشعوبية في الرأي والفساد في العقيدة، تتاجر بمشاهر جماهير المثقفين المتعلقين بالإسلام تاريخاً وعقيدة وتراثاً، فتتظاهر بالإسلام قولاً، وتبطن جملة الشذوذ العقدي والحركي الذي كان سمة مشتركة وتراثاً جامعاً للهالكين من أسلافها من الأبامسلمية والبابكية والصفوية، فيعيدون إلى واقع المسلمين كل نزعات الشر والدمار التي جسدتها تلك الحركات المشبوهة الساقطة في شرك الكفر والزندقة والعصيان، وتعيد إلى الأذهان كل مخططات البرامج الباطنية القائمة على التدليس والتلبيس، فتدعي نصرة الإسلام وهي حرب عليه - عقيدة ومنهجاً وسلوكاً - وتتظاهر بالغيرة على وحدة الصف الإسلامي، وهي تدق صباح مساء إسفيناً بعد إسفين في أركان الأمة الواحدة، متوسلة إلى ذلك بنظرة مذهبية شاذة، وتزعم نصرة المستضعفين في الأرض وهي تجند الأطفال والصغار وتدفعهم

قسراً وإلجاءً إلى محرقة الموت الزؤام، ثم هي لا تكتفي بكل هذا الشر الأسود بل، تقيم فلسفتها جملة وتفصيلاً على قراءة منحرفة، قوامها التلفيق والتدليس لكل تاريخ المسلمين، فتأتي على رموزه وأكابر مؤسسيه هدماً وتشويهاً وتمويهاً، وتجدد الدعوة بإصرار إلى كل الصفحات السلبية السوداء الماضية في التاريخ، والتي ظن المخلصون أنها بادت فليس من مصلحة المسلمين، ولا في صالح الإسلام إعادة قراءتها من جديد، فلقد قاسى الجميع من شرها ما لا يحصره كتاب»[1].

والمثال الأبرز المعاصر هو يوسف القرضاوي، والمؤسسة الضخمة التي أسسها (اتحاد علماء المسلمين)، التي سُخّرت لها أموال ضخمة، لتنشر الطائفية بين المسلمين، وقد نشر كثيراً من البيانات الطائفية؛ مستغلاً جميع وسائل الإعلام لذلك، ومستغلاً كذلك تلك الجماهيرية التي أتيحت له في الأوساط السنية، ولهذا - يا للأسف - نسي الناس كلام محمد الغزالي، وغيره من التقريبيين، وطغى الفكر الطائفي في هذه الحركات.

ومثال على ذلك، أن هذا الشيخ استغل موسم الحج في أكتوبر ٢٠١٢، فراح في خطبة له، يطلب من المسلمين الدعاء على إيران، بجعلها من أعداء الأمّة، ولمنعها من التدخل العسكري الخارجي في سورية، أو التدخل التكفير الإرهابي فيها.

ثانياً ـ التضليل والتكفير

من أهم الخصائص التي تقوم عليها الشخصية التكفيرية: إلغاء الآخر، وعدم اعتباره، وقطع كل صلة معه، وهم يستعملون لهذا الإلغاء اصطلاحات مختلفة كلها تصب في محل واحد هو التكفير والتبديع، ثم الحكم الأخروي على هذا الآخر بكونه من أهل جهنم، والحكم الدنيوي عليه باستباحة دمه وماله وعرضه وكل ما يملك.

وهذه الخصيصة أو الأساس الذي تقوم عليه شخصية الإرهابي مظهر من مظاهر

---

(١) الخميني: شذوذ في العقائد، شذوذ في المواقف، سعيد حوى، دار عمار للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص٥.

الأساس السابق، وثمرة خبيثة من ثماره، وذلك أن الذي يريد أن يتميز، ويشار إليه بالبنان، ويتصور أنه المصطفى المختار، يجد في طريقه الكثير ممن ينافسونه على هذه المراتب، فلذلك لا يجد سلاحاً يلبي رغبته مثل سلاح الإلغاء والتكفير والتبديع؛ لأنه بذلك يضمن شفاء غليله في الدنيا بالانتقام والحقد، ويضمن شفاء غليله - كما يتوهم - في الآخرة، بأن يذهب هذا الذي يحقد عليه إلى جهنم، بينما يذهب هو إلى الجنة.

وقد رأينا بلحاظ دارسة كثير من الكتب والرسائل التي ألفها هؤلاء الإرهابيون أنهم يعتمدون في هذه الأحكام، وما يترتب عليها على الاتجاهين كليهما: السلفي والحركي، كما سنوضحه في هذا المحل.

١ ـ الاتجاهات السلفية:

بناءً على ما سبق بيانه في المبحث السابق، فإن الاتجاه السلفي أو (أهل الحديث) أو (الوهابية)، هم أكثر الناس غرقاً في التكفير ابتداءً من القرون الأولى إلى العصر الحالي، ولذلك إن ظاهرة التكفير ليست بدعة حادثة، بل هي سنة سلفية قديمة.

وهذا الموقف نجده ينطبق على كل أعلام الأمة بمدارسها المختلفة، فالكل عندهم كافر أو مشرك أو زنديق، لأنه لا بد من أن يقع -لا محالة - في الشباك التي نصبوها له في كل محل.

وسنعرض هنا باختصار بعض الأمثلة عن تلك الشِباك التي نصبها هذا الاتجاه للمخالفين، والتي يسميها (نواقض الإيمان)، والتي يجعل من وقع فيها كافراً مشركاً مرتداً حلال الدم، حتى لو أدى شعائر الإسلام جميعها، والتزم بكل حدوده.

التوحيد:

يعدّ التوحيد بالمفهوم السلفي الوهابي الذي نظّر له ابن تيمية، وركّز عليه محمد بن عبد الوهاب، وتبنته بعد ذلك كل التنظيمات الإرهابية هو الأداة الكبرى التي حكم بها هذا الاتجاه على أكثر المسلمين بالشرك ومقتضياته.

فمفهوم الشرك عند هذا الاتجاه يختلف عن مفهومه عند جميع المدارس والفرق الإسلامية؛ وذلك أنه لا يعني فقط جعل الندّ مع الله تعالى، وإنما يضيفون إليه كثيراً من السلوكيات التي يمارسها المسلمون، سلفهم وخلفهم، بنية تعظيم من أمر الله بتعظيمه من الصالحين والأولياء، ونحو ذلك، فيجعلون تلك السلوكيات التعظيمية شركاً جلياً بالله تعالى.

ولهذا يدخل في الشرك الجلي عندهم التوسل بالأولياء، أو الاستغاثة بهم، أو النذر لهم، أو القسم بهم، أو طلب الشفاعة منهم، أو زيارة ضرائحهم، أو البناء على قبورهم ... وغير ذلك، مما يسمونه (نواقض التوحيد).

فكل من فعل هذا عندهم مشرك، وإن صلى وصام وحج وعمل، بكل ما طلبته الشريعة من تكاليف، يقول محمد بن عبد الوهاب في رسالة له في (معنى لا إله إلا الله): «إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفاً من الله عز وجل، ولكنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الإلوهية؛ وذلك أن المشركين كانوا يدعون الصالحين، مثل الملائكة وعيسى وعزير وغيرهم من الأولياء، فكفروا بهذا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، وإذا عرفت هذا عرفت معنى (لا اله إلا الله)، وعرفت أنّ من دعا نبياً أو ملكاً أو ندبه أو استغاث به، فقد خرج من الإسلام»[1].

وهم لأجل هذا يعدّون جميع المسلمين في جميع البلاد الإسلامية كفاراً ومشركين، وقد ورد في (الدرر السنية) الذي يعدّ المصدر الأكبر للفكر الوهابي في (رسالة الأمير عبد العزيز بن سعود إلى أهل المخلاف السليماني يعرفهم بدين الإسلام): « إن الله تبارك وتعالى، أرسل محمداً ﷺ إلينا على حين فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل، والشرع التام؛ وأعظم ذلك وأكبره، وزبدته، هو: إخلاص الدين، لله، بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك؛ وهو: أن لا يُدعى أحدٌ من دونه، من الملائكة، والنبيين، فضلاً عن غيرهم؛ فمن

(١) نقلا عن: عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

ذلك: أن لا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا له؛ ولا يُدعى لكشف الضر إلا هو، ولا لجلب الخير إلا هو، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يذبح إلا له؛ وجميع العبادة لا تصلح إلا له وحده لا شريك له؛ وهذا معنى قول لا إله إلا الله، فإن المألوه هو: المقصود، المعتمد عليه، وهذا أمر هيّن عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من عرفه. فمن عرف هذه المسألة، عرف أن أكثر الخلق قد لعب بهم الشيطان، وزين لهم الشرك بالله، وأخرجه في قالب حب الصالحين وتعظيمهم»[١].

ولم تكن أحكام محمد بن عبد الوهاب على الأمة بالشرك الأكبر قاصرة على ما ألّفه من كتب ورسائل، بل كان يشيع ذلك في البلاد، ويصرح به في كل محل، وقد شهد أعلام عصره عليه بحكمه عليهم بالشرك.

وأول من شهد عليه بذلك وعاتبه عليه عتاباً شديداً، أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب الذي كان يشغل منصب القضاء في (حريملاء)، الذي ألّف رسالة في نقد أخيه سمّاها (الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّة)[٢]، ومما جاء فيها قوله: «ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما، ولا يبالي من خالفه، وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال أهل الاجتهاد، ولا والله عُشْر واحدة ومع هذا، فراجَ كلامه على كثير من الجهال فإنا لله وإنا إليه راجعون، الأمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم في كلمة، بل كلهم كفار أو جهال (اللهم) اهدِ الضال ورده إلى الحق»[٣].

وهم - كما يذكر سليمان بن عبد الوهاب - لم يكتفوا بالحكم عليهم بالكفر فقط، بل حكموا على البلاد التي يسكنونها بأنها بلاد حرب، فيقول: «تكفّرون عوام المسلمين

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٢٦٥).

(٢) ويسمى أيضا (فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب)، وذكر بعضهم أنه عنوان لكتاب آخر.

(٣) الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّة، الشيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدي، مطبعة نخبة الأخيار، ١٣٠٦هـ ص٤.

وتستبيحون دماءهم وأموالهم، وتجعلون بلادهم بلاد حرب، ولم يوجد منهم عُشْر معشار ما وجد من هؤلاء، وإن وجد منهم شيء من أنواع الشرك سواء شرك أصغر أو أكبر فهم جهال، لم تقم عليهم الحجة الذي يكفر تاركها»[١].

ونجد في رسالته حرقة كبيرة تدل على مدى الألم الذي أصاب الناس بسبب أخيه، فهو يقول: «يا عباد الله تنبهوا وارجعوا إلى الحق وامشوا حيث مشى السلف الصالح وقفوا حيث وقفوا، ولا يستغلكم الشيطان ويزين لكم تكفير أهل الإسلام، وتجعلون ميزان كفر الناس مخالفتكم وميزان الإسلام موافقتكم»[٢].

ويقول: «يا عباد الله... اتقوا الله خافوا ذا البطش الشديد، لقد آذيتم المؤمنين والمؤمنات ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٣] والله ما لعباد الله عند الله ذنب إلا أنهم لم يتبعوكم على تكفير من شهدت النصوص الصحيحة بإسلامه، وأجمع المسلمون على إسلامه، فإن اتبعوكم أغضبوا الله تعالى ورسوله ﷺ، وإن عصوا آراءكم حكمتم بكفرهم وردتهم»[٤].

ويقول: «فأنتم الآن تكفّرون بأقل القليل من الكفر، بل تكفرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفرون بصريح الإسلام، فإن عندكم أن من توقف عن تكفير من كفرتموه خائفاً من الله تعالى في تكفير من رأى عليه علامات الإسلام فهو عندكم كافر»[٥].

ويا للأسف إن السلفية بعد ابن عبد الوهاب كلهم ما زال يتبنى هذا الموقف التكفيري لعموم المسلمين[٦]، يقول محمد حامد الفقي - وهو علم من كبار أعلام السلفية في مصر: « كما

---

(١) الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّة، الشيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدي، مطبعة نخبة الأخيار، ١٣٠٦هـ ص٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص٢٧..

(٥) المصدر السابق، ص٢٩.

(٦) لا نحتاج إلى استدلال على هذا الكلام، لأن الذي يزعم أنه سلفي أو وهابي ثم لا يقف هذا الموقف من المسلمين لا يعتبر سلفياً ولا وهابياً، لأن النصوص الواردة عنهم تقيد السلفي والوهابي بهذا القيد، فيما يسمى عندهم بالولاء والبراء.

جرى لأهل مصر وغيرهم؛ فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة. ومع هذا فصار أعظم آلهتهم، وكان أهل العراق ومن حولهم، كأهل عُمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني، كما يعتقد أهل مصر في البدوي. وعبد القادر من متأخري الحنابلة ... كما جرى من الرافضة مع أهل البيت، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به، وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي، وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض، وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين، كأناس بمصر وغيرهم وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا... وفي الحجاز واليمن وغيرها من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى، كعبادتهم للجن وطلبهم للشفاعة منهم»[١].

وبذلك لم يبقَ أحد من المسلمين - في نظر هؤلاء - إلاّ وهو كافر أو مشرك، ولم يسلم من هذا التكفير إلا الدولة السعودية - في شقها الوهابي[٢] - التي عدّها علم كبير كأبي بكر جابر الجزائري الدولة الوحيدة الممثلة للإسلام، يقول: «هذه الدّولة الّتي كانت معجزة القرن الرّابع عشر، هذه الدّولة التي لا يواليها إلاّ مؤمن ولا يعاديها إلاّ منافق كافر مادامت قائمة بأمر الله»[٣].

ويقول: «إنّه لا يوجد مسلم صحيح الإسلام، ولا مؤمن صادق الإيمان وفي أي بلد إسلامي، كان، إلاّ ويتمنّى بكلّ قلبه أن يحكمه ابن السعود، وإنّه لو يدعى إلى مبايعته مَلِكاً أو خليفةً للمسلمين لما تردد طرفة عين، كان ذلك من أجل أنّ هذه الدّولة تمثّل الإسلام وتقوم به وتدعو إليه...»[٤].

ويقول عن أثرها في تهديم الآثار والضرائح: «وهيهات هيهات أن يتنكر آل سعود لمبدأ الحق الذي أقاموا ملكهم عليه، ووقفوا حياتهم على حمايته ونصرته ونصرة الدّاعين إليه!!

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، المحقق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م، ص٢٢٠.

(٢) لأن هؤلاء يكفرون شيعة السعودية ومن فيها من الصوفية.

(٣) وجاؤوا يركضون مهلاً يا دعاة الضلالة، أبو بكر جابر الجزائري، دار الحرمين، ١٤١٣، ص١٧.

(٤) الإعلام بأن العزف والغناء حرام. أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة دار الوفاء للنشر، ١٤٠٧ ه، ص ٥٧.

والهادين إلى مثله!! إنه لو لم يبقَ إلاّ عجوزٌ واحدة من آل سعود لم يكن لها أن تتنازل عن مبدأ الحقّ»[١].

ولهذا نرى هؤلاء يفتون بجواز الخروج على الحكام، والمشاركة في المظاهرات، بل الخروج المسلح على الحكام، ما عدا السعودية، بوصفها في تصورهم تمثل الحكومة الإلهية العادلة التي لا يحل الخروج عليها، أو كما عبّر أبو بكر الجزائري، فقال: «هذه الدّولة الإسلامية تمثّل العدالة الإلهية في الأرض»[٢].

التجسيم والتشبيه:

أو ما يطلقون عليه (توحيد الأسماء والصفات)، ويقصدون به أن الله محدود، وله حيز، ويجري عليه ما يجري على الأجسام من أحكام، وبناءً على أن هذه المقولة العقدية لم يقل بها أحد من المسلمين غيرهم، فإنهم لذلك كفروا أو بدّعوا كل من خالفهم في هذه المسألة، وعدّوه معطلاً لصفات الله.

وقد ذكر ابن الجوزي (توفي: ٥٩٧هـ)- وهو حنبلي- ما وقع فيه الحنابلة والمحدثون من إسراف في التجسيم والتشبيه، فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبد الله بن حامد وصاحبه القاضي وابن الزاغوني، فصنفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس. فسمعوا أن الله تعالى خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهواتٍ وأضراساً... ويدين وأصابعَ وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين . وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس . وقالوا: يجوز أن يُمس وَيمس، ويدني العبد من ذاته. وقال بعضهم: ويتنفس. ثم يرضون العوام بقولهم: لا كما يعقل...ثم يتحرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من العوام. فقد نصحت التابع والمتبوع فقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب

---

(١) وجاؤوا يركضون، ص١٧.

(٢) الإعلام بأن العزف والغناء حرام، ص٦٢.

نقل وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول، وهو تحت السياط: (كيف أقول ما لم يقل)، فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه، فلو أنكم قلتم: نقرأ الأحاديث ونسكت ما أنكر عليكم أحد، إنما حمْلكم إياها على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس منه. ولقد كسيتم هذا المذهب شيناً قبيحاً حتى صار لا يقال حنبلي إلا مجسم...»[1].

وبناءً على هذا اتفقت آراء جميع أهل الحديث، ومن تبعهم من السلفيين على إخراج الأشاعرة والماتريدية الذين يمثلون أكثر المسلمين من مسمى (أهل السنة والجماعة)، فهذا الشيخ صالح الفوزان، وهو من هيئة كبار العلماء في السعودية، يقول: «أما كون الأشاعرة لم يخرجوا عن الإسلام، فهذا صحيح هم من جملة المسلمين، وأما أنهم من أهل السنة والجماعة، فلا؛ لأنهم يخالفون أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات من غير تأويل»[2].

ويقول ابن باز - وهو من مراجع السلفية المعاصرة الكبار، ويعدّ من الذين تولوا الوظائف الكبيرة -: «فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون في أهل السنة في إثبات الصفات؛ لكونهم قد خالفوهم في ذلك وسلكوا غير منهجهم»[3].

وهم - كسائر أصحاب الاتجاه السلفي - يستندون في هذا الموقف إلى ابن تيمية الذي كان شديداً على الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم من المسلمين، الذين يرفضون هذه العقيدة، وقد ألف كتباً كثيرة في ذلك، يقول في بيان الصلة بين مذاهب المتكلمين في هذه المسألة: «ومن رزقه الله معرفة ما جاءت به الرسل، وبصراً نافذاً، وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء علم قطعاً أنهم يلحدون في أسمائه وآياته، وأنهم كذبوا بالرسل وبالكتاب وبما أرسل به رسله، ولهذا كانوا يقولون: إن البدع مشتقة من الكفر، وآيلة إليه، ويقولون: إن المعتزلة مخانيث الفلاسفة، والأشعرية مخانيث المعتزلة، وكان يحيى بن عمار: يقول المعتزلة الجهمية الذكور، والأشعرية الجهمية الإناث، ومرادهم الأشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية. وأما من قال منهم بكتاب الإبانة

---

(١) دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، تحقيق حسن السقاف، دار الإمام النووي، الأردن، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ٣٠-٣٣.

(٢) تنبيهات على مقالات الصابوني، صالح الفوزان، د ط، د ت، ص ٦٢.

(٣) تنبيهات في الرد على من تأول الصفات، الرئاسة العامة للإفتاء، الرياض، ص ٤٢.

الذي صنفه الأشعري في آخر عمره[1]، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك، فهذا يعد من أهل السنة، لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة. لا سيما أنه بذلك يوهم حسناً بكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر»[2].

وقد أوضح ابن القيم (المتوفى:٧٥١هـ) في نونيته المراد من المخانيث التي يرددها السلفية، ويصفون بها الأشاعرة، فقال:

ليسوا مخانيث الوجود فلا إلى ... الكفران ينحازوا ولا الإيمانِ[3]

وكلمة المخانيث لا تحمل معاني التكفير والتبديع فقط، بل تضم إليها كثيراً من البذاءة والفحش، التي صرح بها ابن القيم في نونيته، فقال:

أهون بذا الطاغوت لا عز اسمه ... طاغوت ذي التعطيل والكفران

كم من أسير بل جريح بل قتيل ... تحت ذا الطاغوت في الأزمان

وترى الجبان يكاد يخلع قلبه ... من لفظه تباً لكل جبان

وترى المخنث حين يقرع سمعه ... تبدو عليه شمائل النسوان

ويظل منكوحاً لكل معطل ... ولكل زنديق أخي كفران[4]

بل إن ابن القيم كتب كتاباً أعلن فيه الحرب على كل من لا يقول بالتجسيم سماه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)، وقد حشاه بكل أنواع السباب والتكفير والتبديع لكل من لا يقول بهذه العقيدة، وقد وصف العلاقة بين أهل الحديث والذين

---

(١) وهو كتاب تجسيمي على مذهب السلفية في الصفات، والأشاعرة ينكرون نسبته إلى الأشعري.

(٢) الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله (مطبوع ضمن الفتوى الحموية الكبرى)، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة، مطبعة المدني، القاهرة،مصر، الطبعة: السادسة، ٦/ ٣٥٩.

(٣) متن القصيدة النونية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ، ص١٩٧.

(٤) المصدر السابق، ص: ٢٣٧.

ينكرون التجسيم، بأنها علاقة حرب، يقول: «الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام»[١].

وما ذكره ابن القيم في نونيته سبقه إليه أبو محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي (توفي ٣٨٧هـ) في نونيته أيضاً، وهي منتشرة بكثرة، وينشدها السلفيون، ويعلقونها في المساجد، ومما ورد فيها عن الأشعرية:

والآن أهجو الأشعري وحزبه	وأذيع ما كتموا من البهتان
عطلتم السبع السموات العلا	والعرشَ أخليتم من الرحمن
لأقطعن بمعولي أعراضكم	ما دام يصحب مهجتي جثماني
ولأكتبن إلى البلاد بسبكم	فيسير سير البزل بالركبان
يا أشعرية يا أسافلة الورى	يا عُمْي يا صُمٌّ بلا آذان
إني لأبغضكم وأبغض حزبكم	بغضاً أقل قليله أضغاني
لو كنت أعمى المقلتين لسرّني	كيلا يرى إنسانكم إنساني
قد عشت مسروراً ومت مخفراً	ولقيت ربي سرني ورعاني
لم أدخر عملاً لربي صالحاً	لكن بإسخاطي لكم أرضاني[٢]

ونرى بعد كل هذه التصريحات أن اقتصار الاتجاه السلفي على تبديع الأشاعرة وغيرهم في هذه المسألة هو نوع من التقية، وذلك أن مصادرهم التي يثنون عليها، ويدرسونها، والتي تمثل مذهب السلف كلها ممتلئة بتكفير من لا يقول بالتجسيم.

ومن الأمثلة على ذلك كتاب السنة المنسوب إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل (المتوفى

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، ص: ١٥٤.

(٢) القصيدة النونية للقحطاني، أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني، المعافري الأندلسي المالكي، المحقق: عبد العزيز بن محمد بن منصور الجربوع، دار الذكرى، الطبعة: الأولى، ص٥٤.

٢٩٠هـ)، وهو كتاب يعظمه السلفية كثيراً[1]؛ لكون نسبته ترجع لابن الإمام أحمد، وقد تضمن تكفيراً لأعلام الأمة الكبار؛ بسبب مواقفهم من هذه المسألة ومستلزماتها.

الولاء والبراء:

من الشروط الثمانية التي وضعها محمد بن عبد الوهاب للإيمان (الولاء والبراء)، وهو في ذلك تبع للنهج السلفي الذي لا يشترط تحقق الإيمان في المؤمن فقط، وإنما يضيف إلى ذلك اشتراط الولاء لهذا الاتجاه، والبراءة من أعدائه، وهو يطبق في ذلك على المؤمنين ما ورد في القرآن الكريم من وجوب البراءة من الكافرين المحاربين، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2].

ولأجل هذا الشرط نرى الانشقاقات الكثيرة التي تحصل في صفوف هذا التيار، فقد ولّد الموقف من سيد قطب مثلاً موقفين كبيرين في الاتجاه السلفي:

الاتجاه السلفي المدخلي: وهو فرع من الاتجاه السلفي الجامي[3]، ويرى هذا الفرع تكفير سيد قطب، وحرمة الاستفادة من كتبه.

الاتجاه السلفي السروري: ويرى أن سيد قطب لم يكن كافراً، ولا يرى حرمة الاستفادة من كتبه، ولكن بشرط عرضها على السلف، أي إنه لا يقبل كل شيء عنه.

وهكذا حصل الخلاف في الشخصيات الإسلامية جميعها، وبسببها تشعبت المدارس

---

(١) احتوى هذا الكتاب على التجسيم في أبشع صوره، فقد وصف الله تعالى بالجلوس على العرش، وأثبت له صدراً وذراعين، وأثبت الثقل والصورة التي صور عليها آدم، وأنه على كرسي من ذهب تحمله أربعة من الملائكة، وأنه واضع رجليه على الكرسي، وأن الكرسي قد عاد كالنعل في قدميه، وأنه إذا أراد أن يخوف أحداً من عباده أبدى عن بعضه، وأنه قرّب داودَ عليه السلام حتى مس بعضه وأخذ بقدمه وغير ذلك...

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) هو تيار محلي داخل خريطة الإسلاميين في السعودية، أُطلق عليه بـ (الجامي) نسبة إلى الشيخ محمد أمان الجامي، وهو من أبرز العلماء الذين تصدوا بالرد على الأحزاب والجماعات التي رفضت فتوى جواز الاستعانة بالكافر لدفع المعتدي ولحماية الدين والدولة من شره.

السلفية وكثرت.

وقد حصلت مثل هذه الأنواع من الشقاق في عهد محمد بن عبد الوهاب، وإن لم تظهر إلى العلن، فنراه مثلا يبدع أو يفسق أو يكفر من لم يشاركه في تكفير من كفرهم، وقد كتب ذلك في رسالة إلى بعض أتباعه، يقول فيها: «إذا عرفتم ذلك، فهؤلاء الطواغيت الذين يعتقد الناس فيهم، من أهل الخرج وغيرهم مشهورون عند الخاص والعام بذلك، وأنهم يترشحون له، ويأمرون به الناس، كلهم كفار مرتدون عن الإسلام؛ ومن جادل عنهم، أو أنكر على من كفرهم، أو زعم أن فعلهم هذا، لو كان باطلاً فلا يخرجهم إلى الكفر، فأقل أحوال هذا المجادل، أنه فاسق لا يقبل خطه ولا شهادته، ولا يصلى خلفه، بل لا يصح دين الإسلام، إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم»[1].

وبناءً على هذا لم يكتفِ محمد بن عبد الوهاب من أتباعه الالتزام بما دعاهم إليه، وإنما طلب منهم الانضمام إلى جماعته والهجرة إليه، وهو ما يذكرنا بالأسس التي تقوم عليها جماعة (الهجرة والتكفير)، التي توجب على أتباعها بعد تكفير المخالفين الهجرة والعزلة عنهم.

وقد سار على هذا المنهج الوهابيون، فهم لا يكتفون من أتباعهم بالالتزام بالعقيدة التي يضعونها لهم، وإنما يطلبون منها أيضاً أن يقفوا موقفا سلبياً من غيرهم، وإلا فإن شرط الولاء والبراء لم يتحقق في إيمانهم.

وقد طبقت الجماعات الإرهابية هذا البند أحسن تطبيق، ولهذا كفرت كل علماء الاتجاه السلفي الرسمي وغير الرسمي الذين لم ينضموا لهم، أو لم يقفوا مثلهم موقفاً سلبياً من السعودية كما وقفوا من غيرها، وقد كتبوا في ذلك الكتب الكثيرة، لعل أشهرها ما كتبه أبو محمد المقدسيّ تحت عنوان (الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية) الذي قال في مقدمته مبيناً دوافع تأليفه للكتاب: «إنّ خبث هذه الدّولة وتلبيسها أمسى بمكان، بحيث أصبح اليوم من أهم المهمّات التّصدي لها وتعريتها قبل غيرها ... خصوصاً وأنّ ما سواها في الغالب

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠- ٥٢)

واضح مكشوف، أماّ هذه الدّولة الخبيثة، فهي من أشدّ الدّول اليوم ممارسة لسياسة التّلبيس على العباد والاستخفاف بهم واللّعب بعقولهم مدّعية تطبيق الشّريعة الإسلامية ونبذ القوانين الوضعية. ولقد أجادت هذه الدّولة الخبيثة أساليب التّلبيس والتدليس وأحكمتها حتّى انطلى هذا على كثير ممّن ينتسبون للعلم والدّعوة، فشاركوا في التّلبيس والتّرقيع لها، فتجد كثيراً منهم يتكلّمون في الدّول الأخرى وطغيانها ويهاجمون تحاكمها للقوانين الوضعية ويصدرون الكتب والمؤلّفات في هذا الكفر والشّرك المستبين، بل وتقوم هذه الدّولة بطباعة هذه الكتب وتوزيعها على الخلق مجّاناً، حتى يتوهم ويظن المتابع لحماسهم في تلك الكتابات أن حكومتهم التي تطبع لهم تلك الكتب وتوزّعها حكومة تحارب القوانين وتنبذها وتأبى تطبيقها أو التّحاكم إليها»[1].

٢ ـ الاتجاهات الحركية:

مثلما ذكرنا في المبحث السابق، فإن أصحاب الاتجاهات الحركية مختلفون في مواقفهم من التكفير بحسب ارتباطهم العلمي والنفسي بالجماعات السلفية، ولذلك لا نحتاج إلى إعادة ما ذكرناه هنا، ولكنا نحب أن نبين أن الاتجاه الحركي أضاف بعض الأبعاد الجديدة للتكفير استغلها الإرهابيون أبشع استغلال.

ونحب - قبل أن نبين هذه المجالات التكفيرية التي نشرها الاتجاه الحركي - أن نذكر أن الشخصية المحورية المتهمة بإمداد الإرهابيين بمثل هذه الأفكار هي شخصية (سيد قطب المتوفى: ١٣٨٥هـ)[2]، الذي كانت كتاباته في هذه المواضيع تحمل غموضاً وإجمالاً، ولهذا اختُلف في فهمها، فالإرهابيون فهموا أن سيد قطب كفّر المجتمعات كما كفّر الأنظمة، وغيرهم فهم منها أن سيد قطب لم يكن يقصد تكفير المجتمعات، وإنما كان يقصد بعدها عن الإسلام، والحاجة إلى دعوتها إلى الإسلام الصحيح النقي من جديد.

---

(١) الكواشف الجلية، أبو محمد عاصم المقدسي، منبر التوحيد والجهاد، الطبعة الثانية، ١٤٢١ هـ، ص٦.
(٢) بالإضافة إلى أبي الأعلى المودودي، ولكن سيد قطب كان أشهر وأبلغ في التعبير عن أفكاره.

وأنا شخصياً - بلحاظ قراءتي لسيد قطب - فهمت هذه المعاني، فسيد قطب(١) كان أديباً، وكان الانحلال والانحراف عن الدين سائداً في كثير من المجتمعات الإسلامية، ولذلك وصف ذلك الوضع من غير قصد منه بالتكفير، ولكن الذي قرؤوا كتبه وقرؤوا في الوقت نفسه كتب ابن تيمية، أو ابن عبد الوهاب فهموا منه هذه المعاني، لأنهم أسقطوا شخصية ابن تيمية على شخصية سيد قطب، ففهموا من ذكره لجاهلية المجتمعات كفرها، مع أن الجاهلية ليست مرادفاً بالضرورة للكفر.

ومثالنا على تأثر الجماعات الإرهابية بسيد قطب قول عبد الله عزام الزعيم الروحي للجماعات الجهادية، ورائد الجهاد الأفغاني عن الشخصيات التي تأثر بها: «وجهني سيد قطب فكرياً، وابن تيمية عقدياً، وابن القيم روحياً، والنووي فقهياً، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثراً عميقاً»(٢).

ويتحدث عن تأثير سيد قطب في الجماعات المسلحة، فيقول: «الذين دخلوا أفغانستان يدركون الأثر العميق لأفكار سيد في الجهاد الإسلامي وفي الجيل كله فوق الأرض كلها، إن بعضهم لا يطلب منك لباساً وإن كان عارياً ولا طعاماً، وإن كان جائعاً، ولا سلاحاً، وإن كان أعزلاً، ولكنه يطلب منك كتب سيد قطب، وكم هزني أن أسمع أن هنالك قواعد جهادية في أفغانستان، وعمليات حربية يطلق عليها اسم سيد قطب»(٣).

وهو يوضح المعاني الجديدة التي أدخلها سيد قطب إلى قاموس الجماعات الإرهابية، فيقول: «ولقد مضى سيد قطب إلى ربه رافع الرأس، ناصع الجبين عالي الهامة، وترك التراث

---

(١) نحب أن نبين هنا فقط من باب الموضوعية أن كتابات سيد قطب لا تحمل أي بعد طائفي، ولهذا لا نجد عنده مصطلح (أهل السنة والجماعة)، بل بعكس ذلك هو يختلف مع الكثير من هذه الطائفة في تقديسها للتاريخ الإسلامي وللصحابة، وهذا من الأسباب التي جعلت التيار السلفي يقوم بتكفيره، ونحب أن نذكر هنا كذلك أن السيد علي الخامنئي ترجم إلى الفارسية بعض كتب سيد قطب ككتابه (المستقبل لهذا الدين) ترجمه سنة ١٣٤٦ هجرية، وكتب له مقدمة، وطبعه، (انظر: رسالة التقريب، ع١٢، على الرابط:
http://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewArticle&ArticleID=(213

(٢) عملاق الفكر الإسلامي (الشهيد سيد قطب)، الدكتور عبد الله عزام، نشر وتوزيع مركز شهيد عزام الإعلامي، يشاور- باكستان، الطبعة: الأولى، ص٥١.

(٣) عملاق الفكر الإسلامي سيد قطب :ص، ٥٢.

الضخم من الفكر الإسلامي الذي تحيا به الأجيال، بعد أن وضح معانيَ غابت عن الأذهان طويلاً، وضح معانيَ ومصطلحات الطاغوت، الجاهلية، الحاكمية، العبودية، الإلوهية، ووضح بوقفته المشرفة معاني البراء والولاء، والتوحيد والتوكل على الله والخشية منه والالتجاء إليه»[1].

انطلاقاً من هذه المقولة نحاول هنا - باختصار - أن نذكر أهم المجالات التي استفادتها الحركات الإرهابية من فكر الاتجاهات الحركية:

الجاهلية:

من المصطلحات الشائعة لدى الجماعات الإرهابية مصطلح (الجاهلية)، وهو مصطلح استفادوه أولاً من الحركات السلفية التي عدّت المجتمعات الإسلامية مجتمعات جاهلية؛ بسبب ما وقعت فيه من الشرك الجلي، كما هو مذكورٌ آنفاً.

واستفادوه - ثانياً - من كتابات أصحاب التوجه الحركي، وخصوصا أبا الأعلى المودودي، وسيد قطب، وقد فهموا منه - كما ذكرنا - نفس ما فهموه من حديث محمد بن عبد الوهاب وغيره من السلفيين.

ولكننا - ومن باب الأمانة العلمية - لا نستطيع أن نضع حديث سيد قطب أو المودودي عن الجاهلية مع حديث ابن عبد الوهاب في عَيبة[2] واحدة، وذلك أن تصريحات سيد قطب عن جاهلية المجتمعات الإسلامية قد تفهم مفاهيم متعددة، وليس فيها أدنى تصريح بالكفر، وإن كانت ألفاظها تحتمل ذلك.

فسيد قطب في تعريفه للجاهلية يرى أنها «ليست فترة تاريخية إنما هي حاله توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام... وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة، ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء

---

(١) عملاق الفكر الإسلامي سيد قطب: ص ٥٢.
(٢) العيبة: هي الوعاء الذي توضع فيه الأشياء.

طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس... فكلها... ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله... أهواء»(١).

ويطبق هذا المفهوم على المجتمع ومؤسساته، فيقول: «يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية؛ لأن هواه هو القانون... أو رأيه هو القانون... لا فرق إلا في العبارات! وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية؛ لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات! ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمه لأنفسهم فإذا هي جاهلية...؛ لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل، هو القانون- أو لأن رأي الشعب هو القانون- فلا فرق إلا في العبارات! وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية؛ لأن أهدافها القومية هي القانون - أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!»(٢).

ومع أن هذا النص لا يدل في ظاهره إلا على انحرافات المجتمعات عن المنهج الإلهي، إلا أن الجماعات التكفيرية طبقت على هذه المعاني ما فهمته من الجاهلية التي أرادها ابن عبد الوهاب؛ لأن هذه الجماعات حاولت أن توفق بين الشخصيتين كليهما مع البون الشاسع بينهما.

وسيد قطب يحاول أن يطبق بهذه الرؤية مفهوم قوله تعالى﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٣) على المجتمعات التي يسودها، أو يحكم فيها نظام غير إسلامي، ولا يريد - كما يبدو وكما يذكر المقربون منه - أي تكفير مخرج من الملة، وقد قال بعضهم ناقلاً عنه: «إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله؛ لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي، وهو التحاكم إلى شريعة الله»(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر،١٤١٢ هـ (٢/ ٨٩١).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٨٩١).

(٣) سورة المائدة: ٥٠.

(٤) أعلام الحركة الإسلامية، عبد الله العقيل، دار القلم، بيروت، ص ٦٥٢.

ولكن - مع هذا - نرى سيد قطب أحياناً يتكلم كلاما شديداً قاسياً، إذ لا يكاد يُفهَم منه إلا ما فُهِم من كلام ابن عبد الوهاب عن المجتمعات الإسلامية، فهو يقول مثلا: (والبشرية اليوم في موقف كهذا الذي كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله ﷺ بهذا الكتاب، مأموراً من ربه أن ينذر به ويذكّر، وألا يكون في صدره حرج منه، وهو يواجه الجاهلية، ويستهدف تغييرها من الجذور والأعماق ... لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاءها هذا الدين، وانتكست البشرية إلى جاهلية كاملة شاملة للأصول والفروع والبواطن والظواهر، والسطوح والأعماق! انتكست البشرية في تصوراتها الاعتقادية ابتداء - حتى الذين كان آباؤهم وأجدادهم من المؤمنين بهذا الدين، المسلمين لله المخلصين له الدين- فإن صورة العقيدة قد مسخت في تصورهم ومفهومهم لها في الأعماق »[1].

ويقول في كتابه (معالم في الطريق): «والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً، إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون، وهم يحيون حياة جاهلية، وإذا كان فيهم من يحب أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين، فيعتقد أن الإسلام ممكن أن يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك، ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئاً، ليس هذا إسلاماً وليسوا هؤلاء بمسلمين»[2].

وأمثال هذه الكتابات التي نجدها تردد بصيغ مختلفة لدى الجماعات الإرهابية، وقد كانت هي المؤسس الأول للجماعات التكفيرية المنبثقة من الإخوان المسلمين، كجماعة التكفير والهجرة، وجماعة التوقف والتبين، وجماعة الشوقيين، وجماعة القطبيين... وغيرهم.

وهؤلاء أيضاً يستدلون كما استدل المخالفون لهم ببعض الروايات من المقربين من سيد قطب التي تدل على أن مقصده بالجاهلية هو مقصد محمد بن عبد الوهاب نفسه، ومن ذلك ما ذكره علي عشماوي في كتابه (التاريخ السري للإخوان المسلمين)؛ إذ قال: «جاءني أحد الإخوان، وقال لي بأنه سوف يرفض أكل ذبيحة المسلمين الموجودة حالياً، فذهبت إلى سيد

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٥٥).
(٢) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ص ١٥٨.

قطب وسألته عن ذلك فقال: دعهم يأكلونها فيعتبرونها ذبيحة أهل الكتاب فعلى الأقل المسلمون الآن هم أهل كتاب؟!»[١].

الحاكمية:

على خلاف المسألة السابقة، فإن الحاكمية - بوصفها مصطلحاً - نجدها في كتب أصول الفقه، وعلم الكلام، فكلها تجعل من مباحثها مبحث الحكم، وتقسم هذا المبحث على أربعة أقسام[٢]:

١- **الحاكم**: وهو من صدر عنه الحكم.
٢- **والحكم**: وهو ما صدر من الحاكم دالاً على إرادته في فعل المكلف.
٣- **والمحكوم فيه**: وهو فعل المكلف الذي تعلق الحكم به.
٤- **والمحكوم عليه**: وهو المكلف الذي تعلق الحكم بفعله.

وكلها تتفق على أن الحاكم هو الله تعالى، يقول عبد الوهاب خلاف: «لا خلاف بين علماء المسلمين، في أن مصدر الأحكام الشرعية لجميع أفعال المكلفين هو الله سبحانه، سواء أظهر حكمه في فعل المكلف مباشرة من النصوص التي أوحي بها إلى رسوله، أم اهتدى المجتهدون إلى حكمه في فعل المكلف، بواسطة الدلائل والأمارات التي شرعها لاستنباط أحكامه»[٣].

لكن الخلاف بين جماهير العلماء، والنظرة الحركية المتشددة في هذا هو جعل الحاكمية من جملة المكفرات، ولا تفرق في ذلك بين من ترك حكم الله جاحداً له، أو تركه مقصراً ومفرطاً.

وبناءً على هذا الأصل كفرت الأنظمة جميعاً، ثم كفر كل من يواليها أو يناصرها، أو يعمل تحت ولايتها سواء أكان شرطياً أم جندياً أم موظفاً بسيطاً.

وبناءً على هذا أيضاً ترى الحركات السياسية أن الجهاد لا يقتصر فقط على جهاد الدفع،

---

(١) التاريخ السري للإخوان المسلمين، علي عشماوي، مركز ابن خلدون، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٨٠.
(٢) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة - شباب الأزهر، الطبعة الثامنة، ص: ٩٦.
(٣) المصدر السابق، ص٩٦.

بل يضم إليه جهاد الطلب، أي على المسلمين أن يجاهدوا كل شعوب الأرض، لا لإدخالها في الإسلام، وإنما لحكمها بالإسلام، وقد ردّ سيد قطب بشدة على حصر الجهاد في جهاد الدفع، فقال: «الذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية (الوطن الإسلامي) يغضون من شأن (المنهج) ويعتبرونه أقل من (الموطن)! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات... إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي، فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الإسلامي. أما الأرض- بذاتها - فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها. وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج ودار الإسلام ونقطة الانطلاق لتحرير الإنسان»[1].

وهذه النظرة للجهاد وأثره في تحقيق الحاكمية هو الذي جعل جميع التنظيمات الإرهابية تنظيمات عالمية تقوم بعملياتها في كل مكان على الأرض؛ لكونها لا تحقق حاكمية الله في الأرض إلا بهذا العنف.

المفاصلة:

وهي مظهر من مظاهر الولاء والبراء الذي سبق الحديث عنه، إذ يرى المتشددون من حركات الإسلام السياسي أن على القاعدة المؤمنة أن تعتزل الجاهلية عزلة تامة، وهي تستدل لذلك بنصوص مجملة من كتب سيد قطب، وخصوصاً كتابه (معالم في الطريق) مثل قوله فيه: «إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق. تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا. تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة...»[2].

ومن ضرورات المفاصلة الهجرة، وقد كتب سيد قطب في تفسيره متحدثاً عن ضرورتها في

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٤١).
(٢) معالم في الطريق : ص ٩.

الواقع الذي عاشه رسول الله ﷺ ولكن الجماعات الإرهابية فهمت منه فهماً خاصاً، فجعلت من لم يهاجر إلى الجماعة الإسلامية ليكون عضواً فيها، ولم ينخلع بهذا من التجمع الجاهلي، فليس بمسلم، ويستدلون لذلك بما قاله سيد قطب في تفسيره لآيات الهجرة في القرآن الكريم، فقد قال: «فأما الهجرة التي يشير إليها النص ويجعلها شرطاً لتلك الولاية- العامة والخاصة- فهي الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام- لمن استطاع- فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية، كما كان الشأن في جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات، وكذلك بعض أفراد في مكة من القادرين على الهجرة... وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم- إن استنصروهم في الدين خاصة- على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم، بينهم وبين المجتمع المسلم عهد؛ لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية! ونحسب أن هذه النصوص والأحكام تدل دلالة كافية على طبيعة المجتمع المسلم والاعتبارات الأساسية في تركيبه العضوي، وقيمه الأساسية. ولكن هذه الدلالة لا تتضح الوضوح الكافي إلا ببيان تاريخي عن نشأة هذا المجتمع التاريخية والقواعد الأساسية التي انبثق منها وقام عليها ومنهجه الحركي والتزاماته»(١).

ثالثاً ـ العنف والإرهاب

بعد أن يلبي التكفيري الإرهابي كل نزواته النفسية الممتلئة عدوانية وحقداً، يحتاج إلى إخراج ما ملأ صدره من الغيظ والحقد والانتقام في صور واقعية تشفي غليله.

وهو بذلك يبحث في كل ما يلبي هذه المطالب النفسية والعدائية، وما أسرع ما يجده في ذلك الركام الضخم الذي يفرزه السلفيون والحركيون كل يوم في تصرفاتهم ومواقفهم وكتبهم ورسائلهم وخطبهم، وكل شيء .. حتى إن أناشيدهم تفوح منها روائح الدماء والدمار.

---

(١) في ظلال القرآن :٣- ١٥٥٥.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر بعض مظاهر العنف[1] التي أصبحت ديناً يتعبد بها الإرهابيون، ونكتفي بذكر نماذج وأمثلة على ذلك من سلوكيات الاتجاهين ومواقفهما كليهما: السلفي والحركي؛ لأن إحصاء كل السلوكيات الإرهابية التي مورست من طرف هذين التيارين يحتاج جهداً كبيراً، ومتخصصين في مجالات مختلفة.

١ ـ الاتجاهات السلفية:

ينماز الاتجاه السلفي منذ نشأته الأولى باستخدام العنف بمختلف وسائله مع المخالف، سواء أكان ذلك المخالف عالماً أم حاكماً أم عامياً بسيطاً، بل حتى لو كان ذلك المخالف ممَّن أوصانا رسول الله ﷺ بهم، وبمودتهم والتمسك بحبلهم، فحملة الكراهية والانتقام والتشفي من هؤلاء جميعاً لا تكاد تنتهي، وهي لذلك أصبحت عند خلفهم من الإرهابيين ديناً يتعبدون الله به.

وسنذكر هنا باختصار نماذج عن ذلك من مصادرهم التي يعتمدون عليها ويحترمونها، بل ويجعلونها من مراجعهم التي يزكونها ويوصون أتباعهم بقراءتها، وقد صنفناها إلى صنفين: عنف معنوي، وعنف حسي.

العنف المعنوي:

ونقصد به الممارسات غير المادية للعنف، كالاحتقار والشتم والهجر وغيرها، وتأثيرها النفسي لا يقل عن تأثير العنف الحسي، بل هي في أحيان كثيرة وسيلة وتمهيد للعنف الحسي، فغرس الكراهية بين الناس لجهة من الجهات مقدمة لممارسة العنف الحسي تجاهها .

١ - منع الحوار:

وهو نوع من التعبير عن إلغاء المخالف وعدم اعتباره؛ وذلك نتيجة لعدم اعتراف التيار

---

(١) عُرِّفَ العنف في المعجم الفلسفي بأنه «كل فعل شديد يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضاً عليه من خارج» (المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ج٢، ص ١١٢).
وعرف بأنه (استخدام الضبط أو القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما) (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، ١٩٨٦، ص ٤٤١).

السلفي به، وهو نوع من أنواع العقوبة التي يسلطونها على المبتدعة في تصورهم.

وقد نص على هذا جميع أئمتهم من السلف والخلف، ومن ذلك ما ذكره أبو القاسم اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ) في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)، فقد قال: «فما جُنِي على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة، ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمداً ودرداً، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلاً، حتى جاء المغررون ففتحوا لهم إليها طريقاً، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلاً، حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمناظرة، وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة، حتى تقابلت الشبه في الحجج، وبلغوا من التدقيق في اللجج، فصاروا أقراناً وأخداناً، وعلى المداهنة خلاناً وإخواناً، بعد أن كانوا في الله أعداءً وأضداداً، وفي الهجرة في الله أعواناً، يكفرونهم في وجوههم عياناً، ويلعنونهم جهاراً ، وشتان ما بين المنزلتين، وهيهات ما بين المقامين»[1].

وهذا الاستعلاء في التعامل مع المخالف، وعدم قبول الحوار معه، أو الحوار معه باستعلاء هو ما تمارسه السلفية في حوارها مع المخالف، وخصوصاً مع الشيعة، فهي تملأ حواراتها ضجيجاً وفوضى، لأن هدفها ليس البحث العلمي، وإنما إثارة الفوضى، ونشر الفتنة.

٢ ـ الهجر:

ويريدون بذلك قطع أي صلة مع من يرونه مبتدعاً، وقد عدّوا ذلك من السنن التي تميز السلفيين السنة من غيرهم، ولهذا نجد الحديث عن هجر المبتدع في كل كتبهم الواصفة لعقيدة السلف، ومن ذلك ما ورد في كتاب (قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر) لأبي الطيب محمد صديق خان (المتوفى: ١٣٠٧هـ) تحت عنوان (فصل من السنة هجر أهل البدع) جاء فيه: «ومن السنة هجران أهل البدع، ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين والسنة،

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة - السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج١، ص١٩.

وكل محدثة في الدين بدعة، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم، في أصول الدين وفروعه، كالرافضة والخوارج والجهمية والقدرية والمرجئة والكرامية والمعتزلة فهذه فرق الضلالة وطرائق البدع»[1].

وهم في هذا يرجعون إلى ما ينقلونه عن سلفهم في هجر المبتدع، والمبتدع عندهم هم كل المسلمين كما عرفنا ذلك سابقاً.

٣ ـ السب والشتم:

وهو ما يميز التيار السلفي، فهو لا يكتفي بالفتاوى والبيانات التي يصدرها، بل يضم إلى ذلك لغته المملوءة بأنواع البذاءة والسب واللعن والشتم، حتى إنَّ الحسن بن علي السقاف كتب كتاباً كاملاً في شتائم الألباني التي كان يقذف بها على خصومه، سماه (قاموس شتائم الألباني وألفاظه المنكرة في حق علماء الأمة وفضلائها وغيرهم)، وقد ذكر في مقدمته أن الشيخ المحدث زاهد الكوثري - وهو حنفي ماتريدي - قد لحظ الملحوظة نفسها على سلفية زمانه، فقال في تعليقه على كتاب (الاختلاف في اللفظ) لابن قتيبة: «ومما يؤسف له جد الأسف صدور مثل ذلك في هذا العهد وبعد هذا العهد ممن يعد نفسه من المنتمين إلى الحديث مع أن أول ما يجب أن يستفيد حامل الحديث من الحديث هو كرم الطبع ولين الجانب والتلطف بالمسلمين والابتعاد عن هجر القول والعجرفة بعدم الخوض فيما لا يعنيه كأنه عاش مع النبي ﷺ وعاشره وتربى بسيرته في إرشاد الأمة، ومن أوغل في الباطل بفظاظة وغلظة وبذاءة فهو من أجهل خلق الله بسنة نبي الهدى ﷺ وسيرته وأبعدهم من صدق الانتماء إليه»[2].

ولهذا نجد هذا التيار - يا للأسف - يجتهد في تحريف الأسماء، ليحاول أن يغيرها بتغيير الحقائق، فتراهم يطلقون على الشيعة لقب (المجوس) مع أنه لا يوجد مذهب ولا دين على

---

(١) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، أبو الطيب محمد صديق خان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، ص١٤٤.

(٢) انظر: تعليق زاهد الكوثري على كتاب (الاختلاف في اللفظ) لابن قتيبة ص (١٢)، نقلا عن: قاموس شتائم الألباني، حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي، الأردن، عمان، ١٩٩٣، ص٦.

وجه الأرض أكثر تنزيهاً وتوحيداً وتقديساً لله من المدرسة الشيعية.

وما فعلوه هو ما فعله سلفهم ابن تيمية، فقد كان يلقب (مؤمن الطاق) بشيطان الطاق، و(ابن المطهر) بابن المنجس، وأحفاده اليوم يطلقون على (حزب الله) لقب (حزب الشيطان)، وعلى (نصر الله) لقب (نصر الشيطان)، فيستبدلون اسم الله من دون استحياء باسم الشيطان، ويا للأسف فقد سمعت القرضاوي مع كبر سنه، يردد مثل هذا من دون حياء.

العنف الحسي:

لم يكتفِ التيار السلفي بممارسة العنف المعنوي بجميع أنواعه على المخالفين، بل ضم إليه العنف الحسي بجميع أنواعه أيضاً، فتاريخهم مملوء بالقتل والتدمير، وسنذكر هنا - باختصار - بعض الأمثلة على ذلك.

يقول عثمان بن بشر، وهو من مؤرخي الوهابية المعتبرين يصف هزيمة أهل الرياض سنة ١١٨٧هـ: «فَرَّ أهل الرياض، الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على أحد، هربوا على وجوههم إلى البرية في السهال قاصدين الخرج، وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً ... وتركوها خاوية على عروشها، الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي، وأبواب المنازل لم تغلق، وفي البلد من الأموال ما لا يحصر، فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلاّ قليلاً فساروا في إثرهم يقتلون ويغنمون»(١).

ويتحدث ابن غنام عن استحلال الوهابية لأموال من يقاتلونهم، فقال: «استولى ابن سعود على جميع ما في الرياض من أموال ونخيل فيئاً من الله لأنه لم يوجف عليها خيلاً ولا ركاباً»(٢).

وهكذا فعل سنة ١٢٠٦و١٢٠٧، حين «هجم سعود على القطيف والأحساء، وقتل

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢-١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢-١٩٨٣ م، ص ١٢٠.

(٢) تاريخ نجد المسمى (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، الحسين بن غنام، المحقق: ناصر الدين الأسد، دار الشروق، الطبعة: الرابعة - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ١٣٨.

وأباد نحو ألف وخمس مئة رجل، وأقام مجازر رهيبة بحق السكان»[1].

ولم يكتفِ الوهابيون بموطنهم نجد أو ما يحيط به من أرض الجزيرة، بل قصدوا كربلاء المقدسة غير مراعين لحرمتها، فقد شن سعود بن عبد العزيز مع صحبه الوهابيين هجوماً مباغتاً على كربلاء المقدسة، فأقاموا مجزرة رهيبة فيها، في شهر ذي القعدة من سنة ١٢١٦ هـ (المصادف ٢٠ نيسان ١٨٠٢م).

وقد وصفها المؤرخ الوهابي عثمان ابن بشر في كتابه (عنوان المجد)، فقال: «إن سعود سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة، من جميع حاضر نجد وباديها، والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك، وقصدوا أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين، فحشد عليها المسلمون، وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة، وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين، وأخذوا ما في القبة وما حولها، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر، وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر، ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال، وقتل من أهلها قريب الفي رجل، ثم إن سعوداً ارتحل منها، فجمع الغنائم وعزل أخماسها، وقسم باقيها على المسلمين غنيمة للرجل سهم وللفارس سهمان»[2].

٢ ـ الاتجاهات الحركية:

الحديث عن علاقة الاتجاهات الحركية بالعنف صعب جداً من الناحية العلمية الواقعية على خلاف المنهج السلفي، ذلك أن لهذه الحركات من المرونة ما ليس للحركات السلفية، ولهذا لم نجدها تتبنى أي عمل إرهابي ما عدا الذي يحصل الآن في سورية، فلدى الإخوان

---

(١) تاريخ نجد، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) عنوان المجد، ص ٢٥٧ - ٢٥٨

المسلمين هناك بعض الألوية التي تتبناها[1]، أما ما عدا ذلك، فإن الإخوان أو غيرهم من الحركات يستعملون وسيلتين للحفاظ على سلميتهم:

الأولى: هي نفي نسبة من مارس العنف عنهم، حتى لو تتلمذ في مدارسهم، أو كان عضواً بارزاً فيهم، فهو ما دام قد كُشِف أمره، فإنه صار عضواً غير مرغوب فيه، أو صار عبئاً على الجماعة، فلهذا تتبرأ منه.

الثانية: هي نسبة العنف إلى الدولة أو مخابراتها على وجه الدقة، ولهذا إنهم في كل حوادث العنف التي نسبت لهم يرجعون الأمر إلى الدولة أو المخابرات، ولعل هذا يذكرنا بموقف القرضاوي الذي أفتى بقتل كل سوري موالٍ للنظام (عالماً كان أو جاهلاً)، وفي الأسبوع نفسه الذي أفتى فيه هذه الفتوى على قناة الجزيرة قتل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي[2]، وحينما صدرت كثير من البيانات تتهمه بتحريضه على ذلك، راح في خطبة له ينسب الأمر إلى المخابرات السورية.

وهكذا إن أثر الإخوان في الحقيقة - في ظاهره - كان مسالماً نوعاً ما؛ لأنهم لا يمكنهم تحقيق مكاسبهم السياسية وغيرها إلا بذلك، ولكن حينما نترك هذه الظواهر، ونبحث في مواقفهم نجد أنهم دعاة إلى الإرهاب بطرق مختلفة، أهمها نشر الأفكار المشجعة على الإرهاب، ومن ثم، إنهم صاروا حاضنة للإرهابيين، الذين يتخرجون من مدارسهم بفعل التحريض والأفكار التي تلقنهم إياها الجماعة.

---

(١) من الأمثلة على ذلك (هيئة دروع الثورة)، وهي تحالف محسوب على هيئة الأركان العامة. مكون من بضع عشراتٍ من الفصائل الصغيرة المتمركزة في إدلب وحماة. تكون عام ٢٠١٢ بمساعدة الإخوان المسلمين في سوريا، ويصنف نفسه كتحالف إسلامي - ديمقراطي معتدل. تعترف الهيئة بتلقي مساعدات من جماعة الإخوان المسلمين، لكنها تنفي أي صلة مباشرة بها، انظر الرابط التالي:

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/01/131213_syria_rebels_background

(٢)انظر الخبر في جريدة الخبر الجزائرية تحت عنوان (القرضاوي وراء قتل البوطي؟) بقلم سعد بو عقبة، بتاريخ ٢٣ مارس ٢٠١٣، ونص الخبر: (القرضاوي ساهم في قتل الشيخ محمد رمضان البوطي، فقد قام القرضاوي بإصدار فتوى على الهواء في محطة (الجزيرة) منذ أسبوع، تتيح للثوار في سوريا قتل البوطي حين قال: (كل من يؤيد نظام الأسد من العلماء وجب قتله) وكان ذلك في حصة (الشريعة والحياة)، انظر الرابط التالي:

http://www.elkhabar.com/ar/autres/noukta/328282.html#sthash.JvGAE3gy.dpuf.

ومن خلال قراءة يسيرة للسير الذاتية لأعضاء الجماعات الإرهابية أو قادتها نجدهم قد تتلمذوا في يوم ما على حركات الإسلام السياسي، واقتنعوا بأنه لن تقوم للإسلام قائمة إلا بقلب أنظمة الحكم، وأنه لا يمكن أن يحصل ذلك إلا بالجهاد.

ولعل أكبر دليل على ذلك تأسيس جماعة الهجرة والتكفير في مصر، من داخل السجون أيام عبد الناصر، وفكرة الولاء والبراء للدكتور الظواهري زعيم تنظيم القاعدة، فعلى الرغم من تبرؤ الإخوان منهما، إلا أننا لا نستطيع أن ننفي أثر الأفكار الإخوانية في تأسيس جماعتيهما.

بل إن اسم القاعدة نفسه نستطيع أن نجده بوصفه اسماً ومسمى في الأفكار التي كان الإخوان يذكرونها، وينادون بها، ولو لم يكونوا يقصدون أنها ستصل إلى هذا الحال.

ومن الأمثلة على ذلك بعض النصوص التي أوردها سيد قطب في كتابه الذي يعدّ دستوراً للجماعات الإرهابية (معالم في الطريق)، فهو بأسلوبه البليغ يضع - من قصد أو من غير قصد- الخطة العملية لتأسيس القاعدة، بل إنه يضيف إلى ذلك، فيعطيها الاسم الذي يتناسب معها[1].

وهكذا نرى أن للإخوان وحزب التحرير أثرًا بارزاً في تأسيس أخطر جماعة إرهابية (داعش)؛ وذلك أن من القضايا الكبرى التي دعا إليها هذان الاتجاهان بكل الوسائل إعادة إحياء الخلافة الإسلامية بحسب ما هي موجودة في كتب الفقه الإسلامي والتاريخ الإسلامي، ومن المعلوم أن (داعش) في هذه المسألة لم تخرج عن أحكام الفقه الإسلامي في المدرسة السنية[2]، ومظالمها التي فعلتها هي المظالم نفسها التي وقعت على امتداد التاريخ الإسلامي، والتي كان الإخوان يتغنون بها كل حين، حتى إن يوسف القرضاوي ألف كتاباً يدافع فيه عن بني أمية، ويبين فيه أنهم نموذج مثالي للإسلام.

---

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة: الأولى (ص: ٤٩).

(٢) وهم لذلك يستدلون في كتبهم ورسائلهم على ما ورد في صحة خلافة المتغلب من خلال كتب الفقه الإسلامي.

وهكذا فعل منير الغضبان، وقد كان رقيباً للإخوان المسلمين في سورية، فقد كتب كتاباً في معاوية يثني عليه سماه (معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد)، قال في مقدمته: «ما أعتقد أن شخصية في تاريخنا الإسلامي ومن الرعيل الأول من الصحابة الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ وعاشوا وحي السماء قد نالها من التشويه والدس والافتراء ما نال معاوية بن أبي سفيان[1]... لقد أصبح كثير من المعلومات ثابتة في أذهان الناس لا تقبل الشك ولا تقبل الجدل، لا تتناسب أبداً والمستوى اللائق بصحابة رسول الله ﷺ، وصورة معاوية في أذهانَ الناس أنه طالب سلطة وسياسي بارع ونهّاز للفرص لا يرعوي عن شيء في سبيل الوصول إلى الحكم . صارع من أجل السلطة وسعى إلى قتل عشرات الألوف من الناس لكي يصل إلى الخلافة، وهذا الصورة تتنافى مع حس المسلم وفطرته، لكنه لا يجد لها بديلاً، فكتب التاريخ تذكر ذلك، وعندما جاء المؤرخون المحدثون وكتبوا عن معاوية، زادوا الطين بلة، وكرسوا هذه المفاهيم في أذهان الناس وزادوهم قناعة بها، فكان لا بد من الكتابة عن معاوية بن أبي سفيان»[2].

هذا هدفه من الكتاب، وقد حاول أن يبرر فيه كل جرائم معاوية، وكل جرائم يزيد من بعده، وهو ما يعطي جرعات كافية للإرهابيين ليستنوا بسنة أخطر إرهابيينِ في التاريخ معاوية ويزيد.

وهكذا نراهم يدافعون عن الخلافة العثمانية مع جرائمها الكثيرة، ولهذا سرعان ما مدوا أيديهم لأردوغان لكي يتمكن في يوم من الأيام من إحياء الخلافة من جديد.

ولهذا لا نجد لحركات الإسلام السياسي مشروعاً سياسياً واضحاً؛ لأن تغنيهم بالتاريخ، وبما ذكر الفقهاء في هذه الجوانب، ينسف كل دعواتهم النظرية المثالية.

---

(١) هو ذكر بعد ذكر معاوية وأبيه هذه الجملة التي حذفتها (رضي الله عنهما)

(٢) معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد، منير محمد الغضبان، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص٥.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة المختصرة في تتبع أثر الاتجاهين السلفي والحركي في دعم الحركات الإرهابية وبنائها نصل إلى النتائج الآتية:

١. إن الجماعات الإرهابية المسلحة لم تنشأ من فراغ، وإنما نشأت من الأفكار المتطرفة التي ينشرها الاتجاهين: السلفي والحركي بنسب مختلفة.

٢. إنه لا يمكن القضاء على الإرهاب بالقضاء على الجماعات الإرهابية المسلحة وحدها، لأن الفكر الإرهابي المنتشر في المجتمع بفعل ذينك الاتجاهين سيظل يخرج لنا في كل يوم جماعة إرهابية جديدة، ربما أكثر تسلحاً وخبرة وتطرفاً.

٣. إن الإرهاب بأنواعه المختلفة ليس وليد هذا العصر، وإنما له أسسه التاريخية التي ابتدأت من فجر الإسلام الأول، وخصوصاً بعد وفاة النبي ﷺ ولذلك إن هذا التاريخ صار من التراث الذي يستند إليه الإرهابيون في تبرير سلوكياتهم الإرهابية، ولهذا نجدهم لا يستندون فقط إلى ما ورد في النصوص المقدسة، وإنما يستندون قبل ذلك وبعده إلى من يعدونهم سلفاً لهم.

٤. إن الفكر السلفي أمدَّ الإرهاب بكل ما يحتاجونه من أنواع التكفير، إذ شمل تكفيره الأمة جميعاً، فلا يكاد ينجو منهم أحد.

٥. إن للفكر الطائفي الذي ساهم السلفيون والحركيون في نشره في المجتمع أثراً كبيراً فيما نراه من أحداث العنف الخطيرة التي أصابت كل الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية.

٦. إن حركات الإسلام السياسي، وإن ادّعت أنها لا تمارس العنف إلا أنها حرّضت عليه بكل الطرق، فضلاً عن نشرها للأفكار التي ساهمت في دعم الإرهابيين.

انطلاقا من هذه النتائج نقترح التوصيات الآتية:

١. عدم الاكتفاء بالمقاومة المسلحة للإرهابيين، وإنما يضم إلى ذلك الرد عليهم ونشر

الفضائح التاريخية المرتبطة بهم وبالفكر الذي ينطلقون منه.

٢. نشر ثقافة السلام والسماحة والحوار التي دعا إليها الإسلام، التي استخدم الإرهابيون ومن يغذيهم من الجماعات السلفية والحركية كل الوسائل لتشويهها.

٣. الدعوة إلى الإسلام المحمدي الأصيل، الذي شوهه الفقهاء والمؤرخون على مدار التاريخ الإسلامي ، وهو الإسلام المستند إلى النصوص القرآنية والنبوية أولاً، وللتمثيل الجيد له من طرف ورثة النبوة الذين أوصى رسول الله ﷺ بالتمسك بحبهم وبحبلهم، وشهد بالضلالة على من خالفهم، وسار على خلاف هديهم.

الأصول المرجعيّة للحركات التكفيريّة

مقاربة إحصائية تحليلية

الأصول المرجعيّة للحركات التكفيريّة

مقاربة إحصائية تحليلية

د. أحمد ماجد*

لم يخلُ المجتمع الإسلاميّ من النزعة التكفيريّة، وإن كان ذلك بمظاهر وأسماء مختلفة، لذلك كانت هذه الظاهرة تعنف بمرحلة من المراحل ثمّ تعود لتخمد، لتبرز من جديد باسم آخر وتركيبة عقيديّة جديدة. وهذا لا يعني أنّ الإسلام يحتوي في طيّاته عوامل محفّزة لها، فكلّ الديانات تحمل بذاتها هذه الإمكانيّة، بل إنّ هذه الظاهرة قد تكون عامّة وشاملة، لم تنجُ منها حتى الأطر الأكثر علمانيّة ولا دينيّة، ممّا يجعل معالجة هذا الموضوع لا يتعلّق بالدين بقدر تعلّقه بالطبيعة الإنسانيّة وكيفيّة تجوابها مع الأحداث والوقائع.

لذلك نحن في هذا البحث، لا نعالج ظاهرة التكفير بوصفها ظاهرة إسلاميّة، تنطلق من شأن عقيديّ، بقدر ما نعالج هذه الظاهرة بوصفها عارضاً إنسانيّاً، قد تصاب بها مجموعة عقيديّة وأيديولوجيّة؛ نتيجة ظروف موضوعيّة واجتماعيّة وسيكولوجيّة محدّدة، فقامت بالاستجابة له عن طريق استعدادات قد تكون نتجت عن أزمات مماثلة، فالتكفيريّة قد تكون معبّرة عن حالة مرضيّة داخل النسق الذي تنتمي إليه، عبّرت عن نفسها بلغة تنتمي إليها، ومكوّنة من مجموعة من العقائد، استُقيت من مصادر وُلِدت داخل الحيّز، ولكن المشكلة نتجت عند التعاطي معه، حيث تعرض لأحد أمرين، إمّا لإعادة الصياغة والتعريف لتتلاءم

* باحث في معهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينية والفلسفية – لبنان.

مع أوليات الدفاع عن الذات أمام ما تعدّه يهدّد وجودها ويقلقها، وإمّا لإسقاطه على وقائع لا تشترك مع الأصل. وهي وإن أخذت جانبًا فكريًّا محدّدًا، هو الشكل السلفيّ في معالجتنا إلّا أنّ هذا قد لا يعبّر إلّا عن جزء من الحقيقة بحاجة إلى قراءة متأنّية تعيد نظم الأمور باتجاه إعادة قراءة الموضوع في ضوء جديد، ينظر إلى الخلفيّة السياسيّة والتاريخيّة لهذا الاتجاه.

فهذه الدراسة مقاربة لفهم الجماعة التكفيريّة بمتابعة المرجعيات الفكريّة المؤثّرة فيها، وقد اعتمد فيه التعدّد المنهجيّ، حيث نجد المنهج التاريخيّ - من دون أن تستغرق بالتاريخ كأحداث - وهي أفادت منه لشرح بعض المسائل التي لا يمكن أن تعالج إلّا من خلاله، لذلك لم يتمّ الالتزام بتسلسل الأحداث بقدر الاهتمام بالفكرة ونموّها، في نطاق بقعة جغرافيّة محدّدة. فالحدث التاريخيّ - في ما يخصّ هذا البحث - مؤشر يضيء على وجود الظاهرة التي نتكلّم عنها، ومن ثمّ المنهجيّة التاريخية؛ محاولة لمتابعة التكوين الواعي النصوصيّ، وكيفيّة تفاعله مع عناصر لاواعية كانت تعاني منها بعض المجموعات الثقافيّة وأدّت إلى ظهور الظاهرة، فضلاً عن أنه تمّ اللجوء إلى المنهج الوصفيّ، الذي يصف الظاهرة كما هي ويعرضها، لكي يرى من خلالها ما تتعرّض له بقراءة وصفيّة لوثائق هذه الجماعة وأدبياتها أو من خلال وصف التغييرات السلوكيّة أو الفكريّة، لتخضعها إلى مناهج مستجلبة من سياقات نفسيّة أو اجتماعيّة، حتّى تستطيع أن تفسّرها؛ لذلك لم يكن يعنيها التكلّم عن كيفيّة حضور أسماء التنظيمات المنتمية إليها، وإن سمتها، إنّما عملت على البحث عن المرجعيات الفكريّة المؤسّسة للحديث عنها، ولا سيّما الجوانب الأكثر تأثيرًا فيها، ومن خلال الحدث والواقع، الذي أدّى إلى بروزها بالحالة التي هي عليها.

والكلام عن المرجعيات هو كلام عن حالات مماثلة، رأت فيها هذه الظاهرة عناصر تتشابه، عملت على التماهي معها واقتباس تجربتها، لِمَا تحتويه من عناصر ترفع عنها الإبخاس الذي تتعرّض له الذات؛ نتيجة الظروف التي تمرّ بها. فالورقة تحاول أن تتناول ظاهرة، برزت في المعاصر من حياة مجموعة إنسانيّة، لها مرجعياتها التاريخيّة، ولكنّها قد تكون لجأت إليها إلّا لأسباب أخرى، قد تكون أكثر عمقًا، لذا عند تناولنا للمرجعيات نتناول اللاوعيّ والمخفي

في الذات، فهي تعبيرات وصياغات لجأت إليها الذات لتتحدّث بلغة مرجعيّة، تستطيع أن تخاطب من خلالها الآخر بنسق رمزيّ مشترك بينهما.

وقد لجأنا في سياق عملنا، وقبل تحديد المرجعيات والحديث عنها للقيام بعمليّة تحديد كمّيّ للشواهد التي استخدمت لتحديد المرجعيات انطلاقًا من النصوص، حتى لا نلقي على هذه الاتجاه شيئًا من خارجه. وبعد ذلك قمنا بتصنيف كلّ فئة على حدة، وتحدثنا عنها.

هذا، وسيتطرق البحث إلى العناوين الآتية:

أولًا: تحديد المرجعيات.

ثانيًا: تصنيف المصادر والحديث عنها.

ثالثًا: خلاصة تقييميّة.

أوّلًا: في تحديد المرجعيات

انتخب البحث ثلاث شخصيات أساسية في سياق عمله هم: عبد الله عزّام، وأسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، وقد وقع عليها الاختيار لما لها من أثرٍ تأسيسيّ، فمعها أخذت تتمظهر السلفيّة الجهاديّة، وتأخذ شكلها الأتم، ويمكن جعل كلّ من أتى بعدهم إضافة لا تلغي تأثيرها، وهي وإن قدمت نصوصًا جديدة، لكنّها بقيت تدور بفلكها أو متناقضة، ولا سيما أنّ ما قدّمته من خطوات منهجيّة في قراءة الواقع كان الأساس، والخلاف لا يتعدّى كونه يتعلّق بالسياسات والإجراءات، ولا تصل إلى حدود تقويض البنية الأساسيّة التي أُطلق عليها في أدبياتهم اسم القاعدة، التي تطورت على أرضيّة الطليعة المقاتلة في مرحلة من المراحل التحضيريّة. هذا، وقد تمّ اللجوء إلى عدد من الكتب والرسائل لكلّ شخصيّة كعيّنة تطبيقيّة كاشفة[1]، وهذا الأمر يعود إلى ضيق المدّة الزمنيّة المخصّصة للبحث، والتشابه المنهجيّ بين المؤلّفات الخاصّة بهم، وتردّد المعلومات وتكرّرها:

---

(١) تمّ الاستفادة في هذه العينة من:
Militant Ideology Atlas, Editor & Project Director: William Mccants, Phd,2006

١٠١: عبد الله عزّام:

وُلِد في قرية (سيلة الحارثيّة) من أعمال جنين الفلسطينيّة عام ١٩٤١م، تلقّى دروسه الابتدائيّة والتكميليّة في مدرسة القرية، وأكمل دراسته في مدرسة خضوري الزراعيّة في طولكرم، ونال شهادة الليسانس في الشريعة عام ١٩٦٦م من جامعة دمشق، عمل مدرّسًا في قريته إلى أن هُجّر منها بعد نكسة عام ١٩٦٧م؛ حيث التحق بشيوخ الإخوان المسلمين في الأردن، وبقي معهم حتّى عام ١٩٧٠ م حين غادر للدراسة في جامعة الأزهر، فحصل على شهادة الماجستير في أصول الدين، وعيّن محاضرًا بالجامعة الأردنيّة التي عادت وانتدبته للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ١٩٧٣م، رجع بعدها إلى التدريس في الجامعة، واستمرّ فيها لغاية عام ١٩٨٠م، حين انتقل إلى جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وبعدها عمل في الجامعة الإسلاميّة العالميّة في إسلام آباد، ثم تفرّغ للعمل الدعوي والتعبوي في أثناء الحرب الأفغانيّة الروسية، حتّى تمّ اغتياله في ٢٤-١١-١٩٨٩[١].

كتب عزّام كثيراً من الكتب، التي تحوّلت إلى أدبيات أساسيّة للسلفيّة الجهادية، سنقوم من خلال هذه الورقة بعرض المصادر في ثلاثة منها، لنرى المرجعيات التي اتكأ عليها، وهي:

١-١- أ- الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان[٢]:

نُشِرَ عام ١٩٨٥: حيث نلحظ أنّ الكاتب استشهد في سياقه بالمرجعيات الفكريّة الآتية: ابن تيمية[٣]٪١٨.٦، ابن قدامة[٤] ٪٥.٧، مالك بن أنس[٥]٪٤.٣، القرطبي[٦]٪٤.٣،

(١) مروان شحادة، تحولات الخطاب السلفيّ (بيروت: الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، ٢٠١٠)، الصفحة ٣١٠.

(٢) عبد الله عزّام، الدفاع عن أراضي المسلمين أهمّ فروض الأعيان، منبر التوحيد والجهاد. أنظر الرابط: www.tawhed.ws

(٣) ابن تيميّة، وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمّد ابن تيميّة، تقي الدين أبو العباس النميري ولقبه (شيخ الإسلام). ولد يوم الاثنين ١٠ ربيع الأوّل ٦٦١هـ أحد علماء الحنابلة.

(٤) موفق الدين أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة بن مقدام من ذريّة سالم بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي المقدسي الجمّاعيلي والدمشقيّ الصالحي، أحد أئمة وشيوخ المذهب الحنبلي.

(٥) أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدنيّ (١٧٩-٩٣ هـ/ ٧١١- ٧٩٥م) فقيه ومحدِّث مسلم، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلاميّ.

(٦) محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، كنيته أبو عبد الله، ولد بقرطبة بالأندلس، حيث تعلّم القرآن الكريم وقواعد اللغة العربيّة وتوسّع بدراسة الفقه والقراءات والبلاغة وعلوم القرآن وغيرها، كما تعلّم الشعر أيضًا. انتقل إلى

الشافعي[١] ٤.٣٪، ابن عابدين[٢] ٤.٣٪، الجصّاص[٣] ٢.٩٪، الشوكاني[٤] ٢.٩٪، شهاب الدين الزهري[٥] ٢.٩٪، ابن شهاب[٦] ٢.٩٪، عبد الرسول سياف[٧] ٢.٩٪، ابن العربي المالكي[٨] ٢.٩٪، ابن حجر[٩] ٢.٩٪، الشيباني[١٠] ١.٤٪، النووي[١١] ١.٤٪، فخر الدين الرازي[١٢] ١.٤٪، إسماعيل بن عبد الرحمن ١.٤٪ آخرون ٣٤٪.

مصر واستقرّ بمنية بني خصيب في شمال أسيوط حتى وافته المنيّة في ٩ شوال ٦٧١ هـ، وهو يعدّ من كبار المفسّرين، وكان فقيهًا ومحدّثًا ورعًا وزاهدًا متعبّدًا.

(١) أبو عبد الله محمّد بن إدريس الشافعيّ المطلِبيّ القرشيّ (١٥٠-٢٠٤ هـ/ ٧٦٧-٨٢٠ م)، هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنّة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعيّ في الفقه الإسلاميّ.

(٢) محمّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي (١١٩٨-١٢٥٢هـ/ ١٧٨٤ - ١٨٣٦ م)، فقيه الديار الشاميّة، وإمام الحنفيّة في عصره. ولد في دمشق عاصمة سورية بزقاق المبلط في حي القنوات.

(٣) ولد محمّد بن علي الرازي الملقّب بالجصّاص في مدينة الري سنة ٣٠٥ هـ. وقد مكث بها حتى سن العشرين حيث رحل إلى بغداد، حاز الجصّاص مكانة علميّة عالية بين العلماء وعلماء الحنفيّة خصوصًا. وقد انتهت إليه رياسة المذهب الحنفيّ.

(٤) محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني، أحد أبرز علماء أهل السنّة والجماعة وفقهائها، ومن كبار علماء اليمن، ولد بهجرة شوكان في اليمن ١١٧٣ هـ ونشأ بصنعاء، وولي قضائها سنة ١٢٢٩ هـ، ومات حاكمًا بها في سنة ١٢٥٠ هـ، تميّز ببعده الحديثيّ.

(٥) محدّث من القرن الثاني للهجرة.

(٦) محدّث له ٢٢٠٠ حديث.

(٧) اسمه عبد الرسول سياف، شخصية أفغانيّة انتمى إلى الجماعة الإسلاميّة في أفغانستان، ثمّ شارك في القتال ضد الاحتلال السوفياتي.

(٨) محمّد بن عبد الله بن محمّد المعافري، الملقّب ابن العربى المالكى، ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨ هـ، دخل الشام فسمع من الفقيه نصر المقدسى وأبى الفضل بن الفرات، وببغداد من أبى طلحة النعالى وطراد، وبمصر من الخلعى، وتفقّه على الغزالى وأبى بكر الشاشى والطرطوشى، له شهرة في علمه فقد أخذ جملة من الفنون حتى أتقن الفقه والأصول وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحّر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر. مات في فاس في ربيع الأخر سنة ٥٤٣ هـ، ودفن بها.

(٩) ابن حجر الهيتمي، هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمّد بن محمّد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري الشافعي، (٩٠٩هـ - ٩٣٧هـ) فقيه شافعي ومتكلّم على طريقة أهل السنة من الأشاعرة، ومتصوف.

(١٠) أحد أبرز فقهاء المذهب الحنفي.

(١١) محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرِّي بن حسن بن حسين بن محمّد بن جمعة بن حزام النووي الشافعيّ الدمشقي المشهور بـ (النووي) (٦٣١ - ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣-١٢٧٧م) أحد أشهر فقهاء السنة ومحدّثيهم وعليه اعتمد الشافعيّة في ضبط مذهبهم بالإضافة إلى الرافعي.

(١٢) فخر الدين الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م)، وُلِدَ في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان. كان الرازي عالماً في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها، اختُلف في سبب وفاته، وقيل مات مسمومًا.

١-١- ب: إتحاف العباد بفضائل الجهاد[١]:

وتُظهر الإحالات الشخصيات الآتية: ابن حجر.٪١١.٤، ابن تيميّة: ٪٨.٦ ، ابن العربي المالكي ٪٨.٦، ابن كثير ٪٥.٧[٢]، القرطبي ٪٥.٧، موسى بن عقبة[٣]٪١.٤، سفيان بن عيينة[٤] ٪١.٤، الشيباني٪١.٤، الجصّاص ٪١.٤٠٠، النضر بن شميل[٥] ٪١.٤، ابن قدامة ٪١.٤، ابن رشد[٦]٪١.٤، عبد الرحمن بن القاسم[٧]٢.٩، مالك بن أنس ٢.٩، النووي ٪٧.١، الآخرون.٪٣٧.

١-١- ج: مقدّمة في الهجرة والإعداد[٨]:

ابن تيمية ٪٩.٩، الغزالي[٩]٪٥.٩، ابن عابدين ٪٥.٠، الشافعي.٪٣.٠، أبو حنيفة ٪٣.٠، النسفي[١٠]٪١.٠، عبد الله مبارك ٪٢.٠، عبد الرسول سياف ٪٢.٠، جلال الدين

---

(١) عبد الله عزّام، إتحاف العباد بفضائل الجهاد، منبر التوحيد والجهاد. أنظر الرابط:
http://www.almeshkat.net/

(٢) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، عالم مسلم، وفقيه، ومفتٍ، ومحدّث، وحافظ، ومفسر، ومؤرخ، وعالم بالرجال، ومشارك فى اللغة، وُلِدَ فى بصرى سوريا سنة ٧٠٠ هـ، قرأ على شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرًا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه وعلى الشيخ الحافظ بن قايماز وأجاز له من مصر أبو موسى القرافى والحسيني وأبو الفتح الدبوسي وعلي بن عمر الواني ويوسف الختني وغير واحد.

(٣) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي بالولاء، أبو محمّد، مولى آل الزبير: عالم بالسيرة النبويّة، يعتبر من ثقات رجال الحديث من أهل المدينة.

(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون مولى محمّد بن مزاحم الهلالي إمام ومحدّث شهير، وعرف بالزهد والورع. وقد ولد في الكوفة سنة ١٠٧ هـ وتوفي ١٩٨ هـ.

(٥) أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم المازني التميمي البصري (١٢٢- ٢٠٣هـ) قاضٍ ولغوي وراوٍ للحديث وفقيه.

(٦) وُلِدَ أبو الوليد محمّد بن أحمد بن رشد القرطبي المشهور عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) شَيْخُ المَالِكِيَّةِ وقاضي الجماعة بقرطبة توفي سنة (٥٢٠هـ-١١٢٦م).

(٧) فقيه مالكي.

(٨) عبد الله عزّام، الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان، منبر التوحيد والجهاد. أنظر الرابط:
www.tawhed.ws

(٩) أبو حامد محمّد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفيّ الشافعي الأشعري، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري (٤٥٠هـ - ٥٠٥هـ) كان فقيهًا وأصوليًا وفيلسوفًا، شافعيّ الفقهِ.

(١٠) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات (ت ٧١٠هـ) فقيه حنفي ولقب بحافظ الدين. ظهر في مدينة نسف، أوزبكستان.

الحقاني ٢.٠٪[١]، العزيز بن عبد السلام السلمي[٢] ٢.٠٪، عبد الكريم بن محمّد الرافعي[٣] ٢.٠٪، أحمد بن حنبل ٢.٠٪، النووي ٢.٠٪، جمال عبد الناصر ٣.٠٪، ابن قيم الجوزية ٣.٠٪، جمعة سعد ٣.٠٪، آخرون ٤٩٪.

قبل البدء بتحليل المعطيات التي أوردها التحليل الكمّي، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك حضورًا قويًّا لأسماء عدد من الشخصيات كناصر الدين الألباني ومراجعاته على الكتب الحديثيّة، ووردت أيضاً أسماء عدد من الشخصيات الإخوانيّة والسلفيّة كسعيد حوى، ومحمّد نجيب المطيعي، وعبد الناصر العلوان... ولكننا لم نوردها في الجدول الإحصائي أو تمّ حذفها، لأنّ الغاية إظهار الشخصيات المركزيّة، التي ستعود وتظهر في السياق التحليليّ العام.

هذا، ويُلحظ غياب البعد التفسيريّ بشكل كبير عن العيّنة التي أُخذت لإظهار المرجعيات، وحضور القرطبي لم يكن حضورًا مقصودًا لذاته، إنّما لجأ إليه عبد الله عزّام لخصوصيّة الكتاب التفسيريّ، الذي يحتوي أحكامًا شرعيّة، تلاءمت مع ما يريد أن يقول، فهو استخدم بشكل وظيفيّ، أمّا الفخر الرازي فكان حضوره بوصفه بعداً لغويّاً، وليس تفسيريّاً، وهذا ما ينطبق على تفسير النسفي؛ لذلك جاءت الآيات القرآنيّة كشواهد دالّة تستكمل كلامه وتوضحه، فهو يتعاطى مع الآيات بشكل تجزيئيّ، تخدم الموضوع الذي يتناوله، ويعتمد عزّام رأي التيار السلفيّ بوصفه قاعدة بناء الرؤية، وهي تحتل المرتبة الثانية من ناحية الشواهد بنسبة قد تصل إلى ١٦٪ من مجملها، ولكنّها إذا أضيف إليها التيار الحديثيّ الذي ينتمي إلى مذهبيات أخرى الذي يصل إلى حدود ٣٠٪ يصبح لدينا أكثر من نصف ما كتب مسوقًا باتجاه واحد، تتحكّم به عقليّة منهجيّة نصّيّة، تربط النصّ بالحدث، وتستحضر

---

(١) شخصيّة أفغانية، قاتلت الاحتلال السوفياتي.

(٢) ولد سنة ٥٧٨هـ عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي، المغربي أصلًا، الدمشقي مولدًا، المصري دارًا ووفاة، أبو محمّد، الملقّب بعزّ الدين، وبسلطان العلماء، والمعروف ببائع الملوك. وهو سلطان العلماء، لقبه بهذا اللقب تلميذه الأوّل شيخ الإسلام ابن دقيق العيد.

(٣) أبو القاسم الرافعي القزويني، من فقهاء القرن السابع الهجري، وثاني أكبر فقهاء الشافعيّة ويعدّ هو والإمام النووي من محقّقي المذهب. وقد أخذت أقوالهما وشرحت ودونت، في كتب مثل: كتاب عمدة السالك وعدة الناسك لابن النقيب يعود نسبه إلى الصحابي (رافع بن خديج) وإليه النسبة فيقال له الرافعي.

الحديث لتوقعه عليه، أما مواقف أصحاب المذاهب فكانت إضافات تتوافق مع الحكم الذي بني أصلًا.

فبناء النص ومرجعياته لا يقوم على أسس علميّة، فهو يمزج بين الآنيّ والتاريخيّ؛ لذلك تتداخل الأسماء فيه بمعزل عن أيّ قاعدة تفسيريّة واضحة، ممّا يعني استحضار الذات ومركزيتها، وهذا يؤشر إلى حالة شديدة الخطورة، إذ يصبح القائل بمنزلة النبي الذي يتعاطى مع الواقعة، فيوقع عليها الآية أو الحديث أو الواقعة التاريخية التي تتلاءم معها، أي يقوم بإعادة معننتها، بما يتوافق معها بحسب رأيه؛ لأنّ الحكم نابع من منطقة شعوريّة، قد تتحكّم بها عناصر لا واعية، تجعله يتصوّر ما هو عرضي أصلًا وبالعكس، وسنترك الكلام حول هذا الموضوع لمرحلة لاحقة من هذه الورقة، إذ سيتمّ الكلام بإسهاب عنها.

١-٢: أسامة بن لادن[1]:

أسامة بن محمّد بن عوض بن لادن، ولد في الرياض عام ١٩٥٧م لأب ثري، وهو محمّد بن لادن الذي كان يعمل في المقاولات، وكان له علاقة قوية بعائلة آل سعود الحاكمة في المملكة. ودرس في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وحصل على بكالوريوس في الاقتصاد؛ ليتولى إدارة أعمال شركة بن لادن، وتحمّل بعض من المسؤولية عن أبيه الذي ورث عنه ثروة تقدر بـ٩٠٠ مليون دولار. دعَمَ المجاهدين الأفغان ضدّ الغزو السوفياتي لأفغانستان في سنة ١٩٧٩م. وفي سنة ١٩٨٤م، أسّس ابن لادن منظّمة دعويّة وأسماها (مركز الخدمات) وقاعدة للتدريب على فنون الحرب والعمليات المسلّحة، باسم (معسكر الفاروق) لدعم المجهود الحربيّ (للمجاهدين الأفغان) وتمويله والذي دعمته في ما بعد كلّ من أمريكا وباكستان والسعودية. وفي سنة ١٩٨٨م، بلور أسامة بن لادن عمله في أفغانستان، بإنشاء سجلات القاعدة؛ لتسجيل بيانات المسلحين، وانضم إليه المتطوّعون من (مركز الخدمات) من ذوي

---

(١) أنظر: مروان شحادة، تحولات الخطاب السلفيّ، الصفحة ٣١٢، وأبو جندل الأزدي، أسامة بن لادن مجدّد الزمان وقاهر الأمريكان، (كتاب إلكتروني صدر عن مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة، منبر التوحيد والجهاد)، من الصفحة ٦٢ إلى الصفحة ٩٠.

الاختصاصات العسكريّة والتأهيل القتالي. وأصبحت في ما بعد رمزًا لتنظيم المسلحين، بعد أن ساهم في انسحاب القوات السوفياتيّة عن أفغانستان. وبعد الانسحاب وُصف بن لادن بالبطل من قبل حكومة السعوديّة، ولكن سرعان ما تلاشى هذا الدّعم حين هاجم بن لادن التواجد الأمريكيّ في المملكة إبّان الغزو العراقيّ للكويت سنة ١٩٩٠م، بل هاجم النظام السعوديّ لسماحه بوجود القوّات الأمريكيّة التي يصفها ابن لادن، فوُضِع بالإقامة الجبريّة، التي استطاع أن يهرب منها إلى السودان؛ ليؤسّس مركز عمليات جديدة هناك. ونجح بالفعل في تصدير أفكاره الثوريّة إلى جنوب شرق آسيا، والولايات المتحدة، وأفريقيا، وأوروبا. وبعدها غادَر ابن لادن السودان في سنة ١٩٩٦م، متوجّهًا إلى أفغانستان؛ نتيجة علاقته القويّة بجماعة (طالبان) التي كانت تسيّر الأُمور، والمسيطرة على الوضع، وهناك أعلن مع أيمن الظواهري (الجبهة العالميّة للجهاد ضد اليهود والصليبيين) عام ١٩٩٨، قُتل في هجوم للقوّات الأمريكية سنة ٢٠١١.

وإذا عدنا إلى بعض أعماله، نلحظ الأمور الآتية:

١-٢- أ: توجيهات منهجية ١:

أبو العباس الجنوبي٪٩.١[١]، المثنى الشيباني٪٩.١[٢]، ابن تيمية ٪٩.١، أحمد بن حنبل[٣]٪٩.١، طلال بن عبد العزيز آل سعود٪٩.١[٤]، الأسعد بن زرارة[٥] ٪٩.١، وزير خارجية قطر[٦] ٪٩.١، محمد بن عبد الوهاب[٧] ٪٩.١، ابن الجوزي٪٩.١، الذهبي ٪٩.١، أبو محمّد المقدسي٪٦.٢[٨].

---

(١) أحد انتحاريي ١١ أيلول.

(٢) المثنى بن حارثة الشيباني البكري توفي سنة (١٤هـ) صحابي أسلم سنة تسع للهجرة، كلّفه الخليفة أبو بكر الصديق بقتال الفرس مع قومه قبل بعث خالد بن الوليد إلى العراق.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني الذهلي (١٦٤-٢٤١هـ) فقيه ومحدِّث مسلم، ورابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي.

(٤) شخصيّة من الأسرة الحاكمة في السعوديّة، تميزت برؤيتها الليبراليّة.

(٥) شخصيّة من الصحابة.

(٦) شخصيّة سياسيّة قطريّة.

(٧) مؤسّس السلفيّة الوهابيّة.

(٨) أحد الشخصيات المؤسّسة في السلفيّة الجهاديّة.

١-٢- ب: توجيهات منهجيّة ٢:

أحمد بن حنبل٪١٤.٣، ابن تيميّة٪٢٨.٦، الشاطبي٪١٤.٣، المثنى الشيباني ٪١٤.٣.

١-٢- ج: توجيهات منهجيّة ٣:

عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[١] ٪١٢.٥، هاشم الرفاعي٪١٢.٥[٢]، ابن تيمية ٪١٢.٥، يوسف محي الدين أبو هلال[٣] ٪١٢.٥، فهد بن عبد العزيز آل سعود [٤]٪١٢.٥، محمّد قطب[٥]٪١٢.٥.

يلحظ من خلال الاستشهادات الامتزاج التاريخيّ بالآنيّ، إذ يعود معننة النصوص عن طريق إيقاعها على الأحداث الطارئة، فتتداخل الأسماء بشكل واسع، والمميز عند ابن لادن غياب المرجعيات الفقهيّة خارج الإطار السلفيّ التقليديّ، ولم يتمّ التطرّق إلّا لشخصيّة واحدة هي الشاطبي، إذ اختار موضوعًا واحدًا يتمثّل بالاجتهاد في الجهاد، وهو ما يتوافق مع مراداته.

هذا، وتميّز النص عند ابن لادن ببروز السلفيّة الحديثة والمعاصرة عنده، وقد احتل هذا الاتجاه مساحة واسعة، وهذا ما يؤشر إلى التربية التي تلقّاها في المؤسّسة الحاكمة، وإلى جانبها ظهرت عنده أسماء شخصيات مارست دورًا كبيرًا في التأسيس غير المباشر للسلفيّة الجهاديّة كمحمّد قطب، وهو من القيادات المحسوبة على الإخوان المسلمين. فضلاً عن ذلك لحاظ

---

(١) ولد عبد الرحمن سنة ١١٩٣ هـ في مدينة الدرعية، قُتل والده الشيخ حسن بن محمّد في معركة غرابة، فكفله جده الإمام محمّد بن عبد الوهاب وتربّى في حجره، ولازمه حتى توفي وله من العمر ثلاث عشرة سنة، عاصر ستة من أسرة آل سعود، ومات وقد تجاوز التسعين من العمر.

(٢) سيد بن جامع بن هاشم الرفاعي (١٩٣٥ م- ١٩٥٩ م)، شاعر مصري اسمه الحقيقيّ: سيد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي، ولكنه اشتهر باسم جدّه هاشم لشهرته ونبوغه، وتيمنًا بما عرف عنه من فضل وعلم، وعرف بهذا الاسم وانطوى الاسم الحقيقي عنه، هجا عبد الناصر، واغتيل سنة ١٩٥٩.

(٣) شاعر من الأردن.

(٤) أحد ملوك السعوديّة.

(٥) محمّد قطب إبراهيم حسين شاذلي، كاتب إسلامي مصري ولد سنة ١٩١٩ م، له عدّة مؤلّفات وهو شقيق سيد قطب، أقام قبل وفاته سنة ٢٠١٤ بمكّة المكرمة، يعدّ محمّد قطب علامة فكريّة وحركية بارزة بالنسبة للحركة الإسلاميّة المعاصرة.

استبطان النص لكثير من نصوص سيد قطب التي تمّ الإشارة إليها بالمعنى.

١-٣: أيمن الظواهري:

وُلِدَ أيمن الظواهري في عام ١٩٥١ في حي المعادي، أبوه هو الدكتور محمّد الظواهري من أشهر أطباء مصر والعرب، وجده لوالده الشيخ محمّد الظواهري أحد شيوخ الأزهر، وجدّه لوالدته هو عبد الوهاب عزّام أحد أهم رجال الأدب والنفوذ بمصر في مرحلة ما قبل ثورة ١٩٥٢، وأخوه عبد الرحمن عزّام أوّل أمين عام للجامعة العربيّة، وخاله سالم عزّام أمين المجلس الإسلاميّ الأوروبي، وخاله الآخر محفوظ عزام نائب رئيس حزب العمل المصري. نشأ الظواهري في بيئة ملتزمة دينيًّا، درس أيمن الظواهري الطب، وحصل على ماجستير جراحة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨. شارك منذ منتصف السبعينات في تأسيس الجماعة الإسلاميّة التي كانت تضم أيضًا جماعة الجهاد حتّى عام ١٩٨١، أُلقي القبض عليه في نفس العام، وتبيّن أنه عضو في خليّة سريّة تكوّنت عام ١٩٦٨. وكان الظواهري أمير التنظيم والمشرف على التوجيه الفكريّ والثقافيّ للجماعة. وحينما اغتال خالد الإسلامبولي الرئيس المصري الراحل محمّد أنور السادات، نظمّت الحكومة المصريّة حملة اعتقالات واسعة، وكان الظواهري من ضمن المعتقلين، إلّا أنّ الحكومة المصريّة لم تجد للظواهري علاقة بمقتل السادات، وأودع الظواهري السجن بتهمة حيازة أسلحة غير مرخصة. في سنة ١٩٨٥ أفرج عنه، فسافر إلى المملكة العربيّة السعوديّة؛ ليعمل في أحد المستشفيات، ولكنه لم يستمر في عمله هذا طويلًا. وبعد ذلك سافر إلى باكستان ومنها لأفغانستان، حيث التقى أسامة بن لادن، وبقي في أفغانستان إلى أوائل التسعينات؛ حيث غادر بعدها إلى السودان، ولم يغادر إلى أفغانستان مرة ثانية إلّا بعد أن سيطرت طالبان عليها بعد منتصف التسعينات، وفي عام ٢٠١١ أصبح أيمن الظواهري رئيسًا لتنظيم القاعدة الرئيسيّ خلفًا لأسامة بن لادن.

من خلال متابعة بعض كتب أيمن الظواهري، يمكن لحاظ الأمور الآتية:

١-٣-أ: الكتاب الأسود (قصة تعذيب المسلمين في عهد حسني مبارك):

ابن تيمية ١٩.٠٪، عبد القادر بن عبد العزيز ٤.٨٪[١]، أحمد شاكر ٩.٥٪[٢]، ابن قدامة ٤.٨٪، إسماعيل القاضي[٣] ٤.٨٪، الماوردي ٤.٨٪، النووي ٤.٨٪، الشنقيطي ٤.٨٪[٤]، السيوطي ٤.٨٪، ابن القيم الجوزية ٤.٨٪، محمّد بن إبراهيم آل الشيخ ٩.٥٪[٥]، أبو عمر بن عبد البر ٤.٨٪[٦]، محمّد حامد الفقي[٧] ٤.٨٪، ابن هاجر ٩.٥٪.

١-٣-ب: شفاء صدور المؤمنين: رسالة عن بعض معاني الجهاد في عملية تفجير إسلام آباد:

ابن تيميّة ١٤.٩٪، ابن هاجر ١٢.٦٪، القرطبي ٨.٠٪، ابن قدامة ٦.٩٪، ابن عابدين

---

(١) سيد إمام عبد العزيز إمام الشريف، ولد في أغسطس عام ١٩٥٠م، في مدينه بني سويف، بجنوب مصر، تخرج في كلّية طب القاهرة عام ١٩٧٤م، هرب عقب اغتيال السادات عام ١٩٨١م، وأقام وعمل بمدينه بيشاور الباكستانيّة، ثمّ تنقّل بين السودان واليمن التي ألقت عليه القبض في عام ٢٠٠١، وسلّمته إلى الحكومة المصريّة عام ٢٠٠٤.

(٢) الشيخ أحمد محمّد شاكر (١٣٠٩ - ١٣٧٧هـ) الملقّب بشمس الأئمة أبو الأشبال، إمام مصري من أئمة الحديث في العصر الحديث، درس العلوم الإسلاميّة وبرع في كثير منها، فهو فقيه ومحقّق وأديب وناقد، لكنه برز في علم الحديث حتى انتهت إليه رئاسة أهل الحديث في عصره.

(٣) أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن محدّث البصرة حمّاد بن زيد بن درهم الأزدي، مولاهم البصري، المالكي، قاضي بغداد، وصاحب التصانيف، وُلِدَ سنة ١٩٩ هـ واعتنى بالعلم من الصغر.

(٤) محمّد الأمين بن محمّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي المدنيّ. ولد بموريتانيا عام ١٣٢٥ هـ-١٩٠٥م في مدينة تنبه في موريتانيا، حيث نشأ يتيمًا فكفله أخواله وأحسنوا تربيته ومعاملته، فدرس في دارهم علوم القرآن الكريم والسيرة النبويّة المباركة والأدب والتاريخ، فكان ذلك البيت مدرسته الأولى. ثمّ اتصل بعدد من علماء بلده فأخذ عنهم، ونال منهم الإجازات العلميّة. تولى القضاء في بلده فكان موضع ثقة حكّامها ومحكوميها... وكان من أوائل المدرّسين في الجامعة الإسلاميّة سنة ١٣٨١هـ، ثمّ عين عضوًا في مجلس الجامعة، كما عيّن عضوًا في مجلس التأسيس لرابطة العالم الإسلاميّ، وعضوًا في هيئة كبار العلماء ٨/ ٧/ ١٣٩١ هـ. توفي بمكّة بعد أدائه لفريضة الحج ١٩٧٤م.

(٥) الشيخ محمّد بن إبراهيم آل الشيخ رئيس الإفتاء في السعوديّة سابقًا. اسمه محمّد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمّد بن عبد الوهاب، أبوه هو القاضي إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، وأمّه هي الجوهرة بنت عبد العزيز الهلالي من عرقة من المزاريع من بني عمرو من تميم.

(٦) أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (٣٦٨- ٤٦٣ هـ) إمام وفقيه مالكي ومحدّث ومؤرّخ أندلسي، له العديد من التصانيف والكتب.

(٧) ولد محمّد حامد الفقي بقرية نكلا العنب في سنة ١٣١٠ هـ الموافق١٨٩٢ م بمركز شبراخيت مديرية البحيرة، وهو من الشخصيات الحنبليّة.

٥.٧٪، الشافعي٣.٤٪، ابن كثير٢.٣٪، الشاطبي٢.٣٪، النووي ١.١٪، الخطابي ١.١٪، عبد القادر بن عبد العزيز ١.١٪، أبو هريرة ١.١٪، محمّد بن إبراهيم آل الشيخ ١.١٪، أنس بن مالك١.١٪، مدرك بن عوف ١.١٪، البخاري ١.١٪، الدرديري ١.١٪، الجصّاص ٣.٤٪، المرداوي ٣.٤٪، الشربيني ٤.٦٪، آخرون ٢١.٨٪.

ويلحظ أيضًا عند أيمن الظواهري ارتفاع منسوب السلفيّة وأهل الحديث، وقد يضاف إليهم حضور سيد قطب في كتبه الأخرى، مما يقدّم لنا إمكانية كشف المرجعيات الفكريّة لديه.

ثانيًا: تصنيف المصادر والحديث عنها:

حددت الدراسة الكمّية بشكل أوّلي مرجعيات التيار التكفيريّ، ومن خلال ذلك نظرنا إلى الشواهد التي لجؤوا إليها، الأمر الذي سيسمح لنا بتبويبها، انطلاقًا من ثلاثة مكونات أساسيّة، هي السلفيّة التقليديّة وأهل الحديث والإسلام الحركيّ وشذرات من الفرق تتلاءم مع بنيتها أو تخدم رؤيتها العامّة.

١- الفكر السلفيّ التقليديّ:

وهو يعود بجذوره إلى أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، الذي عُرِف من خلال رفضه لمقولة (خلق القرآن) والدعوة إلى الأخذ بظاهر النص القرآنيّ وتكفير من لا يقول بهذا القول، بل وتكفير من لا يكفّرهم؛ لذلك لم يتورع عن مهاجمة أئمة أهل السنة والجماعة لا سيما أبو حنيفة النعمان، الذي عمل بالرأي بحسب قولهم.

عمل ابن حنبل على مواجهة التيارات الفكريّة السائدة في عصره، ولكنّه لم يصل إلى تكوين رؤية منهجيّة محدّدة، فقد اكتفى بوضع الإشارات والعلامات الأولى التي سيسترشد بها من يأتي بعده، وأهمّيّة العودة إلى أحمد بن حنبل، تُظهر ضرورة النزوع التطهيريّ عند المجموعة المأزومة، فأحمد بن حنبل قد جاء في زمن بدأت تتصّاعد فيه التيارات العقليّة والتشيّع، فأراد أن يواجهها، فأطلق العنان لعمليّة فكريّة تستعيد النص بحرفيته من دون

تأويلات عقليّة. ومن خلال هذا الأمر استحوذ على عقل العامّة، التي تفاعلت مع النظرات التي تقرّبها من الحسّيّ والملموس. وهذا ما جعل المثقف الإسلاميّ في ذلك الحين مأزومًا، لأنّه يتكلّم بلغة نخبويّة لا تتفق مع مزاج العامة، وبذلك حقّق ابن حنبل انتصارًا أوّليًّا، استكمله بتكفير الشيعة وما تبقى من مذاهب. مما دفع السلطة إلى التراجع عن تبنّي الاعتزال، وأحجمت عن قتله، وقادت انقلابًا سلطويًّا، وإن لم يصل إلى حدّ تبنّي مقولات ابن حنبل إلّا أنّها أجرت تعديلات سمحت لها بالاستمرار بالحكم.

وبعد أحمد بن حنبل دخل هذا التيار في سبات، وبقي في أطر ضيقة، ولم يعرف تصاعدًا جديدًا إلّا في مرحلة الغزو المغولي، إذ ظهرت شخصيّة جديدة هي تقي الدين ابن تيمية (ت١٣٢٨ م)[1]، الذي يعدّ المؤسّس الفعليّ لهذا التيار، إذ عمل على تقعيد النظرة السلفيّة.

وما يهمّنا في هذا السياق، ليس مطلق السلفية، إنّما تأثيره على السلفيّة الجهاديّة، إذ لا يمكن فهم هذا التيار الفكريّ بمعزل عن آرائه، ولا سيما تلك التي وردت في رسالتيه **(العقيدة الواسطيّة)** و**(السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة)** بما يحتويان من أحكام فقهيّة لمواقف الإمرة، فضلاً عن فتاويه التي وسّعت من الإطار التكفيريّ ونوّعها، ممّا أدّى إلى مذابح ارتكبت بحقّ المسلمين المخالفين لرؤيته العقيديّة. فابن تيمية وضع القواعد الذهنيّة للسلفيّة التكفيريّة، والاتجاه النصّيّ الذي لا مجال لردّه أو الخروج منه بوصفها الطائفة المنصورة.

وعدّ ابن تيميّة الخروج عن السلفيّة هو عين الخروج عن مضمون معنى القرآن والسنّة. وتوسّع بموضوع الجهاد، وساوى بينه وبين الصلاة، وحتى ليبدو أنّه يضعه فوق الأركان الشرعيّة الأربعة (الشهادةِ والصوم والزكاة والحج)، فالدين عند ابن تيمة، جذعه الصلاة وتاجه الجهاد. وهذا ما دفعه إلى جعلِ وجود ولي الأمر القائم بالجهاد من الأمور الواجبة، لدور هذا الأخير في إعلان الجهاد الداخليّ بوجه المخالفين، والخارجيّ بوجه الكفّار.

---

(١) وُلِدَ في حرّان ثمّ انتقل مع والده وإخوته إلى الشام حيث أقاموا.

من هنا، تحوّل الدين مع ابن تيميّة إلى إيمان يقوم على الأخذ بحرفيّة الكتاب والسنّة، كما وردت في الصحاح عند أهل الجماعة وعمل، وهكذا تحوّل من فقيه إلى مجاهد يحثّ على الجهاد في العقيدة، وهو ما يعمل الأصوليون والسلفيون المعاصرون على إحيائه[1].

وهذه السلفيّة التيميّة استمر حضورها، وكان لها ممثّلوها كابن قدامة، فضلاً عن أنّها أثّرت في نظرتها على مذاهب إسلاميّة أخرى، ولكنّها فقدت قوّتها واندفاعتها الأولى، فانحصرت بين أوساط ضيقة من دون أن تغيب عن مجمل الحياة الدينيّة. ونظرة متأنّية على ما أورده ابن تيميّة، تسمح لنا بتحديد نقاط متعدّدة، كانت الأصل للبناء العقائديّ عند التكفيريين، وهي:

١. الجهاد فريضة أساسيّة في الإسلام، ولا يجوز التوقف عنها.

٢. الجهاد كغيره من الفرائض مرّ بمراحل تشريعيّة مختلفة، استقر الأمر في آخره إلى وجوب قتال الكفّار.

٣. الجهاد مفهوم شامل وعام، فهو يشمل كلّ شيء من شأنه الدعوة إلى الله، والقرب منه، والقتال في سبيله.

٤. الجهاد في حكمه العام فرض كفاية.

٥. للجهاد حالات يصبح فيها فرض عين، إذا احتلّ الأعداء بلاد الإسلام.

٦. لا يشترط إذن الإمام في جهاد الدفع ويعدّه مندوبًا في جهاد الطلب. وهذان النوعان أمران واقعان في الأمّة، يقدر كلّ منهما بحسب الواقعة والنازلة، ولا مجال لإبطالهما.

٧. للجهاد فوائد كثيرة تعود على الفرد والمجتمع بالخير، سواء كان ذلك من المنافع والفوائد المادّيّة أم المعنويّة.

---

(١) أنظر: عبد الغني عماد، الحركات الإسلاميّة في لبنان- إشكاليّة الدين والسياسة في مجتمع متنوّع، (بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٦)، من الصفحة ٢٦٣ إلى الصفحة ٢٦٨.

٨. الكفر سبب شرعيّ للجهاد في سبيل الله.

٩. الردّة كذلك سبب في الجهاد في سبيل الله، والمرتد أشدّ حكمًا من الكافر الأصليّ، وآثار الردّة أشدّ من آثار الكفر الأصليّ، فالمرتدّ يقتل ولا تقبل منه توبة بخلاف الكافر الأصليّ.

١٠. الذين يتعاملون مع العدو مرتدّون من الواجب قتلهم.

١١. لا يجوز الخروج على الحكّام بالسلاح حتى لو كان ظالماً، لما يترتّب على الخروج من الفتن والفساد.

١٢. جواز الانغماس في العدو.

١٣. وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

١٤. جواز الرمي بأيّ وسيلة من شأنها الفتك بالأعداء، وجواز استخدام الأسلحة المختلفة لقتل المشركين، معاملة بالمثل أو تحقيقًا لمصلحة.

١٥. جواز التمثيل بقتلى المشركين، معاملة بالمثل أو تحقيقًا لمصلحة.

١٦. جواز إتلاف مال العدو للضرورة والحاجة.

١٧. المهادنة تتبع المصلحة الشرعيّة.

١٨. الكافر الأصليّ يعقد له أمان وهدنة بخلاف المرتد.

١٩. جواز عقد الذمّة وحرمة الاعتداء على أهل الذمّة.

بعد ابن تيميّة وعودة السلطة الإسلاميّة إلى توازنها السياسيّ، عادت السلفيّة إلى كبوتها، ومع تراجع الدولة الإسلاميّة والوهن الذي أخذت تتعرّض له الدولة الإسلاميّة، وتعرّض الأمّة لخطر التدخّلات الأجنبيّة، بدأت تظهر معالم نهضة تكفيريّة جديدة، يمكن جعل حركة محمّد بن عبد الوهاب جزءًا منها، ويُنظر إلى كتابه التوحيد بوصفه مصدراً يمكن الاعتماد عليه في فهم التيار التكفيريّ، إذ قام عبد الوهاب من خلال هذا الكتاب بنقد الممارسات العقيديّة

للمسلمين، واتهامهم بعدم تطبيق حقيقة التوحيد، لأنّهم يفرّقون بين توحيد الإلوهيّة وتوحيد الربوبيّة، في حين هما مجتمعان ولا يمكن الفصل بينهما. فالإيمان الحقيقيّ لا يقوم إلّا من خلال عقيدة الولاء والبراء، وهما شرطان من شروط الإيمان. والولاء هو حب الله ورسوله ﷺ والصحابة والمؤمنين الموحّدين ونصرتهم، والبراء هو بغض من خالفهم من الكافرين والمشركين والمنافقين والمبتدعين والفساق، ومعاداتهم وجهادهم بالقلب واللسان. والولاء والبراء من أعمال القلوب، لكن يجب أن تظهر مقتضياته على اللسان والجوارح[1].

هذا، وقد تقدّم (عبد الوهاب) خطوات عن (ابن تيميّة)، إذ صاغ رؤيته العقيديّة بلغة التقنين الفقهيّ، حتى تحوّلت القناعات العقائديّة إلى مجرّد حرام وحلال وجائز وواجب...ممّا جعل كلّ مقاربة تخالف رؤيته خروجًا عن الدين.

وتوسّع عبد الوهاب بالتكفير، وأسقط علاقة الأمم قبل الإسلام مع الأوثان والأصنام على كلّ فرقة إسلاميّة تمارس علاقة قبول الأولياء...فضلاً عن أنّه حكم على البدو بالكفر - وبطريقة قبليّة ملفتة - إذ عدّ كفرهم أعظم من كفر اليهود... وحاد عن طريقة ابن تيميّة في (عذر الجاهل) ليجعل كلّ قول أو عمل فيه مخالفة لرسول الله ﷺ، إنّما هو تكذيب للنبيّ (ولا عذر لأحدٍ في ذلك)... وهذا ما فتح المجال عند السلفيّة التكفيريّة للأخذ بالمظنّة والقطع في الحكم والموقف التكفيريّ ... في ضوء ما عُرِفَ في أدبيات الوهابيين بنواقض الإسلام أو قواعد التكفير العشرة الآتية:

أ. الشرك في عبادة الله، ومن ذلك دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح لهم.

ب. من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكّل عليهم، فقد كفر إجماعًا.

ج. من لم يكفّر المشركين أو شكّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم.

د. من اعتقد أنّ هدى غير النبيّ ﷺ أكمل من هديه، أو أنّ حكم غيره أحسن من حكمه.

---

(١) عبد الغني عماد، الحركات الإسلاميّة في لبنان- إشكاليّة الدين والسياسة في مجتمع متنوّع، مصدر سابق.

هـ. من أبغض شيئًا ممّا جاء به الرسول ﷺ.

و. من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ.

ز. السحر ومنه الصرف والعطف، من فعله وقبله ورضي به.

ح. مظاهرة المشركين أو مناصرتهم ومعاونتهم على المسلمين.

ط. من اعتقد أنّ بعض الناس يسعه الخروج على شريعة محمّد ﷺ.

ك. الإعراض عن دين الله لا يتعلّمه ولا يعمل به[1].

ومن خلال هذه القواعد يعمّم الوهابيون التكفير، ويجعلونه شاملًا وعامًا، ويُخرَجُ من الإسلام حتى التيارات والأحزاب الإسلاميّة، وهذه الحدّة تظهر من خلال موقف الوهّابيّة من مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنّا.

الملحوظة الأساسية التي من الممكن الوصول إليها، أنّ التيار السلفي التقليدي، وإن كان ظهر في سياق الحياة الفكرية الإسلامية، إلا أنّه كان دائمًا يترافق مع أزمات حادة يمرّ بها المجتمع الإسلاميّ، أكانت على صعيد السياسيّ أم العقائديّ أم الاجتماعيّ، وهذا يؤشر إلى أنّ العودة إلى البعد النصوصيّ، هو حنين إلى الأصول ومحاولة لاستعادة الذات بعدما تعرضت لمحاولات الطمس والإخفاء، فتعمل على إعادة الوصل مع الماضي بوصفه ممثلاً لهويتها، فتأخذها بشكل هُجاسي، من دون نظر إلى ما طرأ عليها؛ نتيجة تطور سياقات الحياة التي مرت بها الأمة.

٢- مدرسة أهل الحديث:

أثار التدخّل البريطاني في الهند، وعملهم على تقليص دور المسلمين وتهميشهم ردة فعل تطهّريّة في الهند، عبّرت عن نفسها بحركة أهل الحديث، التي عملت على استعادة الإسلام بوجهه السلفيّ الحديثيّ. أسّس هذا الاتجاه ولي الله الدهلوي المتوفي سنة ١١٧٦هـ بحركة

---

(١) أنظر: عبد العزيز بن باز، العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام (بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤١٣ هـ)، الصفحات ٢٧-٢٨-٢٩.

إصلاحيّة دعت إلى العودة للقرآن والسنّة، وتطبيقه بشمولية، لمناحي وفروع الحياة كافة. ورفض الدهلوي التقليد المذهبيّ، وشدّد على وحدة العقيدة الإسلاميّة المنبثقة من وحدة المرجعيّة.

ومن بعده قاد هذه الحركة النوّاب صديق حسن البوفالي والسيد نذير حسين المحدّث الدهلوي، اللذان قسّما الأعمال في نشر الدعوة فيما بينهما، فاهتم الأوّل بالتأليف والنشر وبذل الأموال الطائلة واحتضان العلم والعلماء بكلّ جدّ ونشاط، والثاني بتدريس الحديث مدّة طويلة استمرت ٦٢ عامًا. وهما وإن خالفا إمامهما ببعض المسائل إلّا أنّهما رفعا شعار العمل بالحديث وعدم التقيّد بالتقليد والاجتناب عن التصوّف الشكليّ.

وبجهود هذين الشخصين نشطت حركة إحياء السنّة نشاطًا كبيرًا، فكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنّة، وكثر دعاتها، وكثرت المؤلّفات في علوم السنّة ونشرت بكثافة، ولم تبقَ هذه الحركة في إطار بيئتها الأولى، إذ بدأت تنتشر خارج الهند، ويذيع صيتها بين المسلمين، وفي هذا المجال رأى فيهم محمّد رشيد رضا أملًا بإعادة نهضة العالم الإسلاميّ، وقال في تقريظ أحد كتبهم:

وهذا كتاب مفتاح كنوز السنّة الذي نعرضه اليوم للعالم الإسلاميّ بلغة الإسلام أحد نفائس هذه الكتب التي وضعها أحد هؤلاء الأعلام، وإنّما وضعه لهم بإحدى لغاتهم، وإن عالمنا الإسلامي لهو أحوج إليها من العالم الأوربي، فعسى أن تنتفع به جميع شعوبه وتنهض بهم الحميّة الدينيّة إلى خدمة السنة، قلَّ من يريده حتى إن من المقلّدين الجامدين من لا يرى لهذه الكتب فائدة إلا التبرك بها والصلاة على النبي ﷺ عند ذكره وذكرها، ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر[1].

---

(١) راجع: مقدّمة مفتاح كنوز السنّة لسيد محمّد رشيد رضا، الطبعة١ (مصر: عام ١٣٥٣هـ-١٩٢٤م).

وقال عنهم المحقّق عبد العزيز الخولي:

ولا يوجد في الشعوب الإسلاميّة على كثرتها واختلاف أجناسها من وفَّى الحديث قسطه من العناية في هذا العصر مثل إخواننا مسلمي الهند، أولئك الذين وجد بينهم حفّاظ للسنّة، دارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث، حرية في الفهم ونظر في الأسانيد... وفي الهند طائفة الآن كبيرة تهتدي بالسنة في كلّ أمور الدين، ولا تقلد أحدًا من الفقهاء ولا المتكلّمين، وهي طائفة المحدثين[١].

هذا، وقد أخذت هذه الحركة تجذب إليها الراغبين بعلمها:

وأبكر قوة موجهة من أثر أهل الحديث في المجال الدينيّ السعودي، كان قد صنعه هؤلاء العلماء الوهّابيون الذين درسوا في نهاية القرن التاسع عشر على المشايخ الهنود. وأكثرهم رمزيّة هو سعد بن عتيق (١٨٥٠ - ١٩٣٠)، الذي أرسل إلى الهند في العام ١٨٨١ من لدن والده، العالم الوهّابي المشهور، حمد بن عتيق، الذي أقام مراسلات مستمرة مع صديق حسن خان. وسعد الذي أمضى تسع سنوات مع أهل الحديث سيصير في ما بعد شخصية دينية كبيرة في الدولة السعودية الثالثة، وعينه ابن سعود قاضي الرياض وإمام الجامع الكبير في المدينة[٢].

كما وصل تأثير هذه المدرسة مباشرة إلى بلاد الشام بوساطة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وتلميذه محمّد عيد العباسي.

وقبل أن ننتقل للحديث عن تأثير هذه المدرسة لا بدّ من التوقّف أمام أبرز تعاليمها، والمتمثّلة بالأمور الآتية:

١. **التركيز على التوحيد:** وهم يبدؤون عملهم بنشر التوحيد الخالص، وغرسه في

---

(١) مقدّمة مفتاح كنوز السنّة لسيد محمّد رشيد رضا، الطبعة١ (مصر: عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٢٤م)، الصفحتان ١٦٥-١٦٦.

(٢) رول مير، السلفية العالمية، ترجمة محمّد محمود التوبة، (بيروت، الشركة العربيّة للأبحاث والنشر، ٢٠١٤)، الصفحة ٩٦.

قلوب الناس، مع تفصيل أنواع التوحيد الثلاثة ولا سيما توحيد الإلوهيّة، الذي يخطئ فيه كثير من الناس مع إيمانهم بتوحيد الربوبيّة وما يقتضيه من الحاكميّة لله تعالى، ولا يكتفون بإقرار وتطبيق النظام السّياسيّ الإسلاميّ فقط، وإنما أن يكون الله جلّ وعلا هو الحاكم للفرد في تصوره وسلوكه وسائر أموره الحياتيّة بما فيها من تشريع ووضع القوانين. فهم ربطوا بين التوحيد الخالص وهدي الله للإنسان وتحقيق النصر والتمكين وعودة الخلافة.

٢. **رفض التقليد**: رفض أهل الحديث التوجّهات المذهبيّة، وركّزوا على اتباع ما صحّ عن النبيّ ﷺ في ضوء فهم السلف الصالح.

٣. **ضرورة تخليص الإسلام من البدع**: فهم دعوا إلى الالتزام بالسنّة وتجنّب أنواع البدع كلّها.

٤. **التحذير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة**: فإنّ خطورة هذا النوع من الحديث كبيرة على الأمّة، فلا بدّ من التحرّي في الحديث المنسوب إلى النبيّ ﷺ، ولا سيّما فيما يتعلّق بالعقائد والأحكام.

٥. **الجهاد في سبيل الله**: يرى أهل الحديث أنّ الجهاد من أفضل الأعمال، وأنّه ماضٍ إلى يوم القيامة لإعلاء كلمة الله تعالى ودفع الفساد من الأرض.

٦. **تطبيق النظام الشرعيّ**: بالسعي لتأصيله وإقراره في جميع مجالات الحياة سواء كانت الشخصيّة أم الاجتماعيّة أم السياسيّة أم الاقتصاديّة وما إلى ذلك بالطرق الشرعيّة.

٧. **محاربة الفرق المخالفة**: وهم عدّوا هذا الأمر غاية قائمة بذاتها، فوجّهوا حرابهم ضد الشيعة والقاديانيّة والبريلويّة والبابيّة والبهائيّة والعلمانيّة والرأسماليّة والشيوعيّة والاشتراكيّة، وعدّوا جميع الوسائل مشروعة في سبيل هذه الغاية.

ورأى أهل الحديث في الوهّابيّة محاولة قاصرة، وفي هذا المجال عدّ صديق حسن خان:

أنّ محمّد بن عبد الوهّاب أسّس حركته حسب أصول الشيخ ابن تيميّة المتوفى سنة

٧٢٨هـ وتلميذه ابن قيم الجوزيّة المتوفي سنة ٧٥١ هـ، ولكنّه لقلّة اطلاعه لبعض أصول ذينك الشيخين أخطأ في بعض المسائل[1].

فأهل الحديث لم يوافقوا الوهّابيين بكلّ ما ذهبوا إليه، لذلك، نجد نقاط اتفاق تتمثّل بالأمور الآتية:

١. التركيز على مفهوم التوحيد الخالص.

٢. التركيز على ضرورة استقاء الأمور المتعلّقة بالدين من القرآن والسنّة.

٣. ضرورة مقاومة البدع والخرافات السائدة في المجتمع.

٤. التركيز على الجهاد.

٥. تبنّت اتجاه مذهبيّ هو الحنبليّ

واختلفوا في ما بينهم بالنقاط الآتية:

١. الوهابيون ركّزوا على إصلاح الناس في الفروع الدينيّة، ولكنّهم تصالحوا مع السلطة السياسيّة، وعقدوا اتفاقًا على فصل البعد الدينيّ عن البعد السياسيّ. بخلاف أهل الحديث الذين بذلوا أقصى جهودهم في أمور السياسة، واشتركوا في أنشطة سياسيّة للحفاظ على أمور الدين وحقوق المسلمين بحسب تصورهم.

٢. رفض الوهّابيون مفهوم الهجرة، بينما ركّز أهل الحديث عليه، ودعوا المسلمين إلى هجرة ديار الكفر[2].

٣. رفضت التقليد والاتجاهات المذهبيّة.

ولعلّ أبرز شخصيّة تأثّرت بمدرسة أهل الحديث هي ناصر الدين الألباني، الذي استلهم

---

(١) عطا أور رحمن، ومزيان إبراهيم، وإبراهيم أبو بكر، الاتجاه السلفيّ من الاتجاهات المذهبيّة في شبه القارة الهنديّة، مجلة إسلاميات، العدد ٣٥، ٢٠١٣، الصفحتان ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) عطا أور رحمن، ومزيان إبراهيم، وإبراهيم أبو بكر، الاتجاه السلفيّ من الاتجاهات المذهبيّة في شبه القارة الهنديّة، مجلة إسلاميات، العدد ٣٥، ٢٠١٣.

التجربة الهنديّة بتفاصيلها الدقيقة، فقد عمل بمقتضى تعاليمها على نبذ المذاهب الإسلاميّة عند أهل السنّة، وعدّها مخالفة للدين الإسلاميّ بإعمال قواعد لا تتفق مع البنية النصّيّة. وإن كان الألباني يلتقي مع الوهّابية بجوانب متعدّدة، ولكنّه كأهل الحديث جهل نقطة ضعف الوهّابيّة تتمثّل بانتمائها المذهبيّ لابن حنبل، أما في ما يخصه فلا بدّ من إنتاج الفتوى بوساطة النصّ والحديث بدون أي وساطة أخرى؛ لذلك توجّه إلى موقعة الحديث الذي يقرؤه بطريقة حرفيّة جدًّا في قلب العمليّة الفقهيّة، فالألباني كان يرى:

أنّ محمّد بن عبد الوهاب كان سلفيًّا في ما ذهب إليه في مسائل العقيدة، لكنّه لم يكن كذلك في مجال الفقه. إضافة إلى ذلك، لم يكن ابن عبد الوهاب، في نظر الألباني، عارفًا جيدًا بالحديث بدليل أنّ إحدى رسائله تحتوي على حديث اشتهر بأنّه حديث ضعيف[1].

وبعد انتقال الألباني إلى السعوديّة، عمل على تعميم نظرته، وبدأ بتصويب ما كان يراه خاطئًا في تعاليم الوهّابيّة، الأمر الذي أثار عليه علماءها، فأوقف عن التعليم، ولكن هذا لم يمنع من نمو هذا التيّار داخل الفكر الوهّابي وخارجه، وميّز نفسه باسم تيار أهل الحديث.

وشهد التيّار صعودًا كبيرًا ابتداءً منذ سبعينات القرن العشرين، وسرعان ما انقسموا إلى تيارين حول مسألة العلاقة مع السلطة السياسيّة. ارتكز الأوّل على الرفض القاطع لشرعيّة الدولة ومؤسّساتها، وقد وجد تفسيره في تيار الرفض الممثّل بالعناصر المتشدّدة الموجودة داخل(الجماعة السلفيّة المحتسبة)، وهي الجماعة التي قادها جهيمان العتيبي، التي كانت مسؤولة عن اقتحام المسجد الحرام في مكّة المكرّمة عام ١٩٧٩[2]، والتي تحوّلت أدبياتها إلى جزء من أدبيات السلفيّة الجهاديّة. وظهر الموقف الثاني الذي يتميّز بدعم غير مشروط لأفعال السلطة غداة نهاية حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ في تيار السلفيّة الجاميّة الذي أسّسه الشيخ محمّد أمان الجامي.

---

(١) أنظر: http://www.albrhan.org/fetan/b1.ram

(٢) Thomas Hegghammer and Stéphane Lacroix, “Rejectionist Islamism in Saudi Arabia: The Story of Juhayman al-‘Utaybi Revisited”, the International Journal of Middle East Studies 39, no. 1: 97-116.

والبعض قد يعترض على إدراج أهل الحديث بين المرجعيات الفكرية للسلفية التكفيرية المعاصرة، ويعدّ ناصر الدين الألباني غير عامل للترويج لرؤية سياسية معينة، بل إنّ اصطدامه مع الإخوان نبع من هذه النقطة بالتحديد، عندما مال إلى رفض جنوحهم السياسيّ، ولكن هذه القراءة تعاني من خلل واضح، فالألباني انتقد نظام الأوليات التي درج الإخوان عليه وتغليبهم السياسة على الدعوة والعلم الشرعي والعقيدة، وكان يرى أنّه ينبغي أن تعكس الأولويات، فهو لم يكن يرى الظروف الموضوعية ملائمة لخوض غمار الحراك السياسي، ورأى: (من السياسة ترك السياسة)[1]، فالدولة الإسلامية واجبة: «وكلّ المسلمين يتفقون على ضرورة إقامة دولة إسلامية، لكنّهم يختلفون في المنهج لتحقيق - بالنسبة لي فقط- انتماء المسلمين إلى عقيد التوحيد يمكنه أن يؤدي إلى إخفاء مبررات التنازع؛ بحيث يتجهون نحو هدفهم صفًا واحدًا »[2]، إذ كان يؤكد على الجانب السياسي، لكن بمرحلية تؤسس على إعادة صياغة شخصية المسلم ما أسماه (التصفية والتربية)، التي تقوم على أساس تصفية الإسلام من كلّ ما هو دخيل فيه، أكان على مستوى التفسير القرآني أم التدقيق بالأحاديث، فضلاً عن المصطلحات والمفاهيم الشرعية.

علاوة على أنّه عندما نتكلم على أهل الحديث، لا نتناول الظاهرة من جانب واحد، ونهمل ما تبقى، وقد لا يكون الألباني قد اهتم بالسياسة - وهذا كما رأينا غير صحيح - ولكن أصل هذه الدعوة قد قام لأسباب سياسية واضحة لا يمكن اهمالها، وهي قد أثرت في أكثر من موضع، إن كان على مستوى المرجعيات الفكرية أو الممارسة العملية، ومن الموضوعات التي نتكلم عنها:

١- تكفير الفرق المخالفة.

٢- هجرة المجتمعات الجاهلية.

---

(١) إبراهيم محمّد العلي، محمّد ناصر الدين الألباني: محدّث العصر وناصر السنة (دمشق: دار القلعة، ٢٠٠١)، الصفحة ٣١.

(٢) محمّد حجوب، علماء ومفكّرون عرفتهم (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٦)، الصفحة ٣٠٢.

٣- رفض التقليد المذهبي.

٤- أولوية السياسي في فكرها.

وهذا التراث سيعود وينتشر في أوساط التيارات التكفيريّة، ولا سيّما في بعده الفقهيّ، إذ يلحظ ميل التيّار التكفيريّ للعودة إلى النصوص من دون مرجعيات إسلاميّة معروفة.

٠٣ الإسلام الحركيّ:

بعد سقوط الخلافة الإسلاميّة، وانتشار الأفكار الليبراليّة الداعية إلى الفصل بين الدين والسياسة، بدأت تظهر توجّهات حركيّة في السياق الإسلاميّ، تدعو إلى تبنّي الإسلام بوصفه منظومة شاملة للحياة، وفي هذا الإطار شهد الفكر الإسلاميّ في قطاعيه العربيّ والهنديّ حراكًا على هذا المستوى، إذ خرج أبو الأعلى المودودي بنظريته عن الحاكميّة، التي جعلها الأساس لنظام الإسلام السياسيّ، في هذه الفكرة يؤسّس المودودي المجتمع البشريّ على أساس حاكميّة الله، ورفض الحاكميّة الشعبيّة، وكان يرى أنّ كلّ محاولة إنسانيّة للقيام بتنظيم أمور البشر على أسس إنسانيّة محضة، تؤدّي إلى قيام نظام غير متوازن يراعي مصلحة فئة على حساب الفئات الأخرى، ويقول المودودي:

وإذا نظرت إلى المجتمع البشريّ من هذه الوجهة، استيقنت نفسك أنَّ منبع الشرور والفساد الحقيقيّ، إنّما هو ألوهيّة الناس على الناس، إمّا مباشرة وإما بواسطة، وهذه هي النظريّة المشؤومة ... هي أصل كلّ المصائب والدمار، وهي أصل جميع ما مُني به البشر اليوم من البؤس والشقاء، وهذا هو الداء الذي أفسد أخلاق البشر وروحانيتهم وقواهم العلميّة والفكريّة...، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ صلاح المجتمع البشريّ إنّما هو بعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل... هذه العقيدة هي روح ذلك النظام الذي أسّس بنيانه الأنبياء ﷺ، ومناط أمره وقطبه الذي تدور رحاه حوله، وهذا هو الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظريّة السياسيّة في الإسلام، وهي أن تنزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين، ولا يؤذن لأحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه، أو ليسنّ قانونًا لهم

فينقادوا له ويتبعوه، فإنّ ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشاركه فيه أحد غيره»[١].

فالإسلام - كما يرى - قدم نموذجًا متكاملًا، لم يتمّ ترتيبه وتبويبه بوضوح، فبقيت المسائل متداخلة، ولا سيما على صعيدي الدستور والقانون، مع العلم بأن المصادر المعرفيّة الإسلاميّة (القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والإجماع، والاجتهاد)[٢]، أكّدت وجود هذا الفصل، من هنا عمل المودودي على تحديد مسائل هذا الدستور، وطرحها على شكل أسئلة، أخذت الشكل الآتي:

١. تحديد لمن الحكم؟ الله، الملك، الطبقة، الأمّة؟

٢. ما هي حدود تصرّف الدولة؟ متى تكون طاعتها واجبة؟ وما هي حدود الطاعة؟

٣. ما هي حدود سلطات الدول التنفيذيّة والقضائيّة والتشريعيّة، وما هي الوظائف التي تعهد إلى كلّ ركن من الأركان وضمن أيّ حدود؟ وما هي العلاقة بين هذه الأركان؟

٤. ما هي الغاية التي تقوم لها الدولة؟ ولأيّ غرض تعمل؟ وما هي مبادئها الأساسيّة؟

٥. كيف تؤلّف الحكومة لتسيير نظام الدولة؟

٦. ما هي الصفات والمؤهلات التي يتحلّى فيها القائمون بأمر الحكومة، ومن هم المهيؤون لتسيير شؤونها؟

٧. ما هي أسس المواطنيّة، وبأيّ طريق ينالها الفرد في كيان الدولة؟

٨. ما هي حقوق المواطنيّة في الدولة؟

٩. ما هي حقوق الدولة على الأهالي؟»[٣]

ثمّ بدأ الإجابة على الأسئلة على التوالي، فعدّ الحاكميّة - كما أطلقت في الفكر الغربيّ - لا تنطبق إلّا على الله عزّ وجلّ، لأنّه الغالب المطلق[٤] الذي لا يسأل عن أعماله[١]، المقتدر العزيز[٢]،

---

(١) أبو الأعلى المودودى، نظريّة الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور (بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٩٦٩)، من الصفحة ٢٣ إلى الصفحة ٢٧.

(٢) أبو الأعلى المودودي، نظريّة الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، مصدر سابق، من الصفحة ٥ - ١٥.

(٣) أبو الأعلى المودودي، نظريّة الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، من الصفحة ١٦ - ١٨.

(٤) قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، سورة هود، الآية ١٠٧.

الذي لا تحدّ سلطته قوة من القوى[٣]، والمنزّه عن الخطأ[٤]، وهو الذي يبيّن للناس حقوقهم، وينفذ حكمهم فيهم من دون ظلم أو فساد نابع من الطبيعة الإنسانيّة، ويختم حديثه في هذا الموضع فيقول بعد استشهاده بالآية الكريمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٥]: «ويتضح وضوحًا تامًّا من هذه الآية أنّ الإسلام والإيمان هما عبارة عن التسليم بحاكميّة الله القانونيّة والإذعان لها، وما الجحود بها إلّا كفر صريح»[٦]. وإذا كانت الحاكميّة تعمل في المجال الإنسانيّ كان الأنبياء والرسل ﷺ هم الممثّلين لها، لذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[٧]. وبعد الأنبياء يصبح الحق في النيابة عامًا، يشمل كلّ فرد من أفراد المجتمع الإسلاميّ شرط أن يسلّموا بحاكميّة الله.

وهذه الفكرة ستجد صداها في مصر في وسط الإخوان المسلمين، ولا سيما عند سيد قطب منذ منتصف الخمسينيات، الذي اعتقل عام ١٩٥٤ لعشر سنين ثمّ أعدم عام ١٩٦٦، فقد تبنّى قطب هذه المقولة، وطبقها على الواقع المصريّ، وصار كتابه (معالم في الطريق) قبلة الإسلام الحركيّ.

في هذا الكتاب وضع قطب نظريته حول الجاهليّة التي جاء الإسلام لينقذ البشريّة منها، فقسّم الأنظمة الاجتماعيّة بناءً على هذه النظريّة على نوعين: النظام الإسلاميّ، والنظام الجاهليّ، فقال:

نحن اليوم في جاهليّة كالجاهليّة التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كلّ ما حولنا جاهليّة

---

(١) قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، سورة الأنبياء، الآية٢٣.
(٢) قال تعالى: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، سورة المؤمنون، الآية٨٨.
(٣) قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، سورة المؤمنون، الآية٨٨.
(٤) قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾، سورة الحشر، الآية٢٣.
(٥) المائدة: ٤٤.
(٦) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، مصدر سابق، الصفحة ٢٣.
(٧) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

... تصورات الناس وعقائدهم، وعاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير ممّا نحسبه ثقافة إسلاميّة، ومراجع إسلاميّة، وفلسفة إسلاميّة وتفكيرًا إسلاميًّا... هو كذلك من صنع هذه الجاهليّة[1].

فقطب يرى أنّ أصل إسلاميّة المجتمع، يكون من خلال خضوعه التام لمبدأ التوحيد، فهو يرى أنّ مقتضى: «لا إله إلّا الله كما يدركها العربيّ العارف بمدلولات لغته لا حاكميّة إلّا لله، ولا شريعة إلّا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد، لأنّ السلطان كلّه لله»[2]، وكلّ مخالف لهذا الأمر هو جاهليّ، ويقول:

فكلّ مجتمع لا يخلص العبادة لله وحده ... متمثلة هذه العبوديّة في التصور الاعتقاديّ وفي الشعائر التعبّديّة ... وفي الشرائع القانونيّة ... وبهذا التعريف الموضوعيّ تدخل في إطار المجتمع الجاهليّ جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلًا[3].

فسيّد قطب نظر إلى المجتمع الإنسانيّ، ولا سيّما الإسلاميّ بوصفه مجتمعًا فاسدًا، وهو يوازي بفساده المجتمع الذي ساد في جزيرة العرب قبل الإسلام، عندما خضع الناس بموجبه للطواغيت وابتعدوا عن الله عزّ وجلّ. وعلى الرغم من تأثّر سيد قطب بفكر المودودي في قضية الجاهليّة، إلّا أنّه كان أكثر جذريّة منه، لأنّه عمّم مبدأ التجهيل، وفتح الباب واسعًا أمام تكفير المجتمعات، وهذا ما ستظهر معالمه في العالم الإسلاميّ، فبعد وصول حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ إلى السلطة عام ١٩٦٤ بدأ الإخوان حراكًا سياسيًّا سُمّي (عصيان حماة) قاده (مروان حديد) و(سعيد حوى) و(محمّد الحامد) الواقعين تحت تأثير كتابات (سيد قطب) و(أبي الأعلى المودودي)، إذ سرعان ما أدّى قرار وزير التربية في تلك المدة (شبلي العيسمي) بنقل عدد من أساتذة التعليم الديني في حماة إلى خارجها بانتشار موجة من العنف والاحتجاجات منها، وأدّت إلى فرز اجتماعيّ حادّ على أسس طائفيّة، قُتِلَ فيه عددٌ كبيرٌ من

---

(١) سيّد قطب، معالم في الطريق، الطبعة ١٠(بيروت- القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٤)، الصفحتان ٩١و٩٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحتان ٢٤ و٢٥.

(٣) المصدر السابق، الصفحتان ٨٨-٨٩.

المواطنين، وقُصِف مسجد السلطان.

وما يهمّ من هذه المقاربة هو شخص (مروان حديد) (١٩٣٤ - ١٩٧٥)، الذي سيشكّل نقطة مفصليّة في ولادة الطليعة المقاتلة، فهذا الشاب الذي التحق عام ١٩٥٦ بجامعة عين شمس قسم الهندسة الزراعيّة، تعرّف هناك إلى (سيد قطب) وعندما عاد إلى سورية، عَمِل في صفوف الإخوان، وتفرّغ لمقاومة الأفكار اليساريّة السائدة في زمانه، ونشط بعقد الندوات في بيته ومسجده الصغير في حي البارودية، فضلاً عن عقد المحاضرات والدروس في المساجد للتعبئة الفِكريّة والسياسيّة ضد مؤامرة الأقلّيات الدينيّة على المجتمع السوري وذلك بوجه (خبايا النوايا للبعثيين)[1]، وعندما حصلت أحداث حماة عام ١٩٦٤م ترسّخت لديه القناعة بضرورة العمل العسكريّ بوجه السلطة، فبدأ بتأسيس (كتائب محمّد) التي تميّزت بروحها القطبيّة وحضور قوي لفكرة الحاكميّة لديها، ويظهر سعيد حوى المنظِّر الفكريّ لهذه التجربة في كتابه (هذه تجربتي) لدى عرضه لمجريات المحاكمة التي ترأسّها مصطفى طلاس:

فقد قال رئيس المحكمة مخاطبًا (مروان حديد) في بعض الجلسات:

- أنت عميل، أنت مأجور.

- أنا مأجور من الله.

- حكمت عليك المحكمة بالإعدام شنقًا حتى الموت.

- والله يا مسكين لو عرفت أن بيدك الموت والحياة لعبدتك من دون الله.

فضجّت الصالة بالتصفيق الحاد[2].

بعد أحداث حماة ازداد (مروان حديد) إصرارًا على مواقفه ضد السلطة، فغادر سورية إلى الأردن، وهناك بدأ التدرّب بمخيمات حركة (فتح)، حيث التقى بـ (عبد الله عزّام)[3] وأسّسا (الطليعة المقاتلة لحزب الله) التي استمرّت حتى (أيلول الأسود ١٩٧٠)، عاد بعدها إلى

(١) عبد الرحمن الحاج، من الطليعة المقاتلة إلى قاعدة الجهاد العالميّ، ضمن كتاب: الإخوان المسلمون في سوريا ممانعة الطائفة وعنف الحركة، الطبعة١ (دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ٢٠١١)، الصفحة ٢٩٧.

(٢) نقلًا عن: عبد الرحمن الحاج، من الطليعة المقاتلة إلى قاعدة الجهاد العالميّ، مصدر سابق، الصفحة ٢٩٩.

(٣) من أهمّ الشخصيات المؤسّسة لتنظيم القاعدة.

دمشق؛ إذ نشط وأسّس (الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين)، وأفاد من تصاعد الاحتجاجات على دستور عام ١٩٧٣، فبدأ بتوسيع قاعدته الجماهيريّة وتصادم مع الإخوان؛ بسبب ميل جزء كبير منها نحوه، إلى أن أُلقي القبض عليه في ٣٠- ٦-١٩٧٥ في بيته بمنطقة العدوي بدمشق بعد معركة عسكريّة، تُوفي بعد ذلك نتيجة إضرابه عن الطعام.

فجّر موت (حديد) الأحداث الأمنيّة، التي أخذت طابعًا طائفيًّا، وانجرّ الإخوان المسلمين إلى جانبهم، ووصل إلى ذروته من خلال البيان الذي حمل عنوان: (الثورة الإسلاميّة في سوريا ومنهاجها) بتاريخ ٩-١١-١٩٨٠، الذي «يتضمّن تحوّلًا باتجاه فكرة الدولة الإسلاميّة التي لا مكان فيها للأقلّيات الدينيّة إلّا باعتبارهم رعايا وحسب»[1]، ووصلت الأمور إلى ذروتها في أحداث حماة عام ١٩٨٢.

يوصلنا الكلام السابق إلى أنّ التكفيريّة اتكأت على تراث (مروان حديد) الذي تأثّر بسيد قطب، ويمكن القول بأنّ تجربة الطليعة المقاتلة وفّرت تربة خصبة لولادة السلفيّة الجهاديّة المعاصرة. ويذهب عبد الباري عطوان إلى عدّ: (مروان حديد) «الشخصيّة الثانية بعد سيد قطب التي ساهمت في نشأة التيار الجهاديّ، فضلاً عن أنّ الجهاديين الذين هاجروا إلى ساحات الجهاد نشأ معظمهم في كنف الطليعة المقاتلة»[2]. فمروان حديد ترك أثرًا كبيرًا بطرحه وعمله على إنشاء الفئة الطليعيّة التي تنطلق من المجتمع الجاهليّ وتعمل على تغييره، وهذه الفئة تتميّز بقدرتها على التكيّف مع العزلة النفسيّة والعمليّة بحث لا تتأثّر بما يحيط بها، ممّا يجعلها قادرة على اختراق المجتمع وإجراء التغييرات المطلوبة فيه، بإدخال ثقافة الوعي الحركيّ كأصل جديد في تمييز أفكار الحركات الإسلاميّة، وهو ما سمح بتحويل الاتجاه الدينيّ إلى منحنى أيديولوجيّ.

فضلاً عن أنّ (مروان حديد) انشق عن الإخوان (محمّد سرور بن نايف زين العابدين) عام ١٩٦٩، وهاجر إلى السعوديّة، حيث عمل مدرّسًا للرياضيّات، وهناك ظهر تيّاره

---

(١) عبد الرحمن الحاج، من الطليعة المقاتلة إلى قاعدة الجهاد العالمي، الصفحة ٣٢١.
(٢) عبد الباري عطوان، القاعدة والتنظيم السرّيّ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٩)، الصفحة ٢٢٦.

الفكريّ الذي يمزج بين السلفيّة التقليديّة والوهّابيّة وسيّد قطب، وفي هذا المجال يقول إبراهيم السكران:

السروريّة هي منهج يختلف عن المنهج الإخوانيّ والسلفيّ التقليديّ، تقوم على المزج بين شخصيتين إسلاميتين هامّتين هما: ابن تيميّة وسيد قطب، أخذوا من ابن تيميّة موقفه السلفيّ الصارم من المخالفين للسنّة من الفرق والمذاهب الأخرى مثل الشيعة، وبالتالي فهم استمدّوا من ابن تيميّة المضمون العقائديّ، وأمّا سيد قطب فأخذوا منه ثوريّته، وآمنوا إيمانًا تامًّا بمقولة الحاكميّة لديه(١).

هذا وارتكزت عملية التوفيق والتكيّف بين السلفيّة والقطبيّة على ترسيخ (عقيدة الولاء والبراء) وتشريعها بعد إعادة إنتاجها وتشكيلها، فحلّت محلّ فكرة الحاكميّة التي اتكأ عليها التيّار القطبيّ الأصوليّ، إذ إنّ فكرة الحاكميّة بالنسبة لهم ملوّثة بشبهة الخوارج. فالسروريّة استبدلت مصطلح الحاكميّة بالولاء والبراء مع إبقاء المحتوى العام للمصطلح الأوّل، فقد أصبح الولاء كلّ الولاء للإسلام، والبراء من المشركين وغير المسلمين.

وهذه الفكرة تغلغلت في أوساط الدعاة في السعوديّة، ووجدت طريقًا في المناهج الدراسيّة، ممّا أدى إلى تحوّلات عميقة في السلفيّة الوهّابية، سمحت لبروز جيل من التكفيريين من الشباب كانوا أعمدة التكفيريّة والفكر القاعديّ، ولم يتمّ التنبّه إلى هذا الأمر إلّا بعد أن ساد تكفير حتّى للعائلة الحاكمة. فالمزاوجة التي حصلت بين الوهّابية والقطبيّة، أدّت إلى شحن الموقف من الآخر مسلمًا أو غير مسلم بمضامين عقيديّة، فضلًا عن المحتوى السياسيّ.

فالسروريّة تسرّبت إلى السلفيّة الوهّابيّة وبدّلت بمحتواها، وأنشأت أكثر من جيل يؤمن بأفكارها، وهي وإن تعرّضت للقمع بعد ١٩٩٠ في السعوديّة، ولكنّها بقيت فاعلة بحكم تغلغلها في المؤسّسات السعوديّة ولا سيما المؤسّسة الدينيّة، وهذا ما يجعل هذه الدولة مصدّرة

---

(١) أنظر الرابط: http://forum.qalamoun.com

للتكفيريين، الذين وإن لم ترسلهم الدولة مباشرة، ولكنّهم يستطيعون الحركة بسهولة نتيجة الاختراقات التي قاموا بها للمجتمع.

وما حصل في سوريا تمدّد إلى مصر فبدأت تظهر الاتجاهات التكفيريّة في المجتمع، وسعت إلى إسقاط الدولة الوطنيّة، وبدأت المعالم الأولى عام ١٩٧٣، وتلاحقت بعد ووصلت إلى ذروتها باغتيال أنوار السادات.

خلاصة تقييميّة

يؤشر البناء المرجعيّ لهذه الحركات التكفيريّة إلى جملة من الأمور لها علاقة بأزمة الإنسان المسلم المعاصر، فهو عندما لجأ إليها، عمل بشكل واعٍ أو غير واعٍ على إعادة ترميم الذات وتكوينها؛ نتيجة التبخيس الذي يتعرّض له في وجوده. فالحركات التكفيريّة منذ بدأت بالظهور في العصور الحديثة، كانت ردّة فعل إزاء الواقع الخارجيّ والتحدّيات التي أثارتها الحداثة في وجهها ومحاولة تهميشها في الهند، وإسقاط الدولة العثمانيّة، والفصل بين الدين والدولة. هذه الأمور التي لم تستطع تحويلها رمزيًّا لكي تتعايش معها، أي لم تستطع أن تقوم بفعل اجتهاديّ تأويليّ لها، فسعت إلى بترها وعدّها لا تتلاءم مع الرمز والمخيال الذي تعيشه فسعت إلى تحطيمه، وتحدّثت عن العودة إلى الأصول بشكل هذيانيّ، بوصفه رجوعًا إلى زمن البدء لعيش تجربة الوحيّ بكلّ تمثّلاتها، وهذا الأمر ليس جديدًا في السياق الإنسانيّ، فالكائن المأزوم يعود دائمًا إلى ماضيه ليعيشه من أجل الهروب من واقعه، وهو يختار الأزمنة والأحداث الأكثر قربًا له نفسيًّا.

والحضور المقوليّ للنصّ أسقطته على الوقائع الحياتيّة التي تعيش في خضّمها، فجرّدته من كلّ بعد تفسيريّ وعطّلت آليات فهمه، وحوّلته إلى حضور جسديّ وحسّيّ، فقامت بنفي الاستعارات والتأويلات، فكان حضورها نبويًّا، على اعتبار أنّ حضور الوحي في الذات حضورًا شعوريًّا، وهي عندما ألقت الحكم على الواقعة أعادت صياغتها بمنطق نبويّ بكلّ ما للكلمة من معنى، وهذا ما جعلها تؤمن بأنّها الأمينة على الوحيّ الناطقة باسمه، المتكلّمة

بلسانه. من هنا أصبحت مالكة للحقيقة، بوساطة القبض على الرمز الدينيّ المدعّم بمخيال يتألّف من صور وقوّة اجتماعيّة ضخمة مهمّتها إعادة تنشيط الصورة الموجودة لدى الإنسان بصفتها حقائق رائعة وقيمًا لا تناقش، فالرمز المدعّم بمخيالها تحوّل إلى هويّة ذاتيّة لديها، وهذه الهويّة في مبتناها العام جسمانيّة مجسّدة من خلال حضور التكفيريّ في العالم، مما يعني أنّها لا تستطيع أن ترى العالم إلّا من خلال ذاتها بما هي حضور في العالم، لذلك رفضت كلّ ما لا يتلاءم معها ونفته، وفي هذا السياق لم يعد بالإمكان تصور الدين بوصفها منظومة متكاملة تتعدّى الواقع الطبيعيّ المعيش إلى جوانب لا يمكن تبريرها والحديث عنها إلّا من خلال تأويلها والتفكّر بمحتواها.

لذلك، هي في اللجوء إلى مرجعيات دينيّة والمبالغة بالحديث عن السلف، كانت تظهر امتثالًا بالنص، ولكن السياقات الحقيقيّة، كانت من دون شك بعيدة عن هذا، فالأصل والمؤسّس في حديثهم هو الذات، بل يمكن عدّ هذه المرجعيات أنها قد عزّزت عند التكفيريّ عنصر الذاتيّة وبشكل متعالٍ، وجعلته يرمي الآخر خارج سياقات الذات، وعدّت مارقًا ومنحرفًا وعليها تقع مسؤولية تصويب اتجاهه ودفعه إلى الإيمان النقيّ والأصيل الذي يتمثّل بهم بوصفهم حاملين للوحيّ على حقيقته، مع العلم أنّ كلّ ما يتكلّمون به أو يعيشونه لا يتعدّى كونه مخيالًا ذاتيًّا مرضيًّا في بعض الأحيان؛ لأنّ ما يقوم بحقيقته هو استخدام المرجعيات بوصفها وقائع مبرّرة أملتها عليه عناصر ذاتيّة رآها، وتصوّر أنّها تعبّر عن الحقيقة. وإذا عدنا إلى صور بعض الحركات التكفيريّة، نلحظ أنّها بدأت باكرًا بالحديث عن ضرورة القيام بعزلة نفسيّة عن المجتمع، ثمّ طورت هذه المقولة في وقت لاحق للحديث عن العزلة الواقعيّة وتكفير المجتمع والاعتزال عنه.

فالمرجعيات التي عادوا إليها، لم تكن إلّا استجابة لمتطلّبات الذات والأزمة التي تعيشها، وهي تعبر عن اضطراب كبير في العالم الذي تعيش فيه، فعملت على التدخّل في الصور الأخرى التي نمت في المجتمع الإسلاميّ، وجعلتها تراه صوراً بحاجة إلى التغيير لإنتاج صورة تعكس شكلًا موحّدًا متكاملًا، لا ينقصه شيء، وسعادة الإنسان لن تتمّ إلّا من خلال

هذه التماميّة الباتة، وبمعزل عن هذا الأمر لا يستطيع الإنسان أن يشعر بالبهجة والانشراح. فالرمز الذي فقد القدرة التفسيريّة أو التأويليّة للواقع، لم يعد يستطيع أن يبدع تصورات جديدة للعالم، فهو يعيش حالات طفوليّة تدرك البعد المادّيّ والجسديّ، ولكنّه يتصور أنّ العالم لا بدّ من أن يمثل بين يديها وعلى الطريقة التي تراه فيها، فهي بمقوّماتها لا تستطيع أن تنظر إلى العالم باتساعه وتنوعه، فبقيت تدور حول نفسها، لا ترى ما يتعدّاها.

فالتكفيريّ بحقيقة الأمر قدّس الجسد الخاص، فأصبح متعاليًا، ونظّم العالم على شكل مقولات اسميّة يمكن تعريفها واستعراضها وترميزها والحديث عنها، وكلّ ما لا ينتمي إلى سياقه الخاص يمكن بتّه أو فصله بأيّ شكل من الأشكال، وهو في ذلك وإن كان ردة فعل على سياق الحضارة الغربيّة وعولميتها إلّا أنّه لا يخرج عن سياقات هذه الحضارة نفسها بما هي مكوّن يقوم على المادّة بوصفه عنصراً مؤسّساً وإن كانت الأولى وعت ما تقوم، بقيت الثانية لا واعية في حركتها.

التكفير السلوكيّ

الجذور والمنطلقات

التكفير السلوكيّ
الجذور والمنطلقات

د. السيد نذير الحسني*

المقدمة

ظهرت عمليات التكفير السلوكي على نحو تصرفات شخصية، ذات جذور جاهلية، ومنطلقات دنيوية مادّية، منذ زمن النبي الأكرم ﷺ، ولكن بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى، صار هذا النوع من التكفير وسيلة لتحقيق أهداف وغايات منظمة، للتسلط والتجبر على الأمة؛ ليأخذ بعد ذلك شكلاً ثقافياً محدداً ضمن مدارس معينة، ساهمت أطراف متعددة وجماعات متنوعة في تأصيله، من خلال نصوص مصنوعة، وتأويلات تخدم طبقة معينة تريد نهب ثروات العباد والبلاد، فاستغلال استكبار هذا الموروث المُصطنع؛ ليربي لنا جيلاً من المسلمين فقد هويته الإسلامية، وأضاع بوصلته المحمدية الأصيلة لتتلاقفه حركات التكفير المنظمة والمدعومة من لدن جهات ظلامية، من أجل تمزيق الأمة، وتحطيم جدار المقاومة الذي بنته همم الرجال، والذي أفشل كل الخطط الحربية والمؤامرات الدولية؛ ليجربوا آخر محاولة لهم في تدمير هذه المقاومة من خلال هؤلاء، ولهذا لم نجد حركة تكفيرية مارست أعمالها على المستكبر والمحتل، وإنما تخصصت في تهديم الإسلام من داخله، فقصدت المسلمين قبل غيرهم، فقتلت، وقطعت الرؤوس، وهدمت، وسلبت، ونهبت، كل ذلك لتفتت هذه الأمة

---

* رئيس قسم القرآن والحديث في جامعة آل البيت عليهم السلام، وعضو الهيئة العلمية في جامعة المصطفى العالمية في مدينة قم المقدسة.

إلى دويلات متناحرة متشاجرة فيما بينها؛ ليصفو الجو للاستكبار العالمي من جديد، ويسيطر على العباد والبلاد، ولكن هذه المرة ليس من خلال الجيوش والأساطيل، وإنما من خلال حركات توصف بالإسلامية صارت منبعاً للإرهاب، فالتكفير السلوكي يحاول زلزلة أقدام المقاومة والدول التي وقفت أمام الاستكبار من خلال قطعان تدعمها مؤسسات، ويقف وراءها شيوخ فتنة كفّروا أهل الإسلام وأخرجوهم؛ مما هم فيه من شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وسار خلف هؤلاء من أعار حواسه إلى غيره، ففكر في عقولهم وسمع في آذانهم ونظر في عيونهم .

وسنحاول إيقاد شمعة لتسليط الضوء على جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته الذي حل بالأمة الإسلامية، بمختلف أبعاده وأنواعه، الذي أدى إلى سفك دماء المسلمين وتشريدهم وتهديم دورهم، وسبي نسائهم، وقتل أطفالهم، علماً أن المسلمين لا يتعرضون إلى هجمة من لدن أعدائهم؛ بسبب وجود مصطلح الكفر في قوانينهم وتشريعاتهم، وإنما بسبب وجود التكفير؛ وخصوصاً التكفير السلوكي؛ لأن الكفر بما يحمل من دلالات قرآنية وروائية، بل حتى فقهية لم يعانِ منه العالم في يوم من الأيام، ولا سيّما أن القرآن الكريم قد أطر ذلك في آياته فمن جهة تحدث عن كفر بعض الطوائف كفراً فكرياً اعتقادياً فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾(1)،﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(2)، فالتكفير الفكري لهذه الطوائف التي لم ترفض وجود الله تعالى، وإنما اختلفت في كيفية وجوده، وقد ذكرها الحق تعالى في مواقف وموارد أخرى، إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(3)، فهذه الآية تعطي صفة الإيمان لهذه الفرق غير المعاندة التي لم تتوصل إلى حقيقة ما جاء به محمد ﷺ، ناهيك عن وجود هذه الفرق في

---

(1) سورة المائدة : الآية رقم : ٧٣
(2) سورة المائدة : الآية رقم : ١٧
(3) سورة البقرة : الآية رقم : ٦٢

دولته، تتحرك وتتعامل وتتحاور مع المسلمين بل حتى مع قائدهم في مسجده الذي يقود العالم منه، فقال تعالى حاكياً ذلك: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]، فقائد الدولة الإسلامية بعد أن استتب له الأمر جاءه نصارى نجران، وهم كفرة فكرياً ليحاوروه في مسجده، بل إن بعض المرويات تؤكد ممارسة طقوسهم[2] في المكان نفسه، وبعد انتهاء المحاورة لم يقتنع الطرف المقابل للرسول وهو كافر بمصطلح قرآنه بما جاء به، فكانت الدعوة إلى المباهلة، وحدث ما حدث في تلك الواقعة التي خرجت لهم فيها وجوه لو دعت الله على إزالة جبل لأزاله من مكانه، فهؤلاء الكفار في المصطلح القرآني لم يقتلهم الرسول ﷺ، ولم يسجنهم أو يسبِ نساءهم، ولكن في دولة المسلمين تعرضت تلك الوجوه، التي إذا دعت الله إلى إزالة جبل، وكذلك أتباعهم في التكفير السلوكي، الذين كفروا علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن تابعه وشايعه، وما نريد قوله: هو أن بعض المدارس الإسلامية قتلت المسلمين بسلاح التكفير، في حين لم يقتل النبي ﷺ أحداً بسلاح الكفر وحده ما لم يكن محارباً له .

ومن هنا نريد تسليط الضوء على التكفير السلوكي وجذوره ومنطلقاته، قديماً وحاضراً من خلال هذا البحث، ولكن بعد بيان تعريف واضح ومحدد لهذا العنوان، مع إيضاح الفرضية المراد تحقيقها، لندخل بنحوٍ علمي إلى وثائقه العلمية وصولاً إلى خلاصة ما توصلنا له من الجذور والمنطلقات لهذه التكفير الذي مارسته تلك الجماعات المنحرفة والمتطرفة .

تعريف التكفير السلوكي:

وهو الحكم على صاحب سلوكٍ معينٍ بالكفر، حتى لو تـأوّل ذلك السلوك، وادّعى خلاف ما يُريد منه مكفروه، منطلقين في ذلك التكفير من منطلقات متعددة جاهلية تارةً أو

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي:ج ٣: ص ٢١٥، كتاب الصلاة الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي

أطماع مادية أخرى، أو للحفاظ على كرسي الحكم ثالثاً، أو لتشتيت الأمة ونهب خيراتها وثرواتها من لدن الاستكبار العالمي، وحكام الجور والظلام رابعاً .

فرضية البحث: توجد عمليات تكفير سلوكي بدأت منذ زمن الرسالة من خلال تصرفات شخصية يعود سببها إلى رواسب جاهلية وأطماع مادية، ثم تطورت إلى حالات منظمة، وصلت إلى عملية تشريع قوانين حفاظاً على السلطة والحكم، وما نشاهده اليوم من عمليات قتلٍ وقطعٍ للرؤوس، وتهديم للمراقد والمساجد، وسبي للنساء، وترويع للأطفال، ما هو إلا امتداد لما تم تأسيسه سابقاً، وإن اختلف هدف المؤسسين عن المطبقين الذين سعوا إلى تشتيت جهود الأمة وتقسيمها إلى دويلات متناحرة، وضرب جدار المقاومة حفاظاً على الوضع القائم الذي أسسه الاستكبار العالمي في المنطقة والعالم، وسنحاول إثبات هذه الفرضية من خلال النقاط الآتية :

أولاً : جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته في زمن النبي ﷺ ومصاديقه

لو رجعنا قليلاً إلى الطبيعة الاجتماعية التي كانت حاكمة في مجتمع الجزيرة، الذي أُرسل إليه محمد ﷺ، ولا نريد أن نحلل ونتشدق في التحليل لكشف تلك الطبيعة، وإنما نأخذها جاهزة من لسان من عاش فيها، وهو جعفر عندما أرسله النبي ﷺ إلى ملك الحبشة الكافر فكرياً باصطلاح المسلمين، فقد وصف جعفر ذلك المجتمع بهذه الأوصاف فقال: «أَيُّهَا الملِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ونأتي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الجِْوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ»[1].

هذه هي الحالة الاجتماعية التي كانت عليها الجزيرة العربية، التي بُعث من أجل تغييرها محمد ﷺ، فالأمن الاجتماعي كان مفقوداً بموجب هذه الكلمات الدالة على القتل والإساءة، وعدم احترام الحقوق، فعندما جاء محمد ببنود نظرية التغيير وقوانينها، فقال جعفر عنها لملك

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: ج ٦، ص ٢٩٠، تحقيق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

الحبشة: « فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ»(١).

فهذه هي بنود الاستقرار الاجتماعي التي تعطي لكل ذي حق حقه، ولا تسمح للأخر أن يعتدي علىٰ الناس وحرياتهم، ولكن هل التزم المجتمع الجاهلي بها ؟ فقال جعفر مجيباً على هذا السؤال بعد أن ذكر سبب لجوئهم إلى ملك الحبشة: «فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ »(٢).

ويظهر من خلال طيات هذا النص بأن هناك مَن لا يرغب بالأمن والسلم الاجتماعيين، ويحاول جاهداً أن يُعيد الواقع العربي في الجزيرة إلى ما كان عليه من جاهلية، لا أمن للإنسان فيها على أمواله وأولاده ونسائه وما يملك، ولم يكن أولئك المنتفعون قلةً، بل كانوا علية القوم وجبابرة قريش، وهذا السبب الذي حدا بالذين يطلبون الاستقرار أن يبحثوا عن بقعة تقيهم من السبي وقطع الرؤوس والتعذيب وسلب الأموال، فأوصاهم النبي محمد ﷺ بدولة الكافر العادل ملك الحبشة وجاء ذلك على لسان جعفر فقال للملك: «وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ» (٣).

وواضح من هذا الطلب أن الرهط الخارج من ظلم الجزيرة يبحث عن الأمن والاستقرار، ولا نريد الاستغراق في ما حدث بينهم وبين الملك، ولكن نريد أن نعود إلى الجزيرة؛ لنرى أتغير أولئك الذين يُجبرون الناس على الظلم والطغيان بين ليلة وضُحاها، إذ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: ج ٦، ص ٢٩٠، تحقيق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق: ج ٦، ص ٢٩٠.

أصبحوا حمائم سلام يبحثون عن الأمن، كما هو حال الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبرسالته؟، أم عندما سيطر الإسلام عليهم تواروا بين الناس ليبحثوا عن مخرج لجهالاتهم بعد فشل مواجهة الإسلام بالقوة والعنف؟ والإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا البحث عن السلوكيات الاجتماعية التي تَصرّف بها الصحابة؛ لنتعرف مَن آمن حقاً وحقيقةً من جهة، وعلى الذين تعاملوا مع النبي محمد ﷺ على أنه ملك ملكهم كما يملك الفرس والروم دولهم، ولا نغفل عن عبارة «أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»[١] وعبارة «انهض يا أبا عمارة إن الأمر الذي قاتلتنا عليه بالأمس أصبح بأيدي صبياننا اليوم»[٢]، فهؤلاء وأشباههم بحثوا كثيراً عن مخرج جديد للجاهلية القديمة، فلم يجدوا إلا رسالة النبي محمد ﷺ متنفساً لهم لهدر دماء المسلمين بها، فأصبح الحق المطلق معهم، والآخر ليس معه شي، حتى لو كان يملك رصيداً بمستوى أن يستقيم الإسلام بسيفه، وما مارسه الخوارج إلا أضحوكة سياسية دُبرت بليل؛ لمواجهة أشخاص بعينهم، فكيف نصدّق أن الخوارج قد دبّروا خطة[٣] قتل علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، في ليلة واحدة ولكن المسرحية لم تنفذ إلا بحق الإمام علي عليه السلام، وأما عمرو بن العاص فلم يخرج إلى الصلاة في صباح تلك الليلة، وأخرج غيره بحجة الوجع الذي أصيب به في بطنه، يا لهذا الوجع الذي لم يأتِ إلا في الليلة التي خُطط لقتله في صباحها، وأما معاوية[٤]، فلا نعلم أكان السيف الذي ضُرب به قصيراً أم كانت يد القاتل لم تصل إلى رقبة معاوية؟ ولم يُصَب إلا بخدشة بسيطة، على العموم مسرحيات المسلمين المضحكة كثيرة في التاريخ، ولكن هؤلاء الذين تواروا بين المسلمين بجاهليتهم، وجدوا أفضل طريق للعودة، هو الرسالة نفسها من خلال التكفير السلوكي للمسلمين، وقتلهم بهذه الحجة وإليك

---

(١) تفسير مجمع البيان: أمين الإسلام أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي : ج١٠، ص ٤٢٢، المجمع العالمي لأهل البيت، قم

(٢) قاموس الرجال: الشوشترى، محمد تقي محقق :١٠ج: ص ٨٩ مؤسسة النشر الإسلامى التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة المؤلف أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني: ج ١، ص ٢٧٣، تحقيق عادل أحمد عبد وعلي محمد معوض الناشر دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ

(٤) الكامل في اللغة والادب: المبرد محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس: ج١، ص ٢٥١، المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر دار الفكر العربي – القاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

النماذج:

النموذج الأول: رفع شعار التكفير السلوكي (اليوم يوم الملحمة)

صحيح أن هذا الشعار قد رُفع بوجه من كانوا يواجهون النبي وأصحابه، ولكن الناس في زمن النبي لا يخشون من الكفر، وإنما من التكفير؛ لأن الكفر مسألة اعتقادية، فيها كثير من التأويلات، ولها أشكال مختلفة من الصور، وليس لكل صورها حكم واحد، فهذه الأشكال قد تحدثت عنها الآيات والروايات، ومنها[1] :

١- **الكفر الإنكاري:** وهو الإنكار بالقلب واللسان قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

٢- **كفر الجحود:** ومن أبرز علائمه أن يعرف الإنسان بقلبه، ولكن يجحد ذلك بلسانه ككفر إبليس.

٣- **كفر المعاندة:** هو أن يعرف الكافر كل شيء بقلبه، ويقر بلسانه، ولكنه لا يذعن له.

ووضعت تلك الأقسام في نسق أخر من التقسيم الذي يُمّيز بين الكفر الاعتقادي، والكفر العملي فالكفر الاعتقادي: وهو ضد الإيمان ومبطل للإسلام، ويكون بالقول والفعل، وله خمسة أنواع هي:

١- **كفر التكذيب**؛ أي تكذيب الرسل بما جاؤوا به.

٢- **كفر الإباء والاستكبار**، فالكافر هنا يعترف بحقانية الرسل، وما جاؤوا به من الله، ولكن لا ينصاع لهم استكباراً .

٣- **كفر الإعراض:** وهو المؤدي بفاعله إلى الإعراض عن الحق، وما يأتي به الرسول ﷺ، ولكن من دون أن يكذب بذلك أو يعاديه، فهو يعرض عما يواجهه من دون

---

(١) انظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) المؤلف: عبد الله بن عبد الحميد الأثري، ومراجعة وتقديم صالح بن عبد العزيز آل الشيخ : ج١: ص ١٠٢ طبع دار المعرفة، بيروت .

(٢) سورة البقرة : ٦.

مواجهة .

٤- **كفر النفاق**: الذي يؤدي بصاحبه إلى الرفض القلبي، والتسليم الظاهري، بما يأتي به الرسل، فهو إظهار للإيمان وإبطان للكفر .

٥- **كفر الشك**: فهو الكفر الذي يشك صاحبه بما يُقال له، ويتردد في اتباعه .

وأما الكفر العملي: فهو شامل لجميع المعاصي من قبيل الحلف بغير الله، والحكم بغير ما أنزل الله وغير ذلك .

فكل هذه المصاديق من الكفر تحدثت عنها الآيات والروايات، ولم يكن حكم مرتكب هذه الأنواع واحداً، وإثبات موضوعة الكفر على شخص، والحكم عليه بالقتل هو أشبه بإثبات الزنى بشهود أربعة، جميعاً قد رأوا الميل بالمكحلة، فكيف تأتي بهذا النوع من الشهود في ظل واقعة معينة؟ فالذي أريد أن أصل إليه، هو أن الناس لا يخشون من الكفر في زمن النبي، وإنما يخشون من التكفير السلوكي، والحكم عليها بالقتل والسلب وقطع الرؤوس وسبي النساء، والفرق بين الكفر والتكفير كالفرق بين الثرى والثريا، وهذا الذي حدا بالنبي أن يقف أمام الشعار الذي رفُع في دخول مكة، وأبدله بشعار الإسلام مع وجود من يستحق حكم الكفر في مكة، ولكن لكي لا يُستغل الشعار لرفع سلاح التكفير بوجه الناس وقتلهم وسبيهم، وقف النبي معارضاً لذلك واستبدل شعار التكفير[1]، وهو (اليوم يوم الملحمة) بشعار الإسلام (اليوم يوم المحرمة)، والقصة منقولة في هذا المضمار بعد دخول مكة، وكانت الراية بيد «سعد بن عبادة وهو ينادي: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة أذل الله قريشاً»، فرفض النبي ﷺ هذا الشعار واستبدله بقوله: اليوم يوم المرحمة أعز الله قريشاً، وأرسل إلى سعد وعزله عن اللواء، وقال للإمام علي عليه السلام: «خذ منه الراية ونادِ فيهم، فأخذ علي عليه السلام اللواء وجعل ينادي: اليوم يوم المرحمة، اليوم تُحمى الحُرمة»[2].

---

(١) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار: المؤلف: أحمد بن قاسم العنسي الصنعاني: ج ١٦، ص ٢٣٦، الناشر: مكتبة اليمن .

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين المتقي الهندي: ج١٠، ص ٧٦٢، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩م

النموذج الثاني: ما فعله بعض الصحابة من سلوك تكفيري في زمن النبي ﷺ

تكفير سلوكي جديد في زمن النبي ﷺ لبعض الناس الذي تأولوا عليهم الكفر، والعجيب هنا أن المصاديق التي سوف نذكرها واضحة للعيان، قد اعترف أصحابها بأنهم قتلوا الناس وكفروهم لدوافع جاهلية أو مادية معينة، ومن هذه المصاديق :

أولاً: ما فعله خالد والجيش الذي يقوده من تكفيرٍ وقتلٍ لبعض المسلمين بدوافع جاهلية، قد اعترض عليه حتى رجالاته في جيشه، مثل عبد الله بن عمر الذي رفض قتل بعض الناس بحجة تكفيرهم، والقصة حدثت في زمن النبي ﷺ، فقد ابتُلي النبي بالجاهلية وترسباتها في نفوس بعضهم الذين أصروا على قيم الجاهلية مقابل قيم الإسلام، يقول البخاري في الصحيح عن ابن عمر: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره كما يقول الراوي، حتى إذا كان يوم، أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين»[1].

بسلوك قولي واحد غير مفهوم المعنى عند خالد، قُتل بسببه العشرات من هؤلاء المساكين، والمصيبة أنه أمر بعد المجزرة التي ارتكبها بحقهم بقتل ما تبقى من الأسرى، ولعل في الأسرى نساءً وأطفالاً، ويظهر أنه لم يكن فيهن من الجهال ما يشفع لهن من الإجرام التكفيري، والعجيب أن بعض المصادر قالت: إن الكلمة التي قُتل فيها هؤلاء فهمها خالد خطأً، فلم يفهمها كما فهمها ابن عمر، يقول ابن حجر :

« إن ابن عمر وخالداً اختلف فهماهما لكلام بني جذيمة، ففهمه ابن عمر على أنهم أرادوا الإسلام، وأن هذه اللفظة كانت مشهورة عند قريش تطلقها على كل من أسلم، وأما خالد

---

(١) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله : ج١٤، ص ٢٥٤ دار الثقافة، بيروت.

فقد فهم عليهم العدول عن لفظ الإسلام فقتلهم متأولاً، فحلف ابن عمر على أنه هو ومن معه من المهاجرين والأنصار، لن يقتلوا أسراهم، فلما قدموا على الرسول ﷺ أنكر على خالد العجلة، وعدم التثبت في فهم كلامهم، ثم أرسل ﷺ علياً رضي الله عنه بمال؛ ليدفع لهم دياتهم، فلم يبقَ منهم أحداً إلا دفع ديته»[1].

وهذا من عجيب القول، فإذا كانت الكلمة مشهورة، كما يقول ابن حجر عند قريش، فأين كان خالد من هذه الشهرة ؟، ويظهر من بعض المرويات أن التكفير السلوكي ورجالاته كان عندهم مأرب أخر، يمكن اكتشافه من خلال المرويات التي ذكرت القصة؛ إذ أشارت هذه المرويات إلى أن رسول الله قال: ياعلي، اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك.فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال، قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ردَّ إليهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبقَ شيء من دم ولا مال، إلا وداه، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي رضوان الله عليه حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يودِ لكم ؟ قالوا: لا . قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون، ففعل . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر: فقال أصبت وأحسنت قال : ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى إنه ليرى مما تحت منكبيه، يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات»[2].

وفي هذا النص عبارتان تدلان على جذور الإرهاب والتكفير السلوكي هما:

١- قول الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام عندما بعثه: «واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»[3]، فالجاهلية وترسباتها هي التي حكمت على هؤلاء المسلمين بالقتل والذبح والسبي

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: ج ٤، ص ٢٣٤، الناشر: دار المعرفة – بيروت .

(٢) تاريخ الرسل و الملوك: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري: ج ٣، ص ٦٦، الناشر: دار التراث – بيروت الطبعة الثانية – ١٣٨٧ هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهب: ج٦، ص ٤٥٦، دار الاضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة.

والأسر بحجة التكفير .

٢- قول علي لهؤلاء المساكين عندما أعطاهم الأموال مقابل مجزرة الجاهلية التكفيرية بحقهم قال لهم: «هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يودِ لكم؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون».

ويظهر من هذا النص أن هناك حديثاً قد دار بين الرسول وعلي في أسباب قتل التكفيريين لهؤلاء المسلمين عبّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون»[1]، فالله ورسوله وخليفته وحدهم يعلمون ماذا فعل خالد ؟ وما هي الدوافع الأخرى غير الجاهلية التي دفعته إلى تلك الجريمة النكراء؟

ثانياً: رجل في زمن النبي ﷺ رأى سرية فتصور أنها من غير أصحاب رسول الله ﷺ فألجأ غنمه إلى عاقول في الجبل وصعد هو إلى الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبّرون، فلما سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب رسول الله ﷺ فكبّر فنزل وهو يقول : لا اله إلاّ الله محمد رسول الله، فقال لهم : السلام عليكم، فتغشاه أُسامة بن زيد بن حارثة، فقتله، وأخذوا غنمه، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه الخبر، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، فقال رسول الله ﷺ : «قتلتموه إرادة ما معه»[2].

فقد حدد الرسول الأكرم ﷺ الدوافع السلوكية لقتله بوضوح، وهو الطمع وإغارة بعضهم على بعض في زمن الجاهلية، كما قال جعفر لملك الحبشة، ولكن هؤلاء ألبسوا عملية القتل لباساً دينياً ليبرروا سلوكهم التكفيري النابع من دوافع جاهلية.

ثالثاً: وروى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس، قال : مرّ رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ معه غنم فسلّم عليهم فقالوا: ما سلم عليكم إلاّ متعوّذاً،

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام الحميري، ج ٤، ص ٨٨٤، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة .

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: ج ٣، ص ٣٦، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور: مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

فعمدوا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه[١].

رابعاً: وروى المبارك عن الحسن أنّ أُناساً من المسلمين لقوا أُناساً من المشركين، فحملوا عليهم فهزموهم قال: فشدَّ رجل منهم، وتبعه رجل وأراد متاعه، فلما غشيه بالسيف، قال: إني مسلم، إنّي مسلم، وكذّبه، ثم أوجره السنان، فقتله، وأخذ متاعه، قال: وكان والله قليلاً نزراً، فُرِفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلته بعد ما زعم أنه مسلم، فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً، قال: فهلا شققت عن قلبه لتنظر صادق هو أم كاذب ؟ قال: قلت أعلم ذلك يا رسول الله، قال: ويك إنك لم تكن تعلم ذلك، إنما بين لسانه، قال: فما لبث القاتل أن مات، فدفن، فأصبح، وقد وضع إلى جنب قبره قال: ثم عادوا فحفروا له، وأمكنوا له، ودفنوه، فأصبح، وقد وضع إلى جنب قبره مرتين أو ثلاثاً، فلما رأوا أن الأرض لا تقبله، ألقوه في بعض تلك الشعاب[٢]، فعلى الرغم من قوله: بأنه مسلم، لم يسلَم من التكفير؛ لدوافع مادية حقيرة، وبحسب تعبير الرواية (نزراً قليلاً).

خامساً: بعث رسول الله ﷺ أبا حدرد الأسلمي، وأبا قتادة، ومحلم بن جثامة، في سرية إلى إضم، فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي، فحياهم بتحية الإسلام، فحمل عليه محلم بن جثامة، لشر كان بينه وبينه في الجاهلية، فقتله، وسلبه بعيراً وسقاءً، فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه، فقال: أقتلته بعد ما قال آمنت[٣].

سادساً: عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تلك الغنيمة[٤].

---

(١) فقه القرآن: قطب الدين الراوندي: ج١، ص ٣٦٩، المحقق: السيد أحمد الحسيني باهتمام السيد محمود المرعشي، الناشر: مكتب آية الله العظمى النجفي المرعشي، الطبعة: مطبعة الولاية – قم، التاريخ: ١٤٠٥، الطبعة الثانية.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: ج ٢، ص ٤٧٦، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

(٣) أسباب نزول القرآن أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي: ج ١، ص ١١٤، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي: ج ٥، ص ٣٦٧ الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

والذي يهون الخطب في كل هذه الحوادث، هو موقف الرسول الأكرم ﷺ، ومن تبعه من الصحابة الذين أسلمت كل جوارحهم وجوانحهم، فكانت المعارضة شديدة، والزجر من الرسول أشد.

ثانياً: جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته بعد النبي ﷺ وفي زمن الخلفاء

عندما التحق النبي الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحدث ما حدث بين المسلمين، ورُفع شعار «مِن كان يعبد محمداً فإن محمداً قدْ مات»[1]، وبحدود تتبعي، لم يذكر التأريخ من يعبد محمداً في حياته وأيام آياته ومعجزاته، فضلاً عن زمان رحيله، وإلا كان الحكم بكفره من أوضح الواضحات، فالمهم رفع هذا الشعار بعد رحيله ﷺ، وبدأت عمليات تكفيرية جديدة تختلف عن سابقاتها، فالتكفير السلوكي في زمن محمد كان ذا جذور جاهلية، وأطماع مادية دنيوية، تواجهه القيادة المحمدية بالرفض والاستنكار، ولكن الذي حدث بعد رحيل النبي أن التكفير أخذ بُعداً رسمياً لمواجهة الخصوم وتغييبهم عن الساحة، ويا للأسف الشديد! لم يكن يلاقي هذا التكفير والقتل وقطع الرؤوس وسبي النساء وقتل الأطفال، ردود فعل غاضبة، كما كان يلاقيها أيام النبي الأكرم ﷺ فمثلاً ما حدث في قصة[2] مالك بن نويرة مع خالد بن الوليد، وعجبي لخالدٍ هذا الذي أصبح بامتياز قائداً للسلوك التكفيري الجاهلي في زمن النبي وبعده، فقد قتل مالكاً أبشع قتله، وقطع رأسه، ووضعه في قدر وغلاه، وزنى بامرأته في ليلة قتله[3]، فهذا الفعل الذي استنكره الخليفة الثاني أشد الاستنكار، لم يلاقِ مواجهه حقيقية للحد من أثاره وارتداداته، وبدأت حملات متعددة، لكل الخصوم سياسيين،

---

(١) انظر: صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي: ج٤، ص ٣٤٥، رقم الحديث: ٣٤٦٧، دار ابن كثير، سنة النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، المؤلف: محمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي: كتاب الردة: ص ١٠٧-١٠٨المحقق: يحيى الجبوري، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني: ج ٥،ص ٥٥٧، تحقيق: عادل أحمد عبد وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ.

كانوا أم لم يكونوا؛ لتصفية الحساب؛ بحجة عملية التكفير السلوكي، فقُتل الناس وسلبت أموالهم، وهتكت أعراضهم، وسبيت ذراريهم بحجة التكفير والخروج عن الطاعة، وقصة نفي أبي ذر(١) من أبرز مصاديق التكفير السلوكي الذي بسببها تم نفي صحابي جليل من صحابة رسول الله ﷺ، ولا تجد ممّن يعترض من المسلمين إلا نفراً قليلاً يقودهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولولا أنهم خلّوا أبا ذر من الأموال والنساء والحشم والخدم؛ لتم استبدال النفي بقتله وسبي نسائه ومصادرة أمواله، وقصة نفيه فيها من دلالات التكفير ما فيها خصوصاً الآية القرآنية التي ذكرها الرسول ﷺ لأبي ذر التي تعبّر عن الفيصل في الصراع بينه وبين عثمان، فكانت مصداقاً واضحاً؛ لتكفير المسلمين لحجج مختلفة وإخراجهم من ديارهم، فالقصة المنقولة في كتب التاريخ في اعتراض أبي ذر على عثمان وإخبار الرسول لأبي ذر ما يحل به من النفي إلى الربذة، فالرسول أخبر(٢) أبا ذر بأن الله أنزل فيك وفي عثمان آية، فقال: أبو ذر ما هي يا رسول الله؟ قال قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

فهذه الآية من أبرز المصاديق التي تؤكد بأن قتل الناس سوف يكون من خلال التكفير والحجج التي تساق ظلماً وعدواناً، وفي الآية تصريح واضح للسلوك التكفيري الذي انتهجه بعض المنحرفين بوجه عموم المسلمين .

---

(١) الكامل في التاريخ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير: ج٣، ١٣٣، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) تفسير الصافي: المولى محسن الملقب بـ الفيض الكاشاني: ج ١ : ص ١٥٤، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي،منشورات، مكتبة الصدر، طهران.

(٣) سورة البقرة : ٨٤-٨٥.

ثالثاً: جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته في زمن الدولة الأموية

ما جرى في الحقبة السابقة قد مهد لحكومة الدولة الأموية بقيادة معاوية التي بدأت سلوكيات التكفير منظمة ومؤدلجة، وعلى وفق قوانين تسنها الدولة نفسها، فقد تم اضطهاد الخصوم اضطهاداً ممنهجاً على وفق آليات التكفير السلوكي المؤدي إلى قتل الناس وسفك دمائهم وقطع أيديهم على الظن والتهمة بحجة الكفر تارة والمغالاة أخرى، والخروج على الحاكم ثالثة، وقد حكى الإمام الباقر عليه السلام صوراً بشعة من الظلم والاضطهاد والتكفير السلوكي للناس فقال: «وَقُتلت شيعتُنا بكل بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظِّنَّة، وكان من يُذكَر بِحُبِّنا، والانقطاع إلينا، سُجن، أو نُهب مَالُهُ، أو هُدمت دَارُه»[1]، فالتكفير السلوكي القائم على أساس سلوكيات خارجية، قد طُبِّق على مَن يوالي أهل البيت، تقول أحدى الوثائق المنقولة تاريخياً التي تتحدث عن شكوى بعض الناس لمحمد بن الحنفية: «فما زال بنا الشَّين في حُبِّكم، حتى ضُرِبت عليه الأعناق، وأُبطِلت الشهادات، وشُرِّدنا في البلاد وأوذينا»[2]، فالدولة الأموية منهجت التكفير السلوكي بشكل منظم، وقامت بعمليات القتل الجماعي، عندما أوعز معاوية إلى جلاديه بِتَتَبّع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا، وقد قتل بسر ابن أبي أرطاة - بعد التحكيم - ثلاثين ألفاً، عدا من أحرقهم بالنار [3]، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة[4]، ناهيك عما فعله زياد بن أبيه من قطع للأيدي والأرجل، وتسميل العيون[5]، وكانت موالاة الإمام علي كافية لسبي النساء وقتل الأطفال والرجال، كما حدث ذلك في حجر بن عدي وإخوانه من الشهداء [6]، وأين رشيد الهجري[7]الذي تعرض

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٥، ص ٤٣ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية .
(٢) الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: ج ٥، ص ٩٥، الناشر: دار صادر - بيروت.
(٣) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد المعتزلي: ج٢ : ص ٦ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية
(٤) حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: باقر شريف القرشي: ج ٢ : ص ٣٤٣، منشورات المدرسة العلمية ، ايرواني ، نشر قم .
(٥) سلسلة الأعلام من الصحابة والتابعين : حسين الشاكري : ج٦ : ص ٧٧ ، نشر قم ، إيران
(٦) البداية والنهاية : ج٦ : ص ٢٣٤ ، الناشر : دار الفكر ، بيروت ، عام النشر : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م
(٧) معجم رجال الحديث : السيد الخوئي : ج ٨ : ص ١٩٧ ، نشر اسماعيليان ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٣١٤

لأنواع المحن بسبب الموالاة السلوكية للإمام علي عليه السلام؟ والتي كفرته وأخرجته من الإسلام بحكم جلادي المسلمين، تقول الرواية التاريخية(١)، عندما بعث زياد بن أبيه شرطته إلى رشيد و مَثُلَ عنده صاح به: ما قال لك خَليلُك -يعني : عَلياً - إنا فاعلون بك ؟ فقال له: تقطعون يدي ورجلي، وتصلبوني، فقال الخبيث مستهزئاً وساخراً : أما والله لأكذِّبن حديثه، خَلُّوا سبيله، وخَلَّت الجلاوزة سراحه، وندم الطاغية، فأمر بإحضاره فصاح به: لا نجد شيئاً أصلح مما قال صاحبك، إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً، إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، وبادر الجلادون، فقطعوا يديه ورجليه، وهو غير حافل بما يعانيه من الآلام، وكذلك الحال في عمرو بن الحَمْق الخزاعي الذي قتله حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي، بأمر من معاوية، وقُطع رأسه، وأُرسل الى معاوية(٢)، وكما قيل بأنه أول رأس طِيفَ به في الإسلام؛ بسبب التكفير السلوكي الذي واجهه؛ لأنه كان يوالي الإمام علياً وأبناءه عليهم السلام، ووصلت عمليات التمثيل بالجثث في زمن الدولة الأموية؛ بسبب التكفير السلوكي لأنصار الإمام علي إلى أن تطارد الأسر، ويزج بها في السجون من الأطفال والنساء، فكانت زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي في السجن، وهي السيدة آمنه بنت شريد(٣)، فأمر معاوية بحمل رأس زوجها إليها ووضعه بين يديها، فعمليات القتل الممنهج، كانت على قدم وساق، فتم قتل عبد الله الحضرمي، وجويرية العبدي(٤)، وصيفي بن فسيل(٥) الذي دارت بينه وبين زياد أروع مناضرة، في التكفير السلوكي والمولاة لعلي وآل علي وقد قتل بسببها شر قتلة على يد أشر خلق الله، وكذلك الحال في عبد الرحمن العنزي، فقد كفروه سلوكياً عندما سأله معاوية عن علي وعثمان، وما إن أتم كلامه قال له معاوية: «قتلتَ نفسك»(٦)، ولم يقف الأمر عند حدود التكفير السلوكي للرجال، وإنما

(١) الاختصاص: الشيخ المفيد: ص ٢٣٤ ، تحقيق علي أكبر غفاري ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٩٣

(٢)حياة الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي: ج ٢ ، ص ١٧٠، الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، الطبعة الثانية:١٤٢٩هـ.ق.

(٣) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ج٢ ، ص ٦٥، طبعة دار التعارف للمطبوعات ، بيروت، لبنان سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م ، تحقيق السيد حسن الأمين

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: ج١، ١٣٠، الناشر: دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩ ، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي

(٥) انظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ، ص ، ٤٧٠ ، دار الكتب العليمة، بيروت، لبنان

(٦) انظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد : ج ٦، ٢١٧

تعدى ذلك الى النساء، فأمر معاوية بإحضار النساء إليه من قبيل: الزرقاء بنت عدي وأم الخير البارقية وسودة بنت عمارة وأم البراء بنت صفوان وبكارة الهلالية، وأروى بنت الحارث وعكرش بنت الأطرش والدارمية الحجونية، ولما لم يكتفِ جلادو التكفير السلوكي بالقتل من الرجال والنساء لجؤوا الى هدم الدور، حتى تبقى تلك العوائل بلا مأوى، ناهيك عن حرمانهم من العطاء والرعاية العامة من لدن الدولة، ولعلك لو اطّلعت على الوثيقة التي أصّلت للتكفير السلوكي، والتي أصدرها معاوية تجد العجب العجاب من عمليات الحقد، فجاء في تلك الوثيقة: «انظروا إلى من قامت عليه البيِّنة أنه يُحبُّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»(١)، فمجرد أن يتصف بسلوك معين، وهو حب علي فهو كافر خارج من رعاية الدولة، لا بل خارج من دائرة الإنسانية، بحيث وصل الأمر الى عدم قبول شهادته، والقارئ لما نقله ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج البلاغة يجد التلذذ بدم رسول الله ﷺ ولحمه لدى زياد بن أبيه الذي أُلحق بأبي سفيان بعد ولادته، يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: كان سعد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما قدم زياد الكوفة والياً عليها أخافه فطلبه زياد، فأتى الحسن بن علي، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته، فحبسهم وأخذ ماله وهدم داره، فكتب الحسن إلى زياد: «من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد: فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره وأخذت ماله وعياله فحبستهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فابنِ له داره، واردد عليه عياله وماله، فإني قد أجرته فشفعني فيه» فكتب إليه زياد : من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد: فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلط على رعيته كتبت إليّ في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي ورضا منك بذلك، وايمُ الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك، فغير رفيق بك ولا مُرعٍ عليك، فإن أحب لحم علي أن آكله اللحم الذي أنت منه، فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه، وإن

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي ، ج١١، ص ٤٤ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية

قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق، والسلام »[1] يقول ابن الجوزي: «إن زياداً لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم، وهمَّ أن يخرب دورهم ويحرق نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة يعرضهم على البراءة من علي، وعلم أنهم سيمتنعون، فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم»[2].

هذا هو التكفير السلوكي الذي يلاقيه أتباع محمد وآله اليوم، فهو تعطش للدماء والقتل وقطع للرؤوس وسبي للنساء وترويع للأطفال، كل ذلك لأنهم يوالون بسلوكياتهم الإمام علياً عليه السلام، وأما مَن لم يثبت بحقه سلوكاً تكفيرياً بحسب رؤية الدولة الأموية، وإنما قد شُك في تصرفاته، فالإبعاد الى المنافي كما فعل عثمان بحق الصحابي الجليل أبي ذر، هذا غيض من فيض من عمليات التكفير السلوكي التي واجهها أحرار الرسالة المحمدية في العصر الأموي، وكانت كل تلك السياسات تنبع من جذر التسلط والمحافظة على الحكم، ولكن ألبسوها لباس التكفير السلوكي، بخلاف ما كان يجري بحق المسلمين في دولة الرسول صلى الله عليه وآله من أمور تعود بجذورها الى الجاهلية والأطماع المادية الدنيوية، وما إن وصل الأمر الى يزيد بن معاوية حتى رُفع شعار قد رفعه الاستكبار العالمي اليوم: (مَن لم يكن معنا فهو ضدنا)، فمن لم يكن مع يزيد وفسوقه وفجوره، فهو ضده حتى لو كان جالساً في بيته، وبدأت عمليات القتل في من واجهوه كالحسين وأنصاره، فقتلوا ومُثّل في جثثهم، وقطعت الرؤوس، وسبيت النساء وروعت الأطفال، الى أن وصل الأمر الى أولئك الذين لم يقفوا مع الحسين من أهل المدينة ومكة، فاستُبيحت المدينة[3] برجالها ونسائها وأطفالها، وقصفت الكعبة بالمنجنيق[4]، كل ذلك كان بسبب الحفاظ على الحكم الأموي، وتحت شعار إسلامي مزيف مهّد له الأولون، وضاق

---

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي ج١١، ص ٤٤ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية

(٢) المصدر السابق: ج٩، ص ٢٣٢ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية

(٣) البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ابن كثير ، ج ٨، ص٢٦٥: الناشر: دار الفكر، عام النشر ١٩٨٦ م.

(٤) سير أعلام النبلاء : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: ج ٤، ص٣٤٣، الناشر دار الحديث- القاهرة الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

طعمه اللاحقون كما قالت الزهراء: «وسيعرف التالون غبّ ما أسّسه الأولون»[١].

الى أن وصل الأمر الى الحجاج حتى قيل: إن عمليات التكفير السلوكي وصلت الى مستوى أن يُقال للرجل: «زنديق أو كافر، أحبّ إليه من أن يقال: شيعة علي»[٢]، فسلوك الولاء للإمام علي سلوك مكفر عند الدولة وسر التكفير هو الحفاظ على الكرسي والحكم مع المجون والفجور .

رابعاً: جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته في زمن الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية التي مارست مختلف صنوف القتل والتعذيب والتشريد بحجة التكفير السلوكي للمسلمين، وبدأت فصولٌ جديدةٌ من عمليات التكفير التي راح ضحيتها الكثير من الناس حتى وصل الأمر بحث يقول الشاعر[٣] :

والله مـــا فعلـــت أميـــة فـــيهم   معشـــار مـــا فعلـــت بنـــو العبـــاسِ

فكان أولَ خليفة عباسي هو أبو العباس السفاح (١٣٢هـ-١٣٦هـ)، وجاء بعده أبو جعفر المنصور الذي قيل بحقه إنه: «كان يجلس ويجلس إلى جانبه واعظاً، ثم تأتي الجلاوزة في أيديهم السيوف يضربون أعناق الناس، فإذا جرت الدماء حتى تصل إلى ثيابه، يلتفت إلى الواعظ ويقول: عظني، فإذا ذكره الواعظ بالله، أطرق المنصور كالمنكسر ثم يعود الجلاوزة إلى ضرب الأعناق، فإذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانياً قال لواعظه: عظني»[٤]، فالقتل بهذه الطريقة مع وجود الواعظ يكشف لك مدى استهتار هؤلاء بالدماء، فلا أدري هل يعظه

---

(١) بلاغات النساء : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور : ص ٤٢٣ ، صححه وشرحه أحمد الألفي ، الناشر، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة عام النشر١٩٠٨ م

(٢)شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي: ج١١ ، ص ٢١١ ، دار المعارف ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية.

(٣) المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، ص ٢٤٦ ، نشر دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧٠ الشعر والشعراء، ابن قتيبة : ص ٤٨ ، تحقيق احمد محمد شاكر، نشر دار المعارف ، القاهرة.

(٤) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: ص ٢٨٥، قدم له وأشرف على طبعه كاظم المظفر، الطبعة الثانية ، الناشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر قم - إيران : ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.

الواعظ بقتل هؤلاء بحجة تكفيرهم؟ وهل يُطيع الله ورسوله بقتلهم؟ ويقول المسعودي[1] بأن المنصور جمع أبناء الحسن، وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مكشوفة وبغير وطاء، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين. ثم أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزؤوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون على فراغ كل واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدت عليهم الرائحة، وتورمت أجسادهم، ولا يزال الورم يصعد من القدم حتى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً، وكان يتفنون في عمليات القتل للرجال وللنساء، وامتُلئت السجون، فيكفي القارئ أن يلقي نظرة على مقاتل الطالبيين للأصفهاني[2] في هذه المدة؛ ليرى الحجج التي سيقت لقتل العلويين وغيرهم، حتى وصل الأمر الى قبورهم وبالأخص قبر الحسين عليه السلام في زمن المتوكل، ليأمر بحفره وتدميره حتى لا يبقى للأحرار شعاراً بعد اليوم فحرثوا مكان القبور، يقول محمد بن الحسين الأشناني[3]: خرجنا زائرين نكمن النهار ونسير الليل، حتى أتينا نواحي الغاضرية، وخرجنا نصف الليل، فصرنا بين مسلحتين، وقد ناموا، حتى أتينا القبر فخفي علينا، فجعلنا نشمه ونتحرى جهته حتى أتيناه، وقد قلع الصندوق الذي كان حواليه، وأحرق وأجري الماء عليه، فانخسف موضع اللبن وصار كالخندق، فزرناه وأكببنا عليه، إلى أن قال: فودعناه وجعلنا حول القبر علامات في عدة مواضع، فلما قُتل المتوكل اجتمعنا مع جماعة من الطالبيين والشيعة، حتى صرنا إلى القبر، فأخرجنا تلك العلامات، وأعدناه إلى ما كان عليه، ووصلت عمليات التكفير السلوكي في زمن العباسيين الى منع الناس من السلام على الشيعة والعلويين، تقول الرواية التاريخية: عندما استعمل عمر بن الفرج على مكة والمدينة، فمنع آل

---

(١) بحوث في الملل والنحل، الشيخ جعفر سبحاني: ج ٦ ، ص ٢٣١-٢٤٠، منشورات مؤسسة الإمام الصادق، قم، إيران.

(٢) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: ص ٢٣١ – ٣٤٤، قدم له وأشرف على طبعه كاظم المظفر ، الطبعة الثانية، الناشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر قم – إيران : ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.

(٣) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: ص ٥٩٧ - ٥٩٩، قدم له وأشرف على طبعه كاظم المظفر، الطبعة الثانية: الناشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر قم – إيران : ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.

أبي طالب من التعرض، لمسألة الناس ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء، وإن قل إلا أنهكه عقوبة، وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات، يصلين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه، ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر، إلى أن قُتِل المتوكل، فالعباسيون لم يتركوا وسيلة من وسائل التعذيب بحق من كفروهم سلوكياً لم يستعملوها، إلى أن وصل الأمر إلى الفلاسفة الذي قَتَل منهم الهادي العباسي خمسة آلاف فيلسوف في بغداد وحدها، بدعوى التكفير، وهذا الذي حدا بالشعراء أن يؤصلوا ذلك التكفير والسلوك الإجرامي بحق المسلمين، فقال أحدهم بحق العباسيين واصفاً ظلمهم وجورهم[1] :

تـالله إن كانـت أميـة قـد أتـت	قتـل ابـن بنـت نبيهـا مظلومـا
فلقـد أتـاه بنـو أبيـه بمثلهـا	هـذا لعمـرك قـبره مهـدوما
أسـفوا عـلى أن لا يكونـوا شـاركوا	في قتلـه فتتبعـوه رمـيما

فلا توجد طائفة من الطوائق واجهت التكفير السلوكي من قبل الحكام على مر العصور، مثل ما واجهه أتباع محمد في مدرسة علي عليه السلام وأبنائه، فالأمويون والعباسيون والملوك الغزانوة والسلاجقة، والذين جاؤوا من بعدهم مارسوا عمليات التكفير السلوكي بحق هذه الثلة المؤمنة، فالكافر كان يسرح ويمرح في الدول المذكورة، ولكن المكفر سلوكياً كان مطارِداً يُقتل على الظنة والتهمة، فالمشكلة ليست في الكفر، وإنما في التكفير السلوكي على مر التاريخ حتى وصل الأمر إلى المكتبات، حيث أُحرقت عشرات الآلاف من الكتب المخطوطة وغيرها، ولو أردنا أن نتابع التكفير السلوكي في هذه الفترة وبعدها؛ لما كفانا كتباً كاملة في توثيق ما حمله التاريخ إلينا من وثائق في هذا المجال .

خامساً: جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته في عالمنا المعاصر

شكل التكفير السلوكي في الوقت الحاضر مشكلة كبيرة للأمة الإسلامية باختلاف

---

(١) راجع كتاب الامام علي الهادي، سيد مهدي اية الهي : ص ٧٦ ، نشر المعروف ، قم ، ايران.

شعوبها وثقافاتها، وهناك جملة أمور ساعدت على توسع رقعة هذا النوع من التكفير وهي:

١- الخطب الرنانة في المساجد التي تلهب مشاعر المسلمين من لدن شيوخ الفتنة والتطرف والتعبئة النفسية للشباب بخطب نارية يؤججون الناس، مما أدى ذلك إلى شرعنة ثقافة الإرهاب والعنف في المجتمعات.

٢- المناهج الدراسية في المدارس الدينية التي تعج بمختلف صنوف النصوص التكفيرية لسلوكيات الناس بمختلف الاتجاهات، بحيث وصل الأمر إلى التلذذ بأكل لحم الإنسان، كما هو الحال في بعض كتب التعليم الأزهري ناهيك عن كتب الوهابية السياسية وفتاواها .

٣- المدارس الدينية تعدّ من أهم بؤر التكفير في المنطقة .

كل هذه الأمور ساعد على نشوء جماعات التكفير السلوكي التي تركت المحتل، والكافر الظالم المستكبر لتقتل مَن تكفرهم سلوكياً، من هذه المجاميع جماعة التكفير والهجرة، وجماعة الناجين من النار وجماعة المسلمين، وجماعة التوقف والتبيّن وتنظيم القاعدة وتنظيم داعش وجبهة النصرة، وغير ذلك من قطعان سائبة تريد أن تملأ الأمة صراخاً بقصد تفتيتها، وتحطيم بنية المقاومة والدول التي وقفت أمام الاستكبار العالمي في وضح النهار، مطالبة بحقوق جماهير الأمة، فمارست هذه الجماعات المصنوعة عالمياً التكفير السلوكي على المسلمين وحكمت عليهم بقطع الرؤوس وجلد الناس في الأسواق، ونبش القبور كما حدث في سوريا لقبور الصحابة، وهدم المراقد والمقدسات كما حدث في العراق، عندما فجّروا العسكريين، وهدموا المساجد في الموصل والرمادي وصلاح الدين، وتدمير الكنائس، وبدأت عمليات الاغتصاب تحت عنوان جهاد النكاح الذي لم يعرفه المسلمون إلا في هذه المدّة من الزمن، وإن حاول البعض أن يُنظّر له تاريخياً، والأخطر من ذلك أجبروا الفتيات على تمكين أنفسهن لأكثر من رجل لتلبّي الشبق الجنسي لهؤلاء، فصارت النساء والبنات في المناطق التي عشعشت فيها جماعات التكفير السلوكية مباحة لهم يفعلون بهن ما يشاؤون من دون اعتراض من لدن ذويهن، ومن يعترض على ذلك فهو مخالف لشريعة التكفيريين الجدد، لقد انتقد

البعض مدرسة أهل البيت على تجويزها زواج المتعة الذي له أدلته القرآنية والروائية باعتراف الجميع، وإذا بهذا النفر من يوافق تزويج البنت إلى أكثر من رجل في ربع ساعة، بل يوافق على تزويج المرأة المتزوجة لأكثر من رجل لرفع حاجة التكفيريين الجنسية، كل ذلك يذكرنا بالفتوحات التي كانت بدوافع الجنس والمال، التي تنتهي عادة بجلب النساء والأطفال وقتل الرجال، فكم تحملت البشرية من مصائب التكفيريين وويلاتهم على مرّ العصور، ويا للأسف الشديد نجد هناك من اتّصف بالعلم قد نظر إليهم، فقد قال بعضهم: «يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل في هذا الإطار أنها لا تدين بالعبودية له وحده في نظام حياتها... فهي – وإن لم تعتقد بإلوهية أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الإلوهية لغير الله فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها... موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد في عبارة واحدة، أنّه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها»[1]، فكل المجتمعات أدخلها بتحليل واحد، تحت عنوان المجتمعات غير الإسلامية، وجاء من بعده مَن يحكم عليهم بالتكفير السلوكي لكل تصرفاتهم وأفعالهم، وفي نص أخر يقول: «ارتدت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان ونكصت عن لا إله إلا الله وإن ظل فريق منها يردد على المآذن لا إله إلا الله»[2]، فهذا النص لم يقتصر على المجتمعات بل على البشرية جميعاً، وبنص آخر أكثر صراحة يقول فيه: « إنه ليست على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي»[3]، ولعل ابن تيمية كان سباقاً إلى هذا الفكر من خلال نصوصه وكلماته التي ملأ التكفيريون الأرض بها، وهو من جسد مقولة عامر الشعبي: «والسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة ودعوتهم مدحوضة ورايتهم مهزومة»[4]، فلم يسلم من هذا التكفير مذهب من

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق : ص، ١٠١–١٠٣، طبع دار الشروق، بيروت، لبنان.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ١٠٥٧.

(٣) المصدر السابق: ج ٤، ٢١٢٢.

(٤) ابن تيمية، منهاج السنة ج:١، ص ٢٨٣٤ ، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة لأولى.

مذاهب المسلمين حتى قال الزمخشري :

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه، كتمانه لي أسلم

فإن حنفياً قلت، قالوا بأنني ... أبيح الطلا وهو الشراب المحرم

وإن مالكياً قلت، قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

وإن شافعياً قلت، قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم

وإن حنبلياً قلت، قالوا بأنني ... ثقيل حلولي بغيض مجسم

وإن قلت من أهل الحديث وحزبه ... يقولون: تيس ليس يدري ويفهم

وبحمد الله، فقد انبرى علماء الأمة من مدرسة أهل البيت وغيرهم؛ ليواجهوا هذه الهجمة التي تريد تشويه الإسلام من خلال المؤتمرات العلمية، كالمؤتمر العلمي لمواجة التكفير الذي أقامته المرجعية الدينية التابعة لمدرسة أهل البيت في قم المقدسة، وكذلك المؤتمر الذي عقده الأزهر والذي قال فيه شيخه الطيب عن جماعات التكفير السلوكي: « هؤلاء المجرمون استطاعوا أن يُصدّروا للعالم صورة شوهاء مُفزعة عن الإسلام والمسلمين، وجميع التنظيمات الإرهابية من الدولة الإسلامية إلى جبهة النصرة وسواهما...، هي صنائع إستعمارية تعمل في خدمة الصهيونية لتنفيذ خطتها تدمير المنطقة العربية» .

خلاصة البحث

وفي نهاية هذه الجولة من البحث والتحليل في السلوك التكفيري في التراث وجذوره ومنطلقاته، وما يجري في الحياة المعاصرة من جرائم، وقتل وسلب من قبل التكفيريين نخلص إلى ما يأتي :

أولاً: جذور التكفير السلوكي ومنطلقاته موجودة منذ الزمن الأول للرسالة؛ إذ كانت بدوافع جاهلية ونزعات مادية، ثم تطورت إلى وسيلة لحماية الحاكم الظالم، إلى أن وصل الأمر لتصبح أداة بيد المستكبر لضرب الأمة وتشتيت جهودها، من خلال حفنة من التكفيريين

الذين تركوا المحتل، ووجهوا حرابهم إلى صدور المسلمين جميعاً .

ثانياً: قد تبين من خلال الوثائق التاريخية، والتصرفات السلوكية للتكفيريين، ومن يقف وراءهم، بأنهم لا ينتمون إلى دين أو مذهب، وإنما ينتمون إلى جاهلية مقيتة، ونزعات شهوانية تقودهم نحو الجنس والمال، كما هو الحال في بعض الفتوحات السابقة التي انتهت بسبي النساء وقتل الرجال وترويع الأطفال .

ثالثاً: الاستكبار، والجاهلية والعنجهية، بكل صنوفها، وعلى مرّ العصور، هو المغذي الأول لهذه النزعات المنحرفة، بل هو المنظم والداعم لكل ما يحدث، وإن اختلف شكله على مرّ العصور، فبعد أن كانت الجاهلية تحرك هذه الرغبات، أصبحت شهوات الحكام ونزواتهم هي المنظمة لحركات القتل والتدمير؛ ليصل الأمر إلى الاستكبار العالمي الذي وجد في هذه التصرفات آماله وتطلعاته للسيطرة على هذه الأمة ومقدراتها.

أثر الفهم المغلوط للنصوص المقدَّسة
في تأصيل التكفير

أثر الفهم المغلوط للنصوص المقدَّسة في تأصيل التكفير

صالح الطائيّ*

المقدّمة:

تأتي خطورة التكفير من أهمية الآليات التي أسهمت في تأصيله وتطويره، ويرى الباحث أن هناك أربع آليات مهمة أسهمت في صنع ثقافة التكفير، وتأصيلها، ونشرها في العالم الإسلامي، بعد أن لبست أثواباً أخرى غير أثوابها الحقيقية، وحرفت عن معناها وأصلها؛ وهي على النحو الآتي:

١- السياسة العربية بكل جزئياتها.

٢- جزء مهم من منظومة التفسير والتأويل القرآني.

٣- الجزء الأعم من منظومة الناسخ والمنسوخ التي ضخمت كثيراً، وفتحت الباب واسعاً للرأي الشخصي؛ ليكون فاعلاً قبالة النص.

٤- منظومة الأحاديث المتعارضة التي جاء أغلبها نتيجة الوضع والكذب على الله ورسوله ﷺ.

وسنتناول في هذا البحث دور التفسير والتأويل في إيجاد الذرائع والحجج التي قامت

---

* باحث إعلامي وأكاديمي من العراق- واسط.

عليها ثقافة التكفير، نظراً لأن هذا العامل يكاد يكون أهم عماد في هذه المؤامرة، ثم نعطف للتحدث عن منظومة الحديث، فنستقي منها بعض أمثلة التخبط الذي وقعوا فيه، والذي أدخل كثيراً من المفاهيم الجديدة إلى روح العقيدة، ونمر كراماً على الآليات الأخرى؛ لكن لابد أن نقدم لذلك بحديث عن (نحن والآخر)[1].

أنت والآخر:

أشار أول حوار في معنى خلق الإنسان الأول إلى (آخر) بالنسبة للموجودين؛ هذا الآخر هو آدم عليه السلام، ففي القرآن الكريم، قالت الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[2]، وقولهم (من يفسد) أي الذي يفسد، وهي إشارة إلى آخر في نظرهم لم يخلق بعد، ثم لما تم خلقه وبُعثت فيه الروح، وأصبح كيانا (آخر) قائما بذاته، قال إبليس، مثلما ينقل القرآن: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3] في إشارة واضحة إلى الآخر الذي خلق تواًّ!؛ ولذا أجد سؤالاً: من الآخر موجّه إليك؟ في غاية الأهمية، لأننا ممكن أن نعرف من خلاله مكاننا، وموقعنا، وحقيقتنا، وكيفيّة التعامل مع الآخر.

عقلاً ومنطقاً الآخر هو غيرك؛ بَعُدَ أم قرب، هو: أبوك، أمك، أخوك، ابنك، زوجك، ابنتك، ابن قبيلتك، جارك، ابن بلدك، أخوك في الدين، أخوك في المذهب، أخوك في الإنسانية، أخوك لآدم؛ وإذا استرسلت بالحديث، هو أخوك في الوجود، فحتى الجماد والحيوان والنبات، وكل ما في الوجود هو آخر عندك، كما أنك آخر عندهم، سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه.

فأنت إذاً مجرد جزيء من منظومة وجود كبيرة ومتشعبة، بعضها أعظم منك، وبعضها

---

(١) أشبعت هذا الموضوع بحثاً في كتابي (نحن والآخر والهوية) الصادر في طبعته الأولى عن جمعية النهوض الفكري، وفي طبعته الثانية عن شبكة الإعلام العراقي، برنامج العراقية تطبع.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الأعراف: ١٢.

أصغر، وبعضها مثلك، لكن حتى التي هي مثلك تختلف عنك في كثير من الفوارق؛ فلا تكاد تتطابق معك إلا في جزيء من أصغر الجزيئات، يقول الشاعر (تي أس إليوت): (كل شيء في هذا الكون غريب إلا أنت وأنا، وحتى أنت أكثر مني غرابة).

الإسلام والآخر في الخطاب القرآني:

فضلاً عن ذلك جاء الخطاب الإسلامي العام لا لتأكيد وجود الآخر في حياتنا فحسب، وإنما للنص على وجوب احترامه؛ لأن احترامه من مكارم الأخلاق، والشواهد على ذلك يصعب حصرها يكفي أن الله تعالى بعث نبيَّه محمداً ﷺ؛ ليتمِّم مكارم الأخلاق، فكان أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، فقد أثنى عليه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وبعثه رحمة للعالمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وكما في الحديث: قيل يا رسول الله ادعُ على المشركين! قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»[3].

لكنَّ الخطاب السياسي ذا الصبغة الدينية هو الذي تسيّد نوع العلاقة بالآخر عبر تاريخنا الطويل، فكان السبب في كل المصائب والويلات التي أصابتنا؛ هذا الخطاب كان وليد فكر السياسة العربية، فالإسلام الذي جاء لتهذيب أخلاق العرب من رواسب همجية الجاهلية من خلال المشروع النبوي: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]، لم يصمد أمام هجمة السياسة التي نجحت بالانتصار عليه حتى في زمن البعثة حينما كانت تسير بموازاته، حيث كانت النعرات تتصاعد بين حين وآخر لتذكرهم بثأر الجاهلية، وعلاقات الهمجية الموروثة، كما في الرواية التي تتحدث عن المشكلة التي أثارها أحدهم بين الأوس والخزرج، وكادت تشعل الحرب بينهما.

استمر هذا السلوك بعد البعثة، إذ فتحت ذريعة الثأر الجاهلي لبعضهم من خلال قتل

---

(١) القلم: ٤.

(٢) الانبياء: ١٠٧

(٣) صحيح مسلم، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ص١١٠٦، حديث ٨٧- ٢٥٩٩.

(٤) في طبقات ابن سعد: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». ينظر: ج١، ص١٩٢.

صحابي لصحابي آخر تحت عنوان (الردة)؛ فضلاً عن ذلك كانت مواريثهم القديمة تتحكم بسلوكهم؛ فالنبي كان يهدف إلى إحداث التغيير سلمياً، ولكنهم كانوا عند كل حادثة يعترضون على مشروعه، فينبري قائلهم: «دعني أقطع عنقه يا رسول الله»!.

المنهج الإسلامي ودستور المدينة:

ومع إطلالة الطور المدني سن النبي الأكرم ﷺ منظومة في منتهى الدقة، تحدد علاقة المسلم فرداً بالآخر، والمجتمع الإسلامي مجموعاً بالمجموعات الأخرى؛ وقد عرفت هذه المنظومة باسم (دستور المدينة المنورة)، أو (صحيفة المدينة المنورة) التي كتبت بعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة، والتي أطنب المؤرخون والمستشرقون على مدار التاريخ في الحديث عنها[١]، فعدوها مفخرة من مفاخر دين الإسلام، ومَعلَمًا من معالم مجده

الإسلام الإنساني والسياسي والاجتماعي

حينما دخل الإسلام إلى يثرب، وجد فيها طوائف مختلفة من المسلمين واليهود والمشركين، وغيرهم، من الأحرار والعبيد، وكان لابد من وجود دستور أو وثيقة توافقية تنظم العلاقة بين المسلمين المهاجرين من جانب وبين الآخر الذي تمثله كل الفئات الأخرى، بما فيها فئة المسلمين الأنصار من جانب آخر[٢]، فسنَّ رسول الله ﷺ هذا الدستور العادل لا ليستخدمه تكتيكاً مرحلياً كما يرى بعضهم، فذلك ليس من أخلاقه ولا من أخلاق الإسلام، وإنما وضعه ليكون أساس قانون العلاقة مع الآخر عبر العصور، بدلالة أن القسم الأول منه اختص بالعلاقة بين المهاجرين والأنصار، بينما اختص القسم الثاني بعلاقة عموم المسلمين

---

(١) اهتم بها المؤرخون القدماء، ومنهم: ابن هشام، والطبري، وابن كثير، وابن الأثير، وابن شبة، وابن خلدون، وغيرهم. وأفاض بالحديث عنها المتأخرون، ومنهم: إبراهيم بيضون، وأكرم العمري، والسيد عبد العزيز سالم، وحسن خالد، وصبحي الصالح، وعبد الحي الكتاني، وعبد الغني بسيوني، وعلي الأغا، وفتحي عثمان، ومحمد حميد الله، ومحمد عمارة، ومحمد مهدي شمس الدين، ومحمود شاكر، ومنير العجلوني، وناصيف نصار، وخالد بن صالح الحميدي، وعشرات غيرهم.

(٢) ينظر: محمد مهدي شمس الدين؛ في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص٣١٦، قال: «روي عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه محمد الباقر، قال: قرأت في كتاب لعلي أن رسول الله كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب».

باليهود وغيرهم ممن كانوا موجودين في المدينة؛ وفق الشروط التي اتفقوا عليها، وهو ما ذكره ابن إسحاق، بقوله: «كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادعَ فيه اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم»[1].

أهم ما في هذا الدستور الذي زاد عدد بنوده على الأربعين بنداً[2]، أو اثنين وخمسين بنداً[3] على اختلاف الروايات أنه نظم العلاقة بين جميع طوائف يثرب وجماعاتها، فجعلهم أولاً كياناً واحداً يجب أن يتصدى لأي عدوان خارجي يتهدده. وكفل ثانياً جميع الحقوق الإنسانية لجميع الطوائف والأديان، بدأً من حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، إلى المساواة والعدل، كما في قول المستشرق الروماني جيورجيو: «حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله، خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُوِّن هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء، وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أي عام ٦٢٣م»[4].

أحد أهم بنود الدستور بند يتحدث عن الحرية الدينية، وعن تحديد المسؤولية الجزائية الشخصية وليس المجتمعية؛ في حال المخالفة، جاء فيه: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم؛ مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم نفسه وأثِمَ، فإنه لا يظلم إلا نفسه»؛ هذا البند الإنساني الرائع مأخوذة من النص القرآني، في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5]. ولكننا نجد تباين أقوال المفسرين وتعارضها في تفسير هذا النص قد حوله إلى أرضية للاجتهاد المفضي إلى

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، م١،ص٤٤...ج٢،ص٢٩٥.
(٢) مقال بعنوان: «السيرة النبوية صور تربوية وتطبيقات عملية (لمحمد مسعد ياقوت)».
(٣) ذهب إلى ذلك المستشرق جيورجيو في كتابه (نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ١٩٢).
(٤) المصدر السابق، جورجيو.
(٥) البقرة: ٢٥٦.

رفض الآخر، فقال ابن كثير: «يقول تعالى: (لا إكراه في الدين) أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيّن وواضح وجلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة»(١)؛ إذ يبدو هذا الرأي أقرب الآراء إلى روح الإسلام، ولكنه مجرد رأي من مجموعة أخرى من الآراء شطت بالآية والحكم بعيداً، فالطبري ضيق مساحات النص من خلال ربطه بقضايا وجزئيات كثيرة، كثرت معها الآراء والمسميات، فمرة ربطه بقوم من الأنصار مع اليهود والنصارى؛ كما في قوله: «فقال بعضهم: نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار - أو في رجل منهم - كان لهم أولاد قد هودوهم أو نصروهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام»(٢).

وفي قوله الآخر ربطه بين الأنصار وبني النضير خاصة، كما في قوله: «عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده؛ فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾»(٣).

ومرة ثالثة ربطه بشخص من الأنصار كان له ولدان نصرانيان وليس يهوديين، كما في قوله: وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك»(٤).

ومرة رابعة ربطه بين الأنصار عامة وبني قريظة من اليهود خاصة، كما في قوله: عن خصيف، عن مجاهد، قال: «كان ناس من الأنصار مسترضعين في بني قريظة، فأرادوا أن

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي؛ تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ج١، ص٦٨٣، تفسير سورة البقرة.

(٢) محمد بن جرير الطبري، التفسير، بيروت، دار المعارف، ج٥، ص٤٠٨، تفسير سورة البقرة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

يكرهوهم على الإسلام، فنزلت: (لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي)»[1].

ومع ذلك عاد ليربطه بموضوع آخر يتبين من فحواه أن (الإكراه) أصل أساس من أصل عقيدة الإسلام، وان (الإكراه) مجرد مرحلة انتهت مع نهاية الطور المكي، كما في قوله: «عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، قال: سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى ذكره: (لا إكراه في الدين)، قال: كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحداً في الدين، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوهم، فاستأذن الله في قتالهم فأذن له»[2].

ولم يثبت حتى على هذا الرأي، فجاء برأي آخر يؤكد من خلاله أن الآية منسوخة حكماً، كما في قوله: «حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: (لا إكراه في الدين) إلى قوله: (العروة الوثقى)، قال: قال منسوخ»[3].

ثم جاء القرطبي ليكمل فتح الأبواب التي لم تفتح، فقال: قوله تعالى: (لا إكراه في الدين) اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أقوال:

الأول: قيل: إنها منسوخة؛ لأن النبي ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام، وقاتلهم ولم يرضَ منهم إلا بالإسلام، قاله سليمان بن موسى، قال: نسختها (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين).

الثاني: ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يكرهون أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين .

الثالث: نزلت هذه في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتاً[1]، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: (لا إكراه في الدين).

---

(١)محمد بن جرير الطبري، التفسير، بيروت، دار المعارف، ج٥، ص٤٠٨، تفسير سورة البقرة.
(٢)المصدر نفسه، ج٥، ص٤٠٨.
(٣) المصدر السابق.

الرابع: نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهما ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله من يردهما، فنزلت: (لا إكراه في الدين).

الخامس: «وقيل: معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبراً مكرهاً»[٢].

السادس: «وردت في السبي؛ متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كباراً. وإن كانوا مجوساً صغاراً، أو كباراً، أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام»[٣].

وهكذا سلب التفسير والتأويل روح الآية والحكم، وفتح الباب واسعاً لتأويلٍ من نوع آخر؛ يصل إلى مرحلة القطيعة مع الآخر وتكفيره، وقبالة فكرة القطيعة نجد في صفحات من تاريخ السيرة أن النبي الأكرم ﷺ رسم أجمل صور التسامح التي تخالف منهج المفسرين؛ حتى بعد تاريخ نزول الآية المختلف في تفسيرها؛ ففي فتح مكة سنة ثمانٍ للهجرة عفا النبي الأعظم ﷺ عن جميع أهل مكة، بعد أن زجر الصحابي الذي كان ينادي: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة) وأمر علياً عليه السلام أن يأخذ الراية، وينادي: (اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمة)، فهذا الموقف لم يكن وليد لحظات عطف أو تعصب لأهل، وإنما هو القاعدة في تعامل الإسلام مع الآخر حتى لو كان قاتلاً بدلالة تسامح النبي الأكرم ﷺ مع قاتل عمه الحمزة بن عبد المطلب.

تأويل الحديث:

هذا التناقض الغريب الذي لا يقل غرابة عن تخبط رواة الحديث عند تحدثهم عن الجواز والمنع في الأمر الواحد يوحي وكأن هناك اختلافاً في أحكام الأمر الواحد، وهذا التباين

---

(١) المرأة المقلات: التي لا يعيش لها ولد.

(٢) تفسير القرطبي: ج٣، ص٢٨١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، ج٣، ص ٢٥٦-٢٥٧، تفسير سورة البقرة.

ينسحب على كثير من الأحكام الأخرى ومنها حكم التكفير. ولنأخذ نماذج من اختلاف الآراء في الحكم الواحد لتقريب المعنى، مثلا في موضوع قضاء الحاجة الطبيعية، ورد في مستدرك الحاكم عن جابر، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يقضي حاجته أبعد حتى لا يراه أحد»[١]، وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفان عورتهما، فإن الله يمقت ذلك»[٢].

لكنك لا تلبث أن تجد أحاديث تتعارض مع كل هذا، يبدو من خلالها وكأن النبي لم يكن يلتزم بهذه التعاليم، أحدها جاء عن ابن عمر، قال: «مر رجل على النبي وهو يبول فسلم عليه فلم يرد السلام»[٣]، والآخر عن حذيفة، قال: «رأيتني أنا والنبي نتماشى، فأتى سباطة قوم خلف حائط، فقام كما يقوم أحدكم، فبال فانتبذت منه، فأشار إلي، فجئته، فقمت عند عقبيه حتى فرغ»[٤]، ومثله تخبطهم بالحديث عن استقبال واستدبار القبلة وبيت المقدس[٥]، وحديثهم عن التبول وقوفاً[٦].

إن جمع الأضداد أوقع الفوضى التي أدت إلى التخبط، الذي أدى بدوره إلى اختلاف المقاييس والأحكام، فولدت فوضى التجويز والمنع الغريبة، ثم جاء المسلمون الذين كانوا قد تفرقوا مللاً ونحلاً، فأخذ كل منهم بما يتوافق مع رؤاه من هذه الفوضى، فوظفه ليخدم توجهاته، فولدت ثقافة التطرف التي ولد من رحمها التكفير.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم، ص٢٣٦، حديث رقم ٤٨٩/ ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، المستدرك م١، ص٢٦٠، حديث ٥٦٠/ ١١٥.

(٣) سنن النسائي، ج١، ص٣٥-٣٦.

(٤) صحيح البخاري، ص٦٥، حديث ٢٢٥ باب٦٥ البول عند صاحبه.

(٥) ينظر: البخاري، ص٥٤، حديث ١٤٥، وحديث ١٤٨، حديث١٤٩، باب ١٢ من تبرز على لبنتين. وسنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، ج١،ص٢٢-٢٣-٢٦ ٢٧ ، كتاب الطهارة.

(٦) ينظر: المستدرك للحاكم، م١، ص٢٩٠ وص٢٩١، حديث٦٤٥/ ٢٠٠، والسنن والمبتدعات، محمد عبد السلام خضر الشقيري، الباب الثاني، ص٢١، وصحيح البخاري، ص٦٥، حديث ٢٢٤، و٢٢٦، باب البول قائماً أو قاعداً، وسنن النسائي، حديث٦٤٤/ ١٩٩.

التطرف أصلاً ومصطلحاً:

التطرف الديني ظاهرة شغلت الرأي العام، وكثر حولها الجدل بين العلماء والمفكرين والمؤسسات الدينية، ولاسيما بعد أن أصبحت الكلمة مصطلحًا شائعًا تداوله الناس ووسائل الإعلام.

يستخدم المصطلح في المقام الأول للدلالة على معارضة العرف الاجتماعي العام سلمياً أو عنفياً. ومع كبير أهميته عولج بوصفه ظاهرة بكثير من التناقض، فهو بين:

- مؤيد داعم، يرى أن العودة بالدين إلى جذوره الأولى التي اعتقد بها (السلف الصالح) هو الحل الأمثل لمشاكل العالم.

- معارض مقاطع، يرى أن الدين أيسر من أن يُحصر ضمن قواعده القديمة، وأنه قابل للتطور مثل أي نظرية أو مشروع آخر، فما من نظرية أو مشروع إلا وكان بحاجة إلى المراجعة والتجديد.

- مُدِينٍ مستنكرٍ، يرى أن الدين علاقة بين المرء وربه، لا علاقة له بالسياسة والقيادة وتسيير أمور المجتمعات، ولذا طالب بفصل الدين عن السياسة.

وقد تكون هذه الضوضاء، وهذا الضجيج المرتفع سبباً في بقاء التطرف، وتنامي قدراته الفكرية والعسكرية والقتالية؛ ليتحول في النهاية إلى حركة دينية - سياسية يحسب لها العالم كله ألف حساب، ولاسيما بعد أن أحيا المتطرفون مشروعاً قديماً يُشكّ بمصداقيته كثيراً؛ بل هو للكذب أقرب منه إلى الصدق، يعرف بمشروع (عودة الخلافة الإسلامية)؛ أي: عودة دولة (خلافة النبوة)، وفقاً لحديث: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيّاً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ

تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ(ثم سكت). وهو حديث حسنه الترمذي والأرناؤوط، وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث صحيح»[1].

وما هذه سوى محاولة سياسية بائسة لسرقة أطروحة الإمام المصلح المنتظر[2]، ومحاولة لتأصيل منهج التكفير ومنحه الشرعية والغطاء الديني.

أصول المصطلح:

تكاد أصول مصطلح (التطرف) أن تكون إسرائيلية بامتياز، فموطن ولادته هي الأراضي المحتلة تحديداً، فبعد الخيبات التي أصابت الشباب الفلسطيني؛ الذين هالهم قصور التصورات العلمانية وعجزها عن حل قضيتهم؛ بل وتسببها بهدر وضياع حقوقهم وضياعهم، صاروا يتلمسون طريقهم بالعودة إلى الأصالة الأيديولوجية الدينية أو السلفية التي قادتهم هي الأخرى إلى خيبات جديدة بسبب تطرفها وعدم معقوليتها، وهؤلاء هم الذين قصدتهم حكومة (إسرائيل) بهذا المصطلح.

(الأصولية) هو المصطلح الذي يقابل هذا المصطلح في الغرب، ويستخدم للدلالة على ظاهرة التطرف، أو السلفية، أو العودة إلى النصوص المقدسة، ليس من قبل المسلمين وحدهم؛ بل جميع الأديان الكبرى، بمعنى أن المصطلح سياسي النشأة، حديث الولادة، لا نجد له جذوراً في الموروث على الرغم من وجود حالة التطرف فعلاً؛ ولاسيما بين الفرق الإسلامية.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٢٧٣، حديث رقم ١٨٤٣٠، وحديث ٢١٩١٩، وأبو داود حديث ٤٦٤٧، والترمذي حديث ٢٢٢٦، وابن حبان حديث ٦٩٤٣، كما أخرجه الطيالسي برقم ٤٣٨، ص ٥٨، والبزار برقم ٢٧٩٦،ج ٧، ص٢٢٣وكثيرون غيرهم.

(٢) وقد تناولنا هذا الموضوع بالبحث، وأسقطنا رواياته وحججه في كتابنا الموسوم «منهج الخلافة بين الحقيقة والخرافة»، كتاب الكتروني، نشرته موسوعة نينوى في ألمانيا، تجدونه في الرابط:

http://iraq.neinawa2.com/?p=116

التطرف لغة واصطلاحاً:

التطرف لغة: الوقوف في الطرف، وحَدُّ الشَّيْءِ وَحَرْفُه، وعدم الثبات في الأمر، والابتعاد عن الوسطية، والخروج عن المألوف ومجاوزة الحَدِّ[١]، بمعنى أن التطرف يعني تجاوز حد الاعتدال، والاعتدال أمر نسبي يختلف من مجتمع لآخر، تتحكم به المراحل الزمنية والقيم والعادات والأفكار والأيديولوجيات، بما يؤثر على تعريف التطرف إلى حد التناقض، ليبدو في مجتمع ما كأنه تجاوز على كل القيم، ويبدو في مجتمع آخر كأنه قمة الإخلاص للقيم، فدعوات العودة إلى ما كان عليه السلف حتى ولو بحد السيف والقتل التي تتبناها الوهابية السلفية، تبدو في منتهى التخلف والقسوة والخروج على القانون في مفهوم الدول المتحضرة، ولكنها تعني قمة الإيمان عند السلفيين.

وقد عُرِّف التطرف على أنه: «الفعل المخالف للشرع؛ فهو فهم النصوص الشرعية فهماً بعيداً عن مقصود الشارع وروح الإسلام، فالتطرف في الدين هو الفهم الذي يؤدي إلى إحدى النتيجتين المكروهتين، وهما الإفراط أو التفريط، والمتطرف في الدين هو المتجاوز حدوده، والجافي عن أحكامه وهديه، فكل مغالٍ في دينه متطرف فيه مجافٍ لوسطيته ويسره»[٢].

التطرّف: تعبير يستعمل لوصف أفكار أو أعمال ينظر إليها مطلقو هذا التعبير على أنها غير مبرّرة، أما من ناحية الأفكار، فيستعمل لوصم الأيديولوجية السياسية التي تعتبر بعيدة عن التوجه السياسي للمجتمع، وأما من ناحية الأعمال، فيستعمل في أغلب الأحيان لوصم المنهجيات العنيفة المستعملة في محاولة تغيير سياسية أو اجتماعية، وقد يعني التعبير استعمال وسائل غير مقبولة من المجتمع، مثل التخريب، أو العنف للترويج لجدول أعمال معين[٣].

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، باب الطاء.

(٢) التطرف في الدين، دراسة شرعية إعداد: د. محمد بن عبد الرزاق، بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ٢٠٠٤م ص٥.

(٣) الموسوعة الحرة: http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%B7%D8%B1%D9%81.

لم يستخدم الفقهاء والعلماء المسلمون مصطلح التطرف بمعناه الحرفي للدلالة على المبالغة في الأقوال والأعمال؛ وإنما كانوا يستخدمون كلمة (الغلو) الواردة في القرآن والسنة النبوية؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾(١) التي قال ابن كثير في تفسيرها: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها»(٢)؛ أما في السنة النبوية فقد أخرج مسلم، عن ابن مسعود قول النبي ﷺ: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثًا. قال النووي في شرحه على مسلم: (أي المتعمقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)»(٣).

وأخرج الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، عن ابن عباس أن النبي ﷺ حين وصل المزدلفة في حجة الوداع، قال لابن عباس: (هَلُمَّ القُطْ لي) أي حصيات يرمي بهن الجمار في منًى. قال: فالتقط له حصيات من حصى الخذف، أي حصى صغارًا مما يخذف به، فلما وضعهن في يده، قال: (نعم، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)(٤).

وروى الإمام أحمد في مسنده والنسائي وابن ماجه في سننهما، والحاكم في مستدركه عن ابن عبّاس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين»(٥)؛ والغلو: الزيادة على ما يطلب شرعاً، قال ابن حجر: (هو المبالغة في الشيء، والتشديد فيه بتجاوز الحد)

التطرف والعقيدة:

من البديهيات المتعارف عليها أن الأديان في جوهرها لا تنزاح عن مبدأ التسامح، وتجانب

---

(١) المائدة:٧٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، ج١، ص ٥٨٩، تفسير سورة المائدة.
(٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، كتاب العلم، باب٤، ص١١٣٢، حديث رقم ٧_ ٢٦٧٠.
(٤) مسند الإمام أحمد،ج٢، ص ٤٢٧، حديث رقم ١٧٨١.
(٥) مسند أحمد، ج٢، حديث رقم ٣١٢٢.

الغلو والتطرف، ولا ترضى به، جاء في الكتاب العزيز: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1]، وجاء فيه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2]؛ وبناء عليه منعت العقيدة التطرف والغلو حتى في العبادات، ففي القرآن الكريم، جاء قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[3]. وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا... وإنّ أحبّ العمل إلى الله أدومهُ؛ وإن قل»[4]؛ وإذا ما كان الإسلام قد رفض الغلو، فلا غرو أن يقرن الغلو بالتطرف، ويقرن التطرف بالتكفير، ويقرن التكفير بالإرهاب.

العيب التاريخي عند بعض مفسرينا أنهم اعتمدوا الحرفية المقَيِّدة للنص دون الانفتاح على الجوانب الأخرى التي هي أكثر سعة وشمولاً، فالغلو ممكن أن يكون في العبادة، وفي التعامل البيني، وفي الدعوة إلى الدين، وفي شدة القتل غير المبرر، وفي كل عمل يصدر عن الإنسان بما فيها أعمال الخير، إلا أنهم تجاوزوا كل هذه المعاني ليحصروا النص في أضيق حيز من خلال ربطه بأتباع الأديان الأخرى، كما في قولهم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾[5]: بأن المقصود بالغلو في الآية غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربًا، فالعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب[6].

التطرف الديني:

لا ينفي كل ما تقدم وجود بعض التطرف في عصور الإسلام الأولى، فقد ولد التطرف الديني في وقت متقدم من عصر الإسلام، مع ولادة فكر الخوارج، وتحديداً مع بروز ظاهرتين

---

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) البقرة:١٨٥.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب١٧، ص١١٥٠، حديث رقم ٦٤٦٥.
(٥) النساء: ١٧١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، ج ٣، ص ١٦، تفسير سورة النساء، الآية ١٧١.

غريبتين متطرفتين، الأولى: ظاهرة سياسية كانت ترى في الدين منافساً يجب تحجيمه، والإفادة منه ومن جماهيره لتحقيق المكاسب الدنيوية، والأخرى: ظاهرة اعتقاد بعض المسلمين أن معتقداتهم وحدها هي الصحيحة، وأن معتقدات المجتمع تختلف عن معتقداتهم، كما في شعارهم (لا حكم إلا لله) الذي يخطّئ الفريقين في صفين، وهو موقف يتسم بالعزلة والمقاطعة، تحول سريعاً إلى موقف عدواني، حين اعتقد المتطرفون أن المجتمع جاهل منحرف لا يحكم بما أنزل الله، وظنوا أن في هدم هذا المجتمع، وتدمير مؤسساته التقليدية تقريباً إلى الله وجهاداً في سبيله، فقرروا مقاطعة المجتمع وإدانته، وتنصيب أنفسهم حكاماً وقضاةً ودعاةً؛ لهم حق النصح، والتوجيه، والحكم، والإدانة، والتنفيذ، وخرجوا إلى النهروان يحملون سيوفهم؛ علماً أن بعض المعاصرين الذين استخدموا المصطلح لا ليقصدوا هؤلاء وحدهم وإنما اعتبروا كل موقف يدافع عن الدين والعقيدة، وكل رفض لسلوك لا يقره الدين، وكل تطبيق لحكم ديني عملاً متطرفاً يدخل تحت مسمى التطرف الديني.

ونحن وإنْ كنا نختلف معهم في عمومية هذا الحكم القاسي؛ الذي نعده هو الآخر نوعاً من التطرف، إلا أننا نتفق معهم في أن التصدي للتطرّف الدينيّ بمفهومه التكفيري العدواني، ومحاربته والقضاء عليه هو الضمانة الأكيدة للسلم العالمي.

أسباب التطرف ودوافعه:

كما أسلفنا كان التطرف في الإسلام وليد فهم بعض المسلمين الأوائل للإسلام الأول؛ إذ يبدو بشكله العام بريئاً من التأثر بنظرية المؤامرة، ولكن يتبين من خلال متابعة الأحداث أنه وليد نظريات سياسية تؤمن بنظرية المؤامرة؛ لأنه لم يراعِ البعدين الإنساني والتاريخي للنص المقدّس، واعتمد على ما توصّل إليه فكره واجتهاده.

ويرى الباحث أن بداية هذا المنهج تعود إلى سنوات الشلل الفكري الذي أصاب العالم الإسلامي إبّان حكم عثمان بن عفان، قبل أن يطرح الخوارج أنفسهم بوصفهم مثالاً متزمتاً للإسلام المتهاون، وهو المنهج الذي سارت عليه الحاكميات العربية التي جاءت منذ عام ٣٢

هجرية، حيث إكراهات الدولة، وسعيها للحفاظ على مصالحها، وترجيحها لمصلحتها على مصلحة العقيدة؛ يوم كانت على استعداد تام لمحاربة العقيدة إذا تزاحمت مصلحتها مع الحكم الشرعي، وهو الموقف الذي استغله الخوارج وبنوا قبالته نظريتهم الفكرية التي سنت قوانين التكفير رسمياً؛ إذ أدى هذا المنهج الذي بني على قاعدتين: سياسيّة، وفكريّة؛ وبمساعدة نظريات فقهية متطرفة إلى ولادة ثقافات جديدة منها ثقافة التكفير التي استغلت:

- تعطل العقل الإسلامي وشلله، الذي وقع أسير الخمول، والضجر؛ نتيجة الضغوط التي تعرض لها منذ أن سُلَّ السيف المسلم بوجه السيف المسلم.

- ازدياد الحاجة إلى الموارد المالية، والجغرافية، والأيدي العاملة، الذي وظّفه السياسيون؛ ليشرعن تكفير الآخر، وجواز غزوه، وسلب أمواله وأراضيه، وسبي نسائه وتحويلهن إلى إماء، وأسر صبيانه ورجاله وتحويلهم إلى خول وعبيد.

وهذا ليس غريباً في ذلك الوقت المتقدم من عمر الإسلام، فالمسلم الذي أحرق بيت الله الحرام مرتين، وأباح المدينة المنورة، واغتصب بنات الصحابة فيها؛ وهما قدس الأقداس عند المسلمين، لا يتحرج بسفك دم الآخر من غير المسلمين؛ بل حتى من المسلمين أنفسهم مستغلاً منهج التكفير الذي تحول إلى أداة تخريب.

وإذا ما كانت الاجتهادات المنحرفة قد نجحت في تحقيق غايات السياسيين في عصر الإسلام الأول، فإنها اليوم أكثر قدرة على تحقيق كل المشاريع بما فيها المشاريع غير الإسلامية؛ ولذا استغلها بعض الحكام المسلمين، واستغلها معهم أعداء الإسلام من خلال دعم الفكر المتطرف لإثارة الفوضى في المجتمع الإسلاميّ؛ ولاسيما بعد أن شخصوا حالة الفشل الإسلامي أمام النجاح الغربي.

وقد ساعدناهم نحن المسلمين في تمرير هذا المشروع؛ بعد أن تبين لنا أن حجم هزيمتنا أكبر من تصوراتنا كلها: فمن هزائم عسكرية منذ عام ١٩٤٨م وإلى الآن، إلى هزائم سياسية بسقوط المشروع القومي العربي، والفشل في تأسيس مشروع تداول السلطة سلمياً، وبناء

دولة القانون والدولة المدنية الحقيقية، وتفشي حالات الحكم الوراثي والدكتاتوري، إلى هزائم اقتصادية بفشل مشاريعنا التنموية العربية، وتخلف صناعاتنا، وزراعتنا، وبنانا التحتية، وتنامي نسب البطالة وأعداد الفقراء، إلى هزائم فكرية تتمثل بالتخلف الفكري، وتصاعد جيوش الأميين من الجنسين لتبلغ أرقاماً قياسية؛ إذ اجتمعت كل هذه العناصر لتكون حاضنة طبيعية خصبة للفكر المتطرف الذي أنتج التكفير، فالتكفير وليد التطرف بأنواعه.

التكفير:

من هنا، من هذه الحافات الحادة الجارحة جاء التكفير؛ فما التكفير؟، وما علاقته بالردة؟ بدايةً أرى أن التكفير وحدة لا يكفي سبباً لقتل الآخر، في الأقل هذا ما نفهمه من النصوص الفقهية الإسلامية، ولذا لجأ المتطرفون إلى مصطلح فقهي آخر هو (الردة) فقرنوه بالتكفير ليبيحوا قتل من يختلفون معه.

التكفير في الخطاب القرآني:

تكرر ذكر كلمة (الكفر) في آيات القرآن الكريم بصيغ كثيرة جداً، وبأغلب التصريفات، للدلالة على واقع البشرية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[1]؛ كما ورد ذكره مقروناً أحياناً بمصطلح الردة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[2].

والتكفير لغة: ستر الشيء، وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾[3]؛ وأعظم الكفر: جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة؛ وقد يقال: كفر لمن أخلّ بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عليه.

والكفر المطلق: جحود حق الله، ويقال: كفر فلان: إذا اعتقد الكفر، ويقال ذلك إذا

(١) التغابن:٢.
(٢) البقرة:٢١٧.
(٣) الأنبياء:٩٤.

أظهر الكفر وإن لم يعتقد[1]، وفي اللسان: الكفر: ضد الإيمان[2]، «وفي المعجم الصافي: الكفر: نقض الإيمان، كفروا: عصوا وامتنعوا»[3].

كذلك الردة وردت في الخطاب القرآني بصيغ عدّة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾[5].

والردة لغة: ردد: رده عن وجهه، يرده: صرفه؛ والارتداد: الرجوع، ومنه المرتد[6]، وفي المعجم الصافي: الردة: الرجوع [7].

إن تطويع النص المقدس ليخدم منهجاً فكرياً أو سياسياً لم يكن وليد الحاضر؛ فقد أبدع السياسيون المسلمون الأوائل والمتطرفون الإسلاميون كُلّهم في توظيفه واستخدامه، وقد كان عبد الله بن عمر أحد الذين فطنوا لهذا الخلط الفاحش الذي أعتمده الخوارج في تكفيرهم وقتالهم للمسلمين الآخرين بوساطة توظيف النص المقدس، ولذلك قال: «انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين»[8].

إن هذا المنهج الإقصائي عاد على الإسلام بضرر كبير، أقل ما فيه أنّه شوه صورته وحوله إلى هيكل يبحث عن اسم يترجم معناه؛ فالعالم يعيش العالم اليوم متغيّرات، أنتجت تحديات وصراعات ضارية، امتدت في جميع صور الحياة: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والفكرية، والثقافية، وقسمت العالم إلى قسمين: قسم يحاول بسط هيمنته وقوته وثقافته على الآخرين؛ تحت شعار عالمية الثقافة، وكينونة الأفكار.

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ١٤٣١هـ، ص٧١٤-٧١٦.
(٢) لسان العرب، لابن منظور الأفريقي، جذر (ك ف ر).
(٣) المعجم الصافي في اللغة العربية، صالح العلي الصالح، وآمنة الشيخ سليمان الأحمد، ١٩٨٩، ص٥٦٩.
(٤) محمد: ٢٥.
(٥) المائدة: ٢١.
(٦) مختار الصحاح، ص١٥١.
(٧) المعجم الصافي، ص١٩٩.
(٨) صحيح مسلم، حديث رقم ١٢٢٥ ص ١٢٢٥ باب قتال الخوارج.

والآخر ينظر إلى القسم الأول إما بعين الإعجاب والانبهار أو بعين الخوف أو العداء والرفض؛ وتسبب ذلك بظهور مفاهيم، ومصطلحات، وتعريفات، وتسميات جديدة للإسلام، منها: إسلام راديكالي، وليبرالي، وفاشي، واستبدادي، وهمجي، وإسلام بلا خوف، وإسلام فوبيا، وإسلام مدني ديمقراطي، وكل واحدة من هذه التسميات لها دوافعها؛ قال (دانيال بايبس) في حوار مع عمدة لندن: «والأمثلة الضخمة للهمجيةِ الأيديولوجيةِ هي الفاشية واللينينية الماركسية اللتين في مساريهما التاريخيّين قامتا بقتل العشرات مِنْ ملايينِ الناسِ؛ لكننا اليوم نرى الثالثة، الحركة الشمولية الاستبدادية الثالثة، الحركة الهمجية الثالثة، وبالتحديد الإسلامِ الراديكالي المتطرف، هو نسخة أو صورة طوباوية متطرفة من الإسلام».

لا أتكلّم على الإسلام كدين، أتكلم على قراءة غير عادية وحديثة جداً للإسلام، أوقعَتْ بؤساً، ثم تساءلَ: «إن السؤال العظيم في عصرنا هذا هو كيف نمنع هذه الحركة، الشبيهة بالفاشية والشيوعية، من أن تصبح أكثر قوة؟»[1]. ولم يكن هذا الشعور العدواني وليد المصادفة فقد وضع نظرياته الأولى (صموئيل هنتنغتن) و(فرانسيس فوكوياما) و(برنارد لويس)، وغيرهم، إذ يرى (هنتغتون) في كتابه (صدام الحضارات): «أن المشكلة لا تتعلق فقط بالإسلاميين الأصوليين وإنما بالإسلام نفسه».

ويجد فوكوياما هذه المشكلة في تصادم الإسلام مع مبدأ العلمانية الذي تحتم فرضه السيطرة العالمية للنظام الرأسمالي؛ وذلك لتفريغ المجتمعات من القيم الخاصة بها وهو الأمر الذي يتطلبه هذا النظام؛ لتصبح قيم السوق النفعية هي القيم الوحيدة الحاكمة، فالعلمانية في فحواها الأخير هي الاقتصار على العقل البشري وخبراته في تصور حقائق الوجود وتصريف شؤون الحياة، وهو الأمر الذي يعني التصادم الحتمي مع الإسلام

ويرى برنارد لويس أن الإسلام الليبرالي هو الإسلام المفتوح للتوافق مع كل المفاهيم والقيم الغربية، أي الإسلام المتوافق مع العلمانية والديمقراطية والعلاقات التحررية بين

---

(١) حوار بعنوان الإسلام الراديكالي المتطرف ضد الحضارة أجراه دانيال بايبس مَع عمدة لندن، (كين لفنجستون)، في شباط ٢٠٠٧ ونشرته (Group 19).

الرجل والمرأة، وقواعد حقوق الإنسان الغربية، والمصالح الأمريكية النفعية، وهو الذي يمكن أن يتوافق مع كل شيء في الوجود إلا مع حقائق الإسلام نفسه!، في كتابه (الليبرالية الإسلامية) الذي صدر عام ١٩٨٨م عن دار نشر مطبعة جامعة شيكاغو، أعلن عالم السياسة الأمريكي (ليونارد بياندر) نظريته عن الإسلام الليبرالي بقوله: «بغير تيار الليبرالية الإسلامية فإن الليبرالية السياسية لن تنجح في الشرق الأوسط»، ويرى دانيال بايبس: «إن الإسلام الراديكالي يجب أن يُقاتَل ويجب أنْ يُهْزَمَ مثلما حدث في ١٩٤٥م و١٩٩١م عندما تمت هزيمة التهديدات الألمانية والتهديدات السوفيتية»[1]؛ ومن هنا جاء هدفهم الكبير: هدفنا يجب أن يكون، في حالتنا هذه، ظهور الإسلام الذي هو إسلام حديث ومعاصر، معتدل، ديمقراطي، إنساني، ليبرالي، وودي يؤمن بحسن الجوار، إسلام يحترم النساء، وأصحاب الجنسية المثلية، والمُلحدين، وغيرهم، إسلام يُؤمّن لغير المسلمينِ نفس حقوق المسلمين.

فضلاً عن ذلك قسّم التقرير الاستراتيجي الذي أعدته (شيرلي برنار)[2] الاتجاهات الأساسية في العالم الإسلامي على أربعة فرق: الأصوليون (أصوليين تقليديين: الوهابيين في السعودية، وأصوليين راديكاليين متطرفين وتمثلهم الجماعات الجهادية المختلفة)، والتقليديون والعلمانيون (يعتقدون أن الدين ينبغي أن يكون مسألة خاصة منفصلة عن السياسة والدولة)، والحداثيون (الذين يسعون إلى إدخال تنقيات هائلة في الفهم التقليدي للإسلام).

ولأن الحداثويين يؤمنون بتاريخية الإسلام، التي تعني أن الإسلام الذي كان يمارس في عصر الرسالة لا يعكس حقائق ثابتة، وأن ذلك يتعلق بالظروف التاريخية التي كانت ملائمة لذلك العصر، ولكنها لم تعد صالحة اليوم؛ فقد عول عليهم الغرب في صنع الإسلام الليبرالي والقضاء على الإسلام الراديكالي[3]، وقد اقترحت (شيرلي برنار) مخططاً لدعم الحداثويين

---

(١) حوار بعنوان الإسلام الراديكالي المتطرف ضد الحضارة أجراه دانيال بايبس مَع عمدة لندن، (كين لفنجستون)، في شباط ٢٠٠٧ ونشرته (Group 19).

(٢) تعمل شيرلي في قسم الأمن القومي بمؤسسة راند الأميركية، المرتبطة بالمخابرات، وكان التقرير بعنوان (الإسلام المدني الديمقراطي: الشركاء والموارد والاستراتيجيات)، وهو دراسة أميركية عن التيارات الإسلامية الحديثة والمعاصرة؛ صدر عام ٢٠٠٣.

(٣) من الذين روجوا لهذا المشروع نصر حامد أبو زيد في كتاباته عن تاريخية القرآن.

يتكون من محاور عدة، منها: نشر أعمالهم وتوزيعها في شرح الإسلام وطرحه بتكلفة مدعمة، تشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب، تقديم آرائهم في مناهج التربية الإسلامية المدرسية، إعطاؤهم مناصب شعبية للتواصل مع الجماهير، جعل آراءهم وأحكامهم التأويلية للقضايا الدينية الكبرى متاحة للجماهير على مستوى الفضائيات والإنترنت، وضع العلمانية والحداثة على أنهما خِيارٌ مضادٌ لثقافة الشباب الإسلامي التي يجب وصمها بثقافة العنف.

تيسير الوعي بالتاريخ والثقافة قبل عهود الإسلام في وسائل الإعلام ومناهج الدراسة، تنمية المنظمات المدنية المستقلة لتدعيم الثقافة المدنية، ومن السذاجة الاعتقاد أن هذا المخطط يقتنع بقدرة الحداثويين على إيجاد بديل للفكر الإسلامي الحقيقي متمثلاً في الإسلام الليبرالي، وإنما هدفهم خلق خلخلة تسمح للفكر العلماني البراجماتي الأمريكي بالنفاذ إلى الجماهير.

إن هذا المسعى هو جزء من ثقافة تغيير المفاهيم، والتكفير واحد من المفاهيم التي وضعوها نصب أعينهم، لأنها برأيهم تعيق قيام الدولة الحرة، فمن خلال تقدمة السريع وجد العالم الغربي نفسه أمام مشكلة كبيرة تتمثل بزخم المفاهيم القديمة الذي لا تتماشى مع التقدم، فأصبح أمام خيارين: إما أن يتوقف عن النمو ويبقى يراوح في مكانه، وإما يهمل الموروث وجميع مفاهيمه، بما يبدو وكأنه قطيعة مع الماضي، ثم وجدوا أن المقترح الأول مرفوض، والآخر يحذف كثيراً من القيم التي يؤمنون بها؛ بما فيها القيم الدينية، وكلاهما يدل على الهزيمة، فاستنبطوا أسلوباً ثالثاً مبنياً على فكرة إعادة تعريف المفاهيم والأشياء، بمعنى العمل على وضع فهم جديد لها وتقنية، وإعادة تفسيرها.

وكان نظام الحكم وقيادة العالم أحد أهم المفاهيم التي خضعت إلى التغيير، ففي عام ٢٠٠٦م، قال (توني بلير)[١]: «نحن نخوض حرباً؛ لكن ليس فقط ضد الإرهاب، لكن حول الكيفية التي يجب على العالم أنْ يحكم بها نفسه في بداية القرن الحادي والعشرين، وحول القيم العالمية».

---

(١) رئيس الوزراء البريطاني السابق.

إنهم حينما يصفون الإسلام بالراديكالية فإنهم يقرنونه بالتطرف، ليصلوا إلى نتيجة مفادها: (إن جوهره التحجر، وهو التمسك الكامل بالموروث عن السلف، دون النظر إلى قانون التقادم، وتأثير مسيرة التاريخ على الحياة، إنه يقوم على عقيدة صراع الحضارات، أنه يقسّم العالم إلى معسكرين: أخلاقي ولا أخلاقي، خير وشر، وهذا اقتباس لواحد من الإسلاميين المتطرفين الذين يتخذون من بريطانيا قاعدة لهم، اسمه (عبد الله الفيصل)، يقول فيه: «هناك دينان في العالم اليوم، الدين الصحيح والدين الخاطئ، الإسلام مقابل أو في مواجهة بقية العالم».

إنه استبدادي، شمولي في طبيعته، يحول الدين من إيمان شخصي إلى إيديولوجيا، ويُبدل الإيمان الشخصي بنظام لترتيب القوَّةِ والثروة، يسعى إلى السيطرة على الدول والبلدان، يستعمل الدولة لأغراضٍ قهرية، يحاول السيطرة على جوانب الحياة، ويصادر الحريات، يعتدي على الجيران، يسعى نحو مواجهة كونية مع الغرب[1].

معنى هذا أنهم يرون الإسلام المعاصر الذي ينتهج مبدأ التكفير ديناً يخالف كل مبادئ الحضارة المعاصرة وقيمها، وشاذاً عن منهجها المنفتح، وهو تلميح إلى أن الحضارة الإسلامية منذ نشأتها وإلى الآن: رجعية متخلفة لا ترقى لأن تكون حضارة حقيقية، ولا تملك مقومات الحضارة لأنها بنيت على مفاهيم قسرية إكراهية عدوانية فيها كثير من روح الافتراس وقانون الغاب، وأنها منذ بدايتها وإلى هذه الساعة بقيت جامدة على تلك المفاهيم العدوانية التي جاء بها الإسلام.

والمحصلة إن الإسلام دين استهلك مبررات وجوده الأول، ولم تعد هنالك من حاجة لوجوده أو التعامل معه؛ لأنه برأيهم أصبح مصدر خطر يتهدد العالم كله طالما أنه يؤمن بثقافة التطرف والتكفير، ويرون قبالة ذلك: أن حضارتهم متعاطفة، رحيمة، متسامحة، على استعداد للمناقشة والحوار، تسعى إلى تفادي العنف، وإلى الإذعان للقانون، العمل بالحلول

---

(١) ينظر: الإسلام الراديكالي المتطرف ضد الحضارة، مقال بقلم دانيال بايبس، نشر في الأول من شباط سنة ٢٠٠٧ الرابط: http://ar.danielpipes.org/article/4295.

الوسط)[1]، وإنّ أساس وجود الحضارة العالميّة هو اتحاد العناصرِ المُتَحضّرةِ في كل ثقافة من الثقافات مع نظائرها في الثقافات الأخرى من أجل حماية الأخلاق، والحرية، والاحترام المتبادل؛ ولا يوجد في حضارة الإسلام ما يمكن أن نتّحد معه، لأنه دين همجي.

إن الاشتباك، أو الصراع، أو الصدام الحقيقي يحدث دائماً بين الحضارة العالمية والهمجيين، إن تعددية الثقافات هي الحق في اتباع قِيم ثقافية مختلفة، وهو حق لا يخضع إلا لقيد واحد وهو ألّا يتدخل حقك في الحق المماثل الذي يتمتع به الآخرون[2]، وإن هذا الفهم الإقصائي الازدواجي يعني أننا نقف على أعتاب مواجهة حقيقية وغير عادلة مع الآخر، وهو ما أطلقوا عليه اسم (صراع الحضارات) الذي يرون أنه سيؤدي بنا من خلال المرحلة الثانية للمشروع؛ التي أسموها (صدام الحضارات للعودة إلى حياة البداوة التي عاشها أجدادنا، وكانت بوادر الصراع قد انطلقت مع بدايات النظام (الكولنيالي) الاستعمارية، الذي سيطر على جميع بلداننا، وانتقلت إلى مرحلة الصدام مع إطلاق بنود اتفاقية (سايكس بيكو)، وصولاً إلى ما يعرف بـ(الربيع العربي) ومحاولة تحويل البلدان العربية والإسلامية إلى دول فاشلة تستجدي العطف والمعونة.

والمفروض في مثل هذه الحالات أن نقدم البراهين ونثبت بالعمل الجاد والعلمي أن الإسلام هو من أكثر الأديان السماوية تكاملاً، وأنه نجح في دمج الإثنيّات والقوميات والسلالات في بوتقة مسيرته عبر التاريخ، ونجح في التعامل مع الشعوب المتقدمة والشعوب الهمجية، وأسس من خلال ذلك إمبراطوريات عظيمة، وتعاون مع باقي الحضارات بروح منفتحة مبنية على الاحترام المتبادل، وكان سبباً لحفظ السلام العالمي ردحاً طويلاً من الزمان، وهو دين مبنيٌّ على حسن النوايا وعلى الاستعداد للتعاون مع الآخر من أجل غد مشرق للعالم كله.

---

(١) رأي لرئيس الوزراء البريطاني الأسبق ونستن تَشِرشِل في ١٨٩٨م، في معرض حديثه عن السودان.

(٢) ينظر: الإسلام الراديكالي المتطرف ضد الحضارة، مقال بقلم دانيال بايبس، نشر في الأول من شباط سنة ٢٠٠٧ الرابط: http://ar.danielpipes.org/article/4295

ولكن وكما يبدو من سلوكيات بعض المسلمين؛ ولاسيما من تمسك منهم بمنهج التكفير؛ أن هناك من المسلمين من يستعدي غيره والتاريخ على الإسلام، وقد كان للنشأة الأولى الأثر الواضح في خلق هذه العلاقة المتوترة، لأنها لم تكن دينية خالصة، وإنما شابتها السياسة الدنيوية بأدرانها، وانعكس ذلك السوء على الدين عقيدة ومنهجاً وتعاملاً، فولد التطرف وولد التكفير، ومن هنا من هذا التناقض الكبير جاءت نظرية صراع الحضارات، التي يقصد بها تحديداً صراع الحضارة الغربية مع حضارة الإسلام!

صراع الحضارات:

لم يكن (صموئيل ب. هنتنغتن) الذي ينسب إليه مصطلح صراع الحضارات هو الذي ابتكره؛ وإنما واضعه الحقيقي هو المستشرق المشهور (برنارد لويس، الذي كتب خلال الحرب على العراق مقالةً بعنوان: (جذور الغضب الإسلامي)، كتبها عام ١٩٩٠م، ووردت فيها تلك العبارة منسوبةً إلى إسلاميين متطرفين من الذين يرون الصراع بينهم وبين الغرب حضارياً وليس سياسياً أو اقتصادياً، و قُرابة العقدين ظل (برنارد لويس) يكرر تلك المقولة، فمشكلة العرب - بحسب وجهة نظره - ليس احتلال فلسطين أو تدمير العراق؛ بل عجزهم خلال القرنين الماضيين عن الوصول إلى مراتب الندية مع الغرب؛ مثلما فعلت اليابان والصين والهند (وهي الأمم التي عاشت تجربة الاستعمار التي عاشها العرب والمسلمون)؛ ولذلك، وبدلاً من الانصراف إلى نقد الذات، وتطوير التجارب لمواجهة التحديات، اعتبروا الغرب عِلّة العلل.

جاء هذا الفهم المنحرف متأثراً بسلوكيات المتطرفين الإسلاميين؛ ولاسيما روّاد ثقافة التكفير، ممن كفروا الجميع دون استثناء، فهم يعدون الجهمية كفاراً؛ لأنهم قالوا بخلق القرآن، ولكونهم جبرية، وينفون الصفات، ويعدون المعتزلة كفاراً؛ لأنهم قدرية، ويعدون الشيعة كفاراً؛ لأنهم بزعمهم يفضلون علياً على أبي بكر، مع أنهم - أي الشيعة- ليسوا قدرية ولا جبرية وإنما يقولون: (إنما هو أمر بين أمرين).

ويعدون الواقفة كفاراً؛ لقولهم: القرآن كلام الله ويقفون عندها، ولا يقولون إنه غير مخلوق، ويعدون اللفظية كفاراً؛ لقولهم ألفاظنا في القران مخلوقة، ويعدون المرجئة والخوارج كفاراً أيضاً.

وهو فهم يهدف إلى أبعد مما يظهر منه، فهو يؤكد بنحو جليٍّ على وجود بوادر نزاع أزموي كبير تلوح في أفق العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي، ومن المؤكد أن الطرفين كليهما يسعيان إليها، يسعى إليها الطرف الغربي من خلال السياسات التعسفية؛ ولاسيما منها محاولات السيطرة على ثروات المسلمين وإدارتها لصالحهم، وتسعى إليها أطراف إسلامية من خلال الأزمات التي تقع بين الفرق الإسلامية أنفسها، فالفرقة التي تتهم فرقاً إسلامية أخرى بالردة وتتهمها بالكفر، فتبيح قتل أفرادها ومصادرة أموالهم وسبي نسائهم، لن ترعوي عن معاملة الآخر غير المسلم بأقسى من ذلك، وهو ما يثير المخاوف التي تم تضخيمها إعلامياً لتبدو خطراً حقيقياً يتهدد الغرب!

وليس من المستغرب أن تحاول الدول العظمى الإفادة من هذا الصراع بحجة حماية السلم الدولي، ما دامت مدعومة بقوانين الأمم المتحدة ومنظماتها، وما دام الصراع التكفيري داخل البيت الإسلامي يتعاظم وينتشر! لقد عانينا نحن العراقيين بالأمس القريب من وطأة (البند السابع) الذي سلب كل حقوقنا، وهدر كرامتنا. والنزاع القائم اليوم بين مكونات شعبنا ممكن أن يؤدي بنا للوقوع تحت طائلة البند السادس الذي لا يقل عسفاً عن سابقه، فالبند السادس من بنود الأمم المتحدة الذي يقع تحت عنوان: (حل المنازعات حلاً سلمياً)، يتألف من ست مواد، من المادة (٣٣) إلى المادة (٣٨) من ميثاق الأمم المتحدة، ويمكن إيجاز موادّه، بأن الميثاق يطلب من الأطراف المتنازعة (حل أي نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدولي للخطر، وأن يلتمسوا حلّه بدءاً بالمفاوضة، والتحقيق، والوساطة، والتوفيق، والتحكيم، والتسوية الرضائية، أو أن يلجؤوا إلى الوكالات والتنظيمات الإقليمية وغيرها)، ولمجلس الأمن (الحق بأن يفحص أي نزاع أو موقف قد يؤدي إلى احتكاك دولي، أو قد يثير نزاعاً لكي يقرر ما إذا كان استمرار النزاع أو الموقف سوف يعرض للخطر حفظ

السلم والأمن الدولي)، وله الحق بأن يوصي طريقة الحل وما يراه مناسباً، (بضمنه عرض الموضوع على محكمة العدل الدولية وفقاً لأحكام النظام الأساسي لهذه المحكمة)، ويطلب البند السادس من الدول وفي حالة إخفاقها في حل النزاعات بالوسائل السلمية المذكورة (فيجب عليها عند ذاك عرض الموضوع على مجلس الأمن ليقدم مقترحاته).

وهذا يعني أن استمرار النزاع في العراق؛ وهو الذي تسبب به التكفيريون ممكن أن يكون فرصة للتنازل الطوعي إلى القوى العظمى عن الحرية والكرامة، مع أن الصراع القائم اليوم بين السنة والشيعة لم يكن بسبب اعتناقهما قيماً متضادة أو مفعمة بالمشاكل، وإنما لأن بعض الشيعة وبعض السنة فشلوا في أن يحققوا قيم كل منهم وأن يعيشوا على وفقها، وهذا بحد ذاته يؤكد وجود التطرف الديني والتكفير في العراق وفي العالم الإسلامي.

أما الذين ينفون وجود مشكلة التطرف، واعتباره حالة شاذة، تحدث في كل الملل والأمم، بدلالة وجود بوذيين متطرفين يضطهدون المسلمين في (ميانمار) مثلاً، فهذا لا يعني أن كل البوذيين متطرفون، أو بدلالة وجود يهود صهاينة يحتلون أراضيَ عربية ويضطهدون المسلمين، وهذا أيضاً لا يعني أن كل اليهود صهاينة، أو بدلالة حمل المسيحية قيماً دموية، حينما قتلت عشرات الملايين من البشر، إن كان من خلال الحروب الدينية في أوروبا، أو من خلال محاكم التفتيش واضطهاد المسلمين واليهود، أو حتى اضطهاد الكاثوليك للمذاهب المسيحية الأخرى، والعكس، أو من خلال الحربين العالميتين، أو من خلال الهجمات على دول أخرى مثل الحرب الأمريكية في فيتنام، والحرب ضد العراق، وهذا لا يعني أن كل المسيحيين دمويون.

والنتيجة إن مشكلتنا اليوم هي نفسها مشكلتهم قبل قرون، ومشكلة أمم أخرى في كل أرجاء الأرض، فنحن لا نختلف عن غيرنا، والقسوة التي تبدو على أعمال التكفيريين هناك مثلها في الثقافات الأخرى، لكننا نرفض منطق التأويل والتهرب؛ فمن العار أن لا نفيد من تجارب الآخرين، ومن المخزي أن نقع في نفس أخطائهم، والذين يرون ما يحدث في بلداننا

ولاسيما التكفير؛ لا يستحق البحث لأنه حالات فردية فقط ومحدودة التأثير لا تعدو كونها محاولات طائفية، ومشكلة إعلامية سببها تسليط الإعلام الغربي الضوء على عمل بعض الأشخاص، كلما صعد تنظيم سياسي عنيف في المنطقة. فهؤلاء يعترفون بوجود تنظيمات متطرفة وصعودها وقد أوقعوا أنفسهم في تناقض كبير.

فعندما يسود التعصب المذهبي والتطرف الديني والتكفير على حساب القضايا المصيرية للأمة، فإننا نفتح على أنفسنا جبهات تستنزف جهدنا، ووقتنا، وطاقاتنا؛ وعليه لا بد من أن تكون لغة الحوار والتفاهم بين المسلمين هي اللغة المعتمدة، بدلاً من لغة التكفير، والقتل، وإهلاك الحرث والنسل، فديننا يجمع ولا يفرّق، يبنى ولا يهدم، يُؤلّف ولا يُنفّر.

أما ما يبدو وكأنه تطور في مفهوم التكفير، فهو وهم خلقته حالة الفوضى فقط، التي أثارتها حركات الإرهابيين التكفيريين في بعض البلدان العربيّة والإسلاميّة والمختلطة، ولاسيّما بعد أن بسطت المجاميع الإرهابيّة سيطرتها الدمويّة على بعض المدن في سوريا، والعراق، وليبيا، وبعد ممارستها التكفير عمليّاً، وهي حالة شاذة فقط سرعان ما يطويها النسيان، لكن الزمن لن ينجح في القضاء على هذه الثقافة ما دام هناك من يدعمها في الداخل والخارج، فهي سلاح ذو حدّين يستخدمه العدوّ والصديق، لتحقيق ما تعجز عن تحقيقه السُّبل الأخرى!.

الفكر التكفيريّ
أطوار الصيرورة والتشكّل

الفكر التكفيريّ أطوار الصيرورة والتشكّل

الشيخ سعيد العكيليّ*

المقدمة

في زمن سادت فيه منهجيّة الأولويات المقلوبة، الناتجة عن قراءة مقلوبة هي الأخرى في فهم الإسلام عقيدةً...، وشريعةً...، وفكراً...، وثقافةً، وأخيراً سلوكاً وممارسةً.

فأنتجت تلك القراءة المقلوبة لعقيدة الإسلام وشريعته مدرسة جديدة لها عقائدها وفكرها؛ بل حتى فقهها الخاص الذي أصبح في ما بعد المورد التنظيري الوحيد لما يعرف اليوم (بالحركات التكفيرية).

والحديث عن هذه الحركات التكفيرية ليس ترفاً فكرياً، أو تبذيراً ثقافياً، وإنما هو حاجةٌ أكثر من ضرورية؛ بل باتت تتعلق بمصير شعوب بأكملها؛ ولاسيّما في المرحلة الراهنة التي باتت فيها هذه الحركات التكفيرية تمثل هاجساً للدول، وكابوساً مرعباً للشعوب المسلمة بالدرجة الأولى، إذ هي الأكثر تضرراً من غيرها...، فأرضها مسرحٌ لإجرام هذه الحركات، ومجتمعاتها هي الضحية الأولى لكل الممارسات الوحشية لهذه الحركات الضالة والمنحرفة.

وكل ما نراه من نكبات ونكسات...، وما نعيشه من ألم ووجع...، وما ننزفه من دماء، وكرامة، واستقرار إنما هو في الحقيقة يعود إلى عقيدةٍ وفقهٍ وفكرٍ أنتجته عقلية مريضة مولعة بسفك الدماء، ومهووسة بإشعال نيران الفتن بين المسلمين.

---

* باحث إسلامي – العراق.

ولأن مواجهة أي عدو تقتضي دراسة الفكر الذي يتبناه، والعقيدة التي يتبعها، فإننا وهذه الحال نجد لزاماً علينا أن نتوقف لندرس ما تتبناه هذه الحركات من عقائد وأفكار؛ إلى جانب ما نعيشه من أحداث ملأت المشرق والمغرب بصخبها وضجيجها؛ ولكن لا مناص من ذلك، فالعالم الإسلامي في مواجهة مباشرة مع هذه الحركات العنيفة والشرسة.

ولأن المواجهة تقتضي أن تدرس عقيدة العدو، ولاسيّما العدو الذي نواجهه اليوم - الحركات التكفيرية - إذ تتحرك على وفق أسس عقائدية وفكرية خاصة بها، وهي تعمل على استقطاب أتباع لها وتجنيدهم من خلال تلك العقائد والأفكار التي تقدمها للمراهقين أو للذين لا يملكون رصيداً كافياً من الثقافة الإسلامية التي تمكنهم من معرفة ماهية العقيدة التي تؤمن بها الحركات التكفيرية وتدعو لها.

ومن هنا جاء هذا البحث ليعرض الأسس العقائدية والفكرية لهذه الحركات مع عرض الأطوار التي مرت بها العقيدة التكفيرية، ويرافق هذا العرض إطلالة موجزة على تأريخ النشوء، ومراحل الصيرورة والتشكّل.

فكان البحث مشتملاً على عناوين ومواضيع عديدة، فقد تعرضنا فيها إلى بدايات تكّون الحركة التكفيرية، وهي التي كان الخوارج قد مثّلوها بنسخة بدائية يمكن أن توصف بأنها (ظاهرة) لا جذور راسخة لها، ولم تكن بعد قد صيغت عقائدها بقالب كلامي واضح.

ثم تحولت هذه الظاهرة البدائية إلى طور آخر حين صاغ ابن تيمية أسسها وعقائدها لتتحول من ظاهرة إلى عقيدة، فتابع البحث مسار التحول حين تحولت هذه العقيدة إلى دعوة على يد محمد بن عبد الوهاب لتأخذ صفة (الحركة التكفيرية)، فالحركة أصبحت عقيدة ودعوة، ثم انتقلت إلى طور آخر وهو الوصول إلى تأسيس مملكة قائمة على عقيدة تكفيريتين تمثلت بالمملكة السعودية التي كرّست مواردها الضخمة لنشر ما عرف في ما بعد بـ (السلفيّة الوهابيّة) التي تعدّ اليوم بمثابة الأم للحركات التكفيرية، والمصدر الوحيد للعنف الإجرامي الذي تعاني منه أغلب شعوب الأمة الإسلامية.

وبطبيعة الحال: إن التحول المرحلي يتبعه تحول فكري وعقيدي، وهذا يعني أن البحث وإن كان موضوعه هو البِنية الفكرية والعقيدية للحركات التكفيرية، فإنه في الوقت نفسه تتبع مراحل الصيرورة والتكوّن لعلاقته بموضوعة البناء الفكري والعقديّ للحركات التكفيرية.

الحركات التكفيرية البدايات والجذور

إن التتبع التاريخي لنشوء هذه الحركات والوقوف عند جذورها الأولى ليس بحثاً منفصلاً عن موضوعة (الفكر والعقيدة) الذي تتبناه الحركات التفكيرية؛ وإنما هو مقدمة أساسية للوقوف على ماهية هذه العقائد والأفكار والملابسات التي ساهمت في مولد هذا الفكر السرطاني، كما أنه سيكشف لنا الآباء الأوائل لهذه العقيدة التكفيرية والإجرامية.

اتفق الباحثون في التاريخ الإسلامي على أن أول حركة تكفيرية ظهرت على الساحة الإسلامية هي حركة الخوارج، وهي من أخطر الاتجاهات العقائدية التكفيرية التي مرت على الساحة الإسلامية، وهي أول من تجرأ على تكفير المسلمين، واستباحت دماءهم، وأعراضهم، وأموالهم، وقد عانت الأمة الإسلامية من هذه الفئة الويلات والمحن، واتسمت حركة الخوارج بسمات عدة منها:

السمة الأولى: إنها حركة ترفع شعاراً إسلامياً، وعلى أساسه تسفك دماء المسلمين، فالشعار كان (لا حكم إلا لله) والقتل كان يطال عباد الله.

السمة الثانية: إنها حركة ضمت في صفوفها كل الذين يرون الدين مظهراً لا فَهماً، وهذا ما روته صفحات التاريخ بتفاصيل دقيقة.

السمة الثالثة: إن قادتها وأتباعها لم يكونوا واقفين على أسس العقيدة الإسلامية أو الشريعة السمحة، فكانوا يجهلون أغلب المسائل العقائدية والفقهية، وهذا ما كشفته محاججة الإمام علي عليه السلام لهم.

السمة الرابعة: إن هذه الحركة أو الفرقة كانت لا تؤمن بالدعوة عن طريق الحوار بوصفه أساساً، أو أصلاً أولياً، وإنما كانت تؤمن بكمِّ الأفواه، وفرض فهمها ورؤيتها بالقوة.

السمة الخامسة: إنها كانت تؤمن بالعنف المسلح فقط، على وفق منهجية الأولويات المقلوبة، فهي كانت ترى أن الأولوية هي قتال (المسلمين المشركين)، في حين لم توجّه سيوفها إلى أعداء الإسلام، أو الدفاع عن ثغور المسلمين من الإمبراطوريات والدول التي كانت تشن الغارات على حدود البلاد الإسلامية وهذه نقطة جديرة بالتأمل.

كانت هذه هي السمات الأساسية التي اتصفت بها حركة الخوارج، وقد مثلت تحدياً فريداً من نوعه، فقد كانت كياناً غريباً على ثقافة الإسلام رغم تبرقعها وتمظهرها بالطقوس والمظاهر الإسلامية؛ لكن أفكارها كانت عبارة عن خليط من الجهل والتدين الفارغ من الوعي، وإلى نزعة شديدة لسفك الدماء.

لهذا حين فرغ الإمام علي عليه السلام من قتالهم بعد أن لم يتركوا له خياراً آخر؛ قال عليه السلام: « أما بعد حمد الله والثناء عليه، أيُّها الناس فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيبها - أي ظلامها - واشتد كلبها - أي شرّها-»[1].

كانت هذه الكلمات تريد أن تُفهم المسلمين أن هذه الحركة التكفيرية تمثل تهديداً وجودياً للإسلام، فهي من ناحية ترتدي أثواب النسك والعبادة، وترفع شعاراً إسلامياً، ومن ناحية أخرى هي تُدخل قهراً مفاهيم غريبة على الجسد الإسلامي، وتتعارض مع الثوابت الإسلامية، كما أنها لا ترى سبيلاً لإدخالها إلى نفوس المسلمين إلا بالسيف.

بعبارة أخرى: إن حركة الخوارج كانت تمثل تحدياً كبيراً أمام تشكيل وعي الأمة وثقافتها، إذ كانت مسؤولية الحفاظ على مسارها الصحيح تقع على عاتق الإمام علي عليه السلام، فالإمام أراد أن يبين للأمة أن هذه الشعارات الفارغة والمظاهر الزائفة قد يختبئ خلفها وتحتها الإجرام، والنفاق، والفساد، وعلى الرغم من أن الإمام عليه السلام تصدى لهذه الحركة التكفيرية؛ لكنه عبّر

---

(١) نهج البلاغة الخطبة: ٦٠، مكتبة الصدر إيران قم المقدسة.

بكلمة دقيقة حين قال ﷺ: «.... فإني قد فقأت عين الفتنة»، وهذا يعني أن الإمام فقأ عين الحركة التكفيرية، ولكن هذا لا يعني نهايتها، وإنما هو بداية الطريق الذي عليكم أن تسلكوه، وقد أقدمت على مواجهتهم كي أقدم لكم المسّوغ الشرعي، وارفع التردد المحتمل الذي قد تقعون فيه في ما لو اضطروكم للمواجه، وأن لا تخدعكم تلك الشعارات والمظاهر.

لذا قال ﷺ في حديث آخر: «والله إنهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء، كلما نَجَمَ - أي طلع - منهم قِرن - أي زعيم - قُطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين»[1].

وهذه إشارة من الإمام علي ﷺ إلى أن هذه الحركة ستظهر في كل جيل من الأجيال المتعاقبة على مراحل التأريخ، وأن مسؤولية التصدي لها ستبقى مستمرة على عاتق الأمة.

وهكذا كانت حركة الخوارج حركة تكفيرية بدائية، لكنها وضعت أول حجر للبناء الفكري والعقائدي للتكفير والإجرام، فهي دشّنت ثلاثة أسس ستعمل الحركات التي تليها على البناء عليها، والتنظير لها على المستوى العقائدي والفقهي، والفكري، والأسس هي:

الأساس الأول: تكفير المسلمين الناتج عن منهج خاطئ في التعاطي مع النصوص القرآنية، سواء من ناحية الفهم أم من ناحية التطبيق.

الأساس الثاني: استباحة دماء كل المسلمين وأموالهم، وأعراضهم، مِمَّن يرفضون ما تتبناه الحركة التكفيرية (الخوارج).

الأساس الثالث: اعتماد منهج العنف المسلح في نشر آرائهم وعقائدهم.

وهذه الأسس الثلاثة سيقوم المُنَظّر الأول لعقيدة التكفير في اعتمادها بصفة أصل ثابت يشيّد عليها مقولاته العقائدية...إنه ابن تيمية.

---

(١)نهج البلاغة الخطبة: ٦٠، مكتبة الصدر إيران قم المقدسة.

الحركة التكفيرية من الظاهرة إلى العقيدة:

كانت الحركة التكفيرية تنتظر من يقوم بمهمة التنظير العقائدي لها، ويطرح آراءها بقالب كلامي له أدلته ومبرراته كما يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن تلك الآراء ورد النقوض والإشكالات.

وبالفعل جاء دور ابن تيمية وهو شخصية أسست لفكر تكفيري أشد من الفكر التكفيري البدائي الذي أنتجته عقلية الخوارج، وابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني المولود عام ٦٦١ هـ في حرّان.

كان ابن تيمية قد أخذ على عاتقه تصنيف الكتب والمؤلفات والرسائل التي ملأها بآراء شاذة، سواء كانت في العقيدة أم الفقه، ثم راح يشعل نيران الخلافات بين الطوائف الإسلامية، وأخذ قلمه يدك بفتاوى التفكير المجتمع الإسلامي بمختلف مذاهبه ومشاربه.

فقد اتسمت عقائد ابن تيمية وأفكاره بالحدة، والتعصّب، والجرأة على اتهام المسلمين بالكفر؛ إلى جانب أن عقائده هو نفسه كانت شاذة ولم تُبنَ على استدلال رصين.

ولعل جملة من آرائه الكلامية التي كفّر على أساسها المسلمين هي نفسها قد توقعه بالكفر منها:

أولاً: اعتقاده بأن الله سبحانه وتعالى جسم

إذ يقول ابن تيمية: «... وأما النفي، فنفيتم عن الله تعالى أشياء لم ينطق بها كتابٌ ولا سنّة، ولا إمام من أئمة المسلمين، بل والعقل لا يقضي بذلك عند التحقيق، وقلتم: إن العقل نفاها، فخالفتم الشريعة بالبدعة، وخالفتم العقول الصريحة، وقلتم ليس هو بجسم، ولا جوهر، ولا متحيز في جهة...»[1].

---

(١) ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ج ٣ ، ص٥٤. تحقيق الدكتور أحمد معاذ حقي مجمع الملك فهد ، ط ١٤٢٦هـ المدينة المنورة

ونلحظ هنا أن ابن تيمية اتهم جميع المسلمين أو بالأحرى علماء المسلمين بالبدعة، إلى جانب أن القول بالجسمية هو خلاف العقيدة الإسلامية.

ثانياً: تحريمه لزيارة قبر النبي ﷺ

يقول ابن تيمية: «... بل نفس السفر لزيارة قبر من القبور - قبر نبي أو غيره - منهي عنه عند جمهور العلماء، حتى إنهم لا يجوّزن قصر الصلاة فيه...»(١).

وهذه الفتاوى شكّلت صدمة للأمة الإسلامية واعتبرت تطاولاً على مقام سيد الرسل.

ثالثاً: تشكيكه في إسلام الإمام علي عليه السلام.

يقول ابن تيمية: «... وأما إسلام علي هل يكون مخرجاً له من الكفر على قولين مشهورين ومذهب الشافعي أن إسلام الصبي غير مخرج له من الكفر»(٢).

كان تكفير ابن تيمية للإمام علي عليه السلام هو أبشع صور التضخم، والتورم التكفيري في عقيدة ابن تيمية، فالرجل لم يتجرأ فقط على تكفير المسلمين وإنما راح يكفر أئمة المسلمين ويأمر بسفك دمائهم.

وقد استطاع أن يجمع حوله كثيراً من رعاع الناس وجهلتهم، وهؤلاء هم دائماً يشكّلون الأتباع لمثل هذه العقيدة، هذا ما كشفته رسالة الذهبي إليه حين كتب قائلاً: إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك، إلى كم تمدح نفسك وشقائقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس...

فهل معظم أتباعك إلا قعيد، مربوط، خفيف العقل أو عاميّ، كذاب، بليد الذهن، أو غريب، واجم، قوي المكر، أو ناشف، صالح، عديم الفهم؛ فإن لم تصدقني ففتشهم، وزنهم بالعدل(٣)؛ فالأتباع جماعة من الجهلة الذين لا يفقهون من الإسلام سوى بضعة مسائل،

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوي الكبرى :ج٤ ،ص ٢٥٠ دار الوطن ، الرياض ١٤٠٧ هـ.
(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ج ٤، ص ٢١٨- ٢١٩ ، ط بولاق.
(٣) الشيخ جعفر السبحاني، ابن تيمية فكراً ومنهجاً : ص ١٤-١٥ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

وكبيرهم رجل متعصب، وحاد الطباع.

يقول أبو زهرة: «...ولعله كان كذلك؛ بل نجزم بأنه كانت فيه حدة وشدة...»(١).

فإذا أضفنا إلى كل ذلك عقيدة كرست كل تعاليمها، ورؤاها، ومفاهيمها لإشعال نيران التكفير، والإخراج من الدين للأمة الإسلامية فإننا بالتأكيد سنكون أمام أزمة كبيرة جداً.

واستطاع ابن تيمية أن ينتقل بعقيدة التكفير البدائية التي ابتدعها الخوارج إلى مرحلة (العقيدة المصاغة بأطر الجدل الكلامي) وفق منهج لا علمي وإنما يغلب عليه التلاعب بالأدلة وفق ما يمليه عليه هواه وتعصبه؛ ليسلك مسار الأولويات المقلوبة في نهاية المطاف.

والسؤال المهم الذي يطرح هنا هو: ما هذه النقلة النوعية في العقيدة التكفيرية التي قام بها ابن تيمية بحيث نقل العقيدة التكفيرية البدائية للخوارج إلى عقيدة تكفيرية منظر لها بكتب ورسائل؟

في الحقيقة تتلخص الإجابة بما يأتي:

أولاً: إنه أثار مسائل عدة في علم الكلام الإسلامي وحاول أن يدلّل على تكفير المسلمين الذين خالفوه في معتقداته بأسلوب المتكلمين التقليدي.

ثانياً: عمل جاهداً على استهداف طوائف معينة من المسلمين وكرس كثيراً من كتبه لإثبات كفرهم وارتدادهم.

ثالثاً: إنه عمل وبنحو غير مألوف على إثارة مسائل جزئية، وضخمها ليجعل منها علامة بارزة تميز عقائده وآراءه الكلامية، وهذه ممّا لا شكّ فيه أنها نقلة في عملية البناء العقائدي للحركة التكفيرية، فقد أصبح لها رافد فكري جديد يساجل ويجادل ويستدل ويقدم ما يعتقد أنه أدلة وبراهين على صحة فكره وعقيدته.

---

(١) محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره آراؤه وفقهه: ص ٢٩ دار الفكر العربي، القاهرة ط ١٩٩١م.

أما المنهج الذي اتبعه ابن تيمية في بنائه الجديد للعقيدة التكفيرية فهو يتلخص بما يأتي:

أولاً: إنه كان يتلاعب في فهم النصوص الدينية - قرآنية ونبوية - فيحرّفها عن مرادها ويسوقها إلى غير مقصدها.

ثانياً: إنه ضرب العديد من الأحاديث متناً، ودلالة بالتضعيف والرفض؛ لأنها كانت تقف عائقاً أمام ما يريد الوصول إليه من نتائج، رغم أن هذه الأحاديث مسلّمة ومجمع على صحتها سنداً ودلالة.

ثالثاً: كان يكذب في نسبة الآراء والمعتقدات إلى خصومه والرافضين لعقائده.

وأخيراً اندفع ابن تيمية سالكاً مسار الأولويات المقلوبة؛ إذ أخذ يحرّض على سفك دماء المسلمين وقتلهم؛ إذ لم يجد وسيلة أخرى لفرض عقائده غير أسلوب (العنف المسلح).

يقول محمد أبو زهرة: «... لم يجعل له صديقاً - أي ابن تيمية - فالطوائف الكثيرة أغضبها، قاد الجيوش لمحاربة الشيعة، وحاول أن يجتثهم من مقاهم، وقتلتهم جيوش السلطان الناصر بإرشاده، ودعوته، وقطع أشجارهم...، وحارب الصوفية، وانطلق لسانه في إمام الصوفية وفيلسوفهم محيي الدين بن عربي، وأخذ يحرض أولياء الأمر عليهم»[1].

نعم، فقد كان هَمّ ابن تيمية هو البطش بالمسلمين بعد تكفيرهم ونعتهم بالكفرة والمشركين.

ففي الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية تعاني المحن، والويلات، والنكبات، جاء ابن تيمية ليزيد الأزمات تأزماً، ويمزّق ما هو ممزّق أشد تمزيق.

حتى قرّر عدد من علماء الأزهر التصدي له، وتعرية عقائده، وتجريم أفكاره؛ مما دعا سلطان مصر إلى الأمر بحبسه في قلعة دمشق، ولم يخرج منها إلا وهو جثة هامدة عام ٧٢٨هـ.

هلك ابن تيمية ودُفِنَت عقائده التكفيرية معه، وعلى الرغم من أن تلامذته سعوا جاهدين

---

(١) محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره آراؤه وفقهه: ص ٤٤.

إلى إبقاء عقائده حيّةً؛ لكنهم لم ينجحوا في ذلك، وإن كانت الأمة قد استراحت من فتنته التي أشعلها؛ لكن هذه الراحة لم تدم طويلاً؛ إذ لم تمضِ سوى بضعة قرون حتى أعيدت تلك العقائد التكفيرية لتصاحبها موجة عنف وقتل أغرقت المسلمين في بحر من الدماء والدموع.

الحركة التكفيرية من العقيدة إلى الدعوة

كانت أفكار ابن تيمية وعقائده تبحث عمن ينبشها من بين الركام، ويعيدها إلى ساحة الوجود، وبالفعل جاء من يأخذ دور الداعية لهذه العقائد بعد (٣٨٧) عاماً من هلاك ابن تيمية؛ إنه محمد بن عبد الوهاب المولود عام (١١١٥هـ) في منطقة العيينة بنجد [١]، وراح محمد بن عبد الوهاب ينبش عقائد ابن تيمية، وينفخ فيها الروح بعد أن تعرّف على مؤلفاته في أثناء إقامته في الشام.

يقول أحد المترجمين لحياته: «...طلب محمد بن عبد الوهاب العلم في دمشق، وتشّرب مبادئ الإمام الحافظ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية [٢]. ولم يزد محمد بن عبد الوهاب شيئاً للعقيدة التكفيرية من ناحية التنظير، وإنما كل ما فعله هو فرضها على المسلمين بالقوة، واعتبر كل من يخالفه مشركاً أو مرتداً مباح الدم، والمال، والعرض».

ورفع محمد بن عبد الوهاب شعار (الدعوة إلى التوحيد) التوحيد الذي ابتدعه هو، وكفّر المسلمين على أساسه علماء وعوام؛ إذ يقول: «... واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً لهذا التوحيد إلا وجعل له أعداء، وقد يكون لإعداء التوحيد علوم كثيرة وحجج... فإذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلم وحجج...، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين... والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين» [٣].

---

(١) محمد عوض الخطيب: صفحات من تأريخ الجزيرة العربية الحديث، ص ٦٠، مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

(٢) مقدمة كتاب في عقائد الإسلام من رسائل محمد بن عبد الوهاب ، منشورات دار الافاق الجديد ، تعليق محمد رشيد رضا ، ط ١٩٨١ م.

(٣) المصدر السابق: ص ٨.

إن هذه العبارات تكشف وبوضوح أن محمد عبد الوهاب كان يعرف جيداً أن دعوته لن تجد لها طريقاً إلى قلوب المسلمين، وأن العلماء سيتصدون لها، لذلك وصفهم بالمشركين والشياطين، وهكذا كان محمد بن عبد الوهاب داعية إلى التكفير والقتل، وقد اتسمت دعوته التي استقاها من عقائد ابن تيمية بما يأتي:

أولاً: خالفت جميع المسلمين في جملة من العقائد؛ منها أنها أنكرت الشفاعة، ومسألة التوسل إلى الله بالأنبياء والصالحين، كما أنها حرّمت زيارة قبور الأنبياء والأولياء، واعتبرت كل من يعتقد بهذه المسائل كافراً ومشركاً.

ثانياً: اتسمت الدعوة بالعنف المسلح، فقد كانت دموية بنحو رهيب ومرعب؛ إذ لم يكن يتورع ابن عبد الوهاب عن تكفير المخالف له، وإباحة دمه وعرض وأمواله.

ثالثاً: كانت دعوته لا تؤمن بالحوار والنقاش العلمي؛ وإنما كانت تعتمد على أسلوب (الكل يخرس وأنا من يتكلم فقط؛ لأن الحق معي أنا فقط).

والذي منح الدعوة التكفيرية قوة وفاعلية هو انتشارها وسط مجتمعات بدوية متخلفة، وكان أتباعهم كلهم من الذين لا يفقهون من الحياة شيئاً سوى الغزو، والقتل، والسلب، وهذا ما استغله محمد بن عبد الوهاب أيما استغلال؛ لأن نوعاً هكذا من الأتباع يناسب البناء الفكري والعقائدي للدعوة التكفيرية التي تبناها، فأهم ما بنيت عليه الدعوة الوهابية هو ما يأتي:

أولاً: عقيدة بنى مبادئها ابن تيمية، هي نتاج قراءة خاطئة للدين، وكثيراً ما كانت آراؤه بلا دليل، ولا يدفعه إلى تبنيها سوى تعصبه وهواه، أما ما توهمه من أنه دليل فهو ليس سوى مغالطة مفضوحة لن تصمد أمام أدنى تأمل من أهل العلم في محتواها.

ثانياً: منهج تكفير دأب على تطبيق الآيات والأحاديث التي تتحدث عن المشركين والكفار...، دأب على تطبيقها على المسلمين الذين لم يتفقوا معه حول القضايا التي نادى بها من إدخال عدد من المعتقدات والممارسات في حقل البدعة.

ثالثاً: اعتماد العنف المسلح في فرض تعاليم الدعوة، وإضفاء صفة الجهاد عليه في حين أن المستهدف هم المسلمون الرافضون للدعوة التكفيرية؛ لكن هذا المنهج الخاطئ في تطبيق مداليل الآيات على الواقع الخارجي كان أهم حجر - إن جاز التعبير- وأبرزه في بناء الدعوة التكفيرية.

وكل هذه الأسس كانت تناسب أتباع محمد عبد الوهاب فهم المسلمون لا غير، وقتل الآخرين - من المسلمين - جهاد في سبيل الله، وأموالهم غنائم، وأعراضهم سبايا، وهذا ما يبحث عنه أتباع الدعوة الوهابية، فاستطاع داعية التكفير أن يجمع حوله الأتباع ويعقد التحالفات.

وكان من بين أخطر هذه التحالفات هو التحالف الذي عقده محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن سعود، وهو الذي دشن مرحلة انتقال الدعوة التكفيرية إلى مملكة تكفيرية وهابية ستمارس دوراً خطيراً في ما بعدُ، على الساحة العربية والإسلامية.

الحركة التكفيرية من الدعوة إلى المملكة

كان التحالف المشؤوم قد عُقد بين رجلين أحدهما يطمح لتولي منصب (الإمامة) للدعوة التكفيرية، والآخر كان يطمح لتولي (الإمارة) للمملكة التكفيرية السلفية، كانت هذه المملكة تشكل المشروع السياسي والديني لعقيدة التكفير، وهي تجربة غريبة شكلاً ومضموناً على الساحة الإسلامية، فهي في الواقع تطبيق عملي لنظريات الدعوة التي نادى بها محمد بن عبد الوهاب، وهذه الدعوة كانت مستوحاة من الأسس العقائدية التي شيدها ابن تيمية، وابن تيمية هذا سار على منهج الخوارج في قراءته وتعاطيه مع النصوص الدينية، فكانت هذه المملكة نتاجاً لكل تلك التراكمات، وما إن أعلن عن مولد هذه المملكة حتى باتت ملامح حقبة جديدة من المحن التي عصفت برياحها المدمرة على الأمة الإسلامية.

فقد اعتبر محمد عبد الوهاب أن الجهاد ضد المسلمين (الكفار المرتدين والمشركين) هو الهدف الأسمى للمملكة، وهذا ما تصرح به رسائله التي دأب الوهابيون على تلاوتها؛ وكأنها

آيات قرآنية، ففي إحدى رسائل محمد بن عبد الوهاب كتب قائلاً لأحد أتباعه: فإذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك، وعرفت دين الله الذي بعث فيه الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، وعرفت ما أصبح عليه غالب الناس اليوم فيه من الجهل.

ويقول أيضاً: «إن التوحيد الذي جحدوه - أي المسلمين - هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون - أي المسلمين - في زماننا الاعتقاد...، وعرفت أن رسول الله قاتلهم ليكون الدين كله لله، والدعاء كله لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام...»[1].

هذه الأوصاف التي وصف بها داعية التكفير الأمة الإسلامية أمة جاهلة، وأمة مشركة، وأخيراً يجب إعلان الحرب عليها لدعوى الجهاد، ومنها شنَّ الوهابيون عدداً من الهجمات على قرى المدن المجاورة لهم، وسفكوا الدماء، وأوقعوا القتل، والنهب، والسلب، والتشريد في سكان هذه القرى والمدن، وكان أول عمل يقومون به حين يقتحمون قرية أو مدينة يعمدون إلى المراقد - مراقد الأنبياء والأولياء الصالحين- فينهبونها، ويهدمونها، وكانوا لا يستثنون من القتل حتى الأطفال والنساء، هذه الممارسات والفظائع هي التي ابتدأت بها المملكة الوهابية أولى خطواتها بعد تأسيسها.

ولعل أشهر جرائمها الهجوم على كربلاء المقدسة عام ١٨٠٢م، حين اجتاحت جموع من الوهابيين هذه المدن الآمنة، وبطشوا بأهلها، ونهبوا دورها وأسواقها، وقبل ذلك اعتدوا على مرقد الإمام الحسين عليه السلام، وكان هذا السلوك كاشفاً عن حجم التعبئة التكفيرية التي شحنتها الدعوة الوهابية في عقول أتباعها.

وليس غريباً أن تبرز هذه الممارسات بصفة منهج علني للمملكة الوهابية السعودية؛ لأن جينات الخوارج كانت قد انتقلت عبر هذا التطور المرحلي للعقيدة التكفيرية، وهذا ما دعا

---

(١) محمد بن عبد الوهاب، في عقائد الاسلام: ص٢ - ٨.

العديد من الباحثين لدراسة الترابط الفكري والمنهجي بين الخوارج والوهابيين؛ ولعل من أهمهم العلامة السيد محسن الأمين؛ إذ ذكر عدداً من أوجه التشابه بين الخوارج والوهابيين منها:

- إن الخوارج قد رفعوا في حربهم على المسلمين شعار (لا حكم الا لله)، وهي كلمة حق يراد بها باطل، وكذلك كان شعار الوهابيين (لا دعاء إلا لله...، لا شفاعة إلا لله...، لا توسل الا لله)؛ ونحو ذلك من كلمات حق يراد بها باطل، فهي كلمات حق؛ لأن المدعو والمتوسل به حقيقة لدفع الضرر، وجلب النفع، والمُغيث الحقيقي، ومالك أمر الشفاعة هو الله، ويراد بها باطل؛ لأنه منعٌ لتعظيم من عظّمه الله بدعائه والتوسل به؛ ليشفع عند الله تعالى ويدعوه لنا؛ وعدم جواز التشفع والاستغاثة والتوسل بمن جعله الله شافعاً مغيثاً وجعل له الوسيلة من المسلمين.

- إن الخوارج كانوا متصلبين في الدين، مواظبين على الصلوات وتلاوة القرآن، والبعد عن المحرمات، كذلك الوهابيون متصلبون في الدين يؤدون الصلاة في أوقاتها، ويواظبون على العبادة، ويطلبون الحق وإن أخطؤوا، ويتورعون عن المحرمات حتى بلغ من تورعهم أنهم توقفوا عن استعمال التلغراف.

- إن الخوارج قد كفّروا من عاداهم من المسمين، واستحلوا دماءهم، وأموالهم، وسبوا ذراريهم، وقالو: إن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر، كذلك الوهابيون حكموا بشرك من خالفهم في معتقداتهم، واستحلوا أموالهم ودماءهم، وبعضهم استحل سبي الذرية، وجعلوا دار الإسلام دار حرب، ودارهم دار إيمان تجب الهجرة إليها، وحكموا بقتال تارك الفرض وإن لم يكن مستحلاً، كما في الرسالة الثانية من رسائل الهدية السنية، ونقلوه أيضاً عن ابن تيمية.

- استند الخوارج في شبهتهم إلى ظواهر بعض الآيات التي زعموا أنها تعتبر كل كبيرة كفراً، والوهابيون كذلك استندوا في هذه الشبهة إلى ظواهر بعض الآيات التي توهموا أنها

دالة على اعتبار الاستغاثة والاستعانة بغير الله شرك، وعلى غير ذلك من معتقداتهم، كما ظهر من استشهادهم بالآيات التي لا دلالة فيها على معتقداتهم [1].

هذه بعض أوجه التشابه بين أتباع العقيدة التكفيرية بنسختها البدائية أعني الخوارج، وبين أتباع العقيدة التكفيرية بنسختها الجديدة أعني الوهابيين وهذا التشابه لم يأتِ عن طريقة صدفة عمياء صماء، وإنما كان هذا تطور طبيعي وارتباط عضوي بين الفرقتين.

واستمرت المملكة الوهابية بفرض عقائدها وأفكارها في عهودها الثلاثة، كما أنها حرصت كل الحرص على تلقي مبادئ الدعوة الوهابية، وحرص أبناء ابن عبد الوهاب مع أبناء آل سعود على إبقاء التحالف التاريخي بين العائلتين ساري المفعول رغم كل التعقيدات التي واجهت مسيرة الدعوة والمملكة؛ لكن من المهم أن لا نغفل دور (قوى الاستكبار العالمي) في نشوء هذه المملكة ابتداءً من بريطانيا وانتهاءً بالولايات المتحدة الأمريكية، وأخيراً الدور الذي لعبته كل هذه الأطراف في ظهور (حركات التكفير والإجرام) على الساحة الإسلامية والعالمية، فقد مارست بريطانيا دوراً أساسياً في إقامة مملكة آل سعود الوهابية، ثم جاءت أمريكا لتمارس دور الحارس والمدافع عن هذه المملكة؛ لكن كل هذه الأطراف ستسهم في ما بعد في صناعة عدد من الحركات التكفيرية، التي عملت جاهدة لخدمة المخططات المعادية للإسلام.

ولكن قبل هذا كله علينا أن نعرف الدور الذي مارسته هذه المملكة في رسم الخريطة العقدية والفكرية للحركة التكفيرية عموماً.

دور المملكة الوهابية في البناء العقائدي والفكري للحركة التكفيرية

كان للمملكة الوهابية لآل سعود في نجد والحجاز دورٌ كبيرٌ في إعادة صياغة المنظومة العقائدية للحركة التكفيرية (عموماً)، والعمل على نشر مبادئها وثقافتها في أوساط الطائفة السنية بنحو خاص، ومما ساعد على ذلك هو عوامل عدة، منها:

---

(١) السيد محسن الأمين: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب.

العامل الأول: إن المملكة الوهابية اعتبرت نفسها أُمّاً لكل الجماعات التي تعتنق الدعوة الوهابية، وهي محقّة في ذلك، ومن هنا أصبحت بمثابة الراعي والمرشد لهذه الجماعات، خصوصاً أن المملكة هي التطبيق العملي للدعوة الوهابية، وهذا ما أكسبها صفة المرجعية الفكرية والعقائدية لكل هذه الجماعات.

العامل الثاني: إن المملكة الوهابية سيطرت على الحجاز، وفي الحجاز (الحرمين الشريفين) وهما من أقدس المقدسات عند المسلمين، فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي هما قبلة جميع المسلمين ومقصدهم، وهذا ما أكسب المملكة نفوذاً واسعاً وكبيراً بين شعوب الطائفة السنيّة.

العامل الثالث: وهو عامل اقتصادي؛ فقد وفرت عوائد البترول ثروات طائلة لخزينة المملكة، وقد استُثمر جزء كبير من هذه الأموال في الدعاية لعقيدة الدعوة الوهابية، وهي التي بطبيعة الحال ترجع إلى العقيدة التكفيرية.

العامل الرابع: التحالف الاستراتيجي بين المملكة الوهابية وقوى الاستكبار العالمي، وفي مقدمتها بريطانيا، وأمريكا، فقد سمح هذا التحالف للمملكة الوهابية أن تمد نفوذها الدعوي للعقيدة الوهابية التكفيرية إلى العديد من البلدان من دون أي اعتراض لهذه القوى؛ بل على العكس شاركت هذه القوى في إفساح المجال لهذا النفوذ في كثير من المواقع، وفي حال كان هناك اعتراض من الكيانات المحلية في هذه المواقع، فإن القوى الاستكباريّة كانت تتدخل لتضغط على هذه الكيانات كي تغظ الطرف عن تمدد النفوذ الوهابي.

هذه هي العوامل التي جعلت من المملكة السعودية الوهابية محوراً في صياغة أطر جديدة للعقيدة التكفيرية، وعملت جاهدة على ترسيخ جملة من المعتقدات، والعمل على حقنها وبجرعات كبيرة في جسد العقيدة السلفية الوهابية التكفيرية.

ومن هذه المفاهيم:

١-تطبيق الشريعة. ٢- فريضة الجهاد. ٣- حكم الخلافة.

• أما المفهوم الأول فقد عملت المملكة الوهابية ومن خلال نفوذها الذي سمح لها ببناء المساجد والمراكز الدينية في عدد كبير من دول العالم على نشر فهمها الخاص في الشريعة، وكيفية تطبيقها، فقد جعلت منه محوراً أساسياً لمشروعها، ولسنا هنا في مورد الاعتراض على الشريعة بالتأكيد، وإنما الاعتراض على الفهم الوهابي للشريعة وكيفية تطبيقها.

وبالفعل راح الدعاة الوهابيون يستغلون هذا الشعار، ويزقونه في عقول الشباب (السني) زقاً، وهذا ما جعلهم يتشربون الفكرة بصورة خاطئة؛ ولكن في المحصلة رسخت وتم إشباعها تأصيلاً ودعوةً من قبل المُنَظّرين لها من الدعاة الوهابيين، وأصبحت من أهم المرتكزات الفكرية التي تعد الهدف الأساسي؛ وبعبارة أدق: الشعار الأساسي لكل أتباع الدعوة الوهابية، فقد قدمت السعودية تجربتها إلى جانب النظرية.

• أما المفهوم الثاني فقد تم طرحه بمعزل عن مقاصده وأهدافه، وبدلاً من أن يكون الجهاد وسيلة للدفاع عن الإسلام والمسلمين راح الفهم الوهابي يقدمه على أنه طريقة لتطهير الأرض من المرتدين الذين يعارضون تطبيق الشريعة - بالفهم الوهابي طبعاً- ومن هنا أخذت قضية الجهاد منحًى آخر غير الذي شُرِع لأجله.

• وأما المفهوم الثالث فإنه هو الآخر من الأساس لم يكن من العقائد السنيّة أصلاً، وإنما تمَّ عدّهُ من الفروع؛ لكن الوهابيين جعلوه مشروعهم الأول، واعتبروا (الخليفة) هو الحاكم الشرعي للمسلمين، وأن أي نظام حكم غير الخلافة هي أنظمة طاغوتية يجب إسقاطها، وأن كل حاكم من حكام هذه الأنظمة بمنزلة الكافر الذي يجب جهاده.

كانت المملكة الوهابية تشعر بالارتياح إزاء الطرح؛ لأنه - وبحسب الظاهر- تحكم بالشريعة، وإذا كان هناك مشروع خلافة فإنها ستكون هي القائد لهذا المشروع؛ لما تتمتّع به من نفوذ واسع اكتسبته من سيطرتها على الحرمين الشريفين.

كان العمل يجري على تضخيم هذه المفاهيم الثلاثة وبكثافة في جسد العقيد التكفيرية إلى جانب عدد من المفاهيم الأخرى (كالتوحيد والشرك وزيارة القبور... إلخ).

وهذه المفاهيم يرتبط بعضها ببعض؛ فالتوحيد كان يطرح على أساس الرؤى العقيدية لمحمد بن عبد الوهاب، وعلى أساس هذه الرؤية راحت العقيدة التكفيرية تخرج من تشاء من عقيدة التوحيد وفق الضوابط التي تضعها مبادئ العقيدة التكفيرية، كما أنها أخذت تدخل بالشرك أفواجاً من المسلمين كذلك وفقاً للضوابط التي تضعها لمفهوم الشرك بالله، ولعل من أبرز ضوابط الشرك التي وضعتها العقيدة التكفيرية التي تدخل المسلم بالشرك هي زيارة القبور، وأصبحت مهووسة في هذه القضية لا همّ لها سوى هدم قبور الأنبياء، والأولياء، وتكفير المسلمين بسبب قداسة هذه المراقد.

ومن هنا، إن المملكة مفهوم جديد للمعتقدات التكفيرية، فمشروع المملكة تحول إلى مشروع خلافة ومفهوم الجهاد تحول من قتال داخلي بين القبائل في التوحيد - بالفهم الوهابي - إلى استئصال كل المرتدين (المسلمين)، وإزالة المظاهر الشركية، ومن أهمها المراقد المقدسة للأنبياء، والأولياء، والأئمة ﷺ.كانت عملية التثقيف والتعبئة لمبادئ الدعوة والعقيدة التكفيرية (الوهابية) تجري على قدم وساق، وبوتيرة عالية في المؤسسة الوهابية في المملكة السعودية، فهي قد نقلت الدعوة من دعوة (عشوائية) الى دعوة (ممنهجة) وهذه نقلة كبيرة في مسار الدعوة الوهابية والحركة التكفيرية عموماً وتمثلت هذه النقلة بإقامة جامعات، ومعاهد، ومدارس تعمل على نشر العقيدة الوهابية، وهي في حقيقتها وليدة العقيدة التكفيرية.

فساهمت هذه المؤسسات التعليمية، وإلى جانبها المشاريع الاقتصادية، وما يعرف بالمؤسسات الخيرية إلى جلب قطاعات واسعة من الناس إلى العقيدة الوهابية؛ ولاسيما من الشعوب السنية؛ وهذا ما مهد بمولد أول حركة تكفيرية عقائدية (جهادية) كانت نتاجاً لزواج غير شرعي بين المملكة الوهابية وأمريكا حين ولد ما عرف بـ (المجاهدين العرب الأفغان)؛ إبّانَ الغزو السوفيتي لأفغانستان.

ففي تلك المرحلة استغل مفهوم الجهاد الذي تم تضخيمه في أوساط أنصار العقيدة الوهابية؛ لأجل مخططات ومشاريع كانت ترسم إبّانَ الحرب الباردة، واستطاعت هذه الحركة وبمساعدة التنظير العقائدي والدعم المالي من المؤسسة الوهابية السعودية، واللوجستي العسكري من أمريكا... أن تثبت وجودها في هذه الحرب، وكانت هذه مرحلة جديدة في عملية اختبار البِنية الفكرية للعقيدة التكفيرية، فقد طبقت مفهوم (الجهاد) ومارسته عملياً على الأرض، وها هي تتصور أن هزيمة الامبراطورية السوفيتية (الشيوعية الملحدة) إنما تحقق بالجهاد فقط.

لكنها غفلت أو تغافلت عن العوامل الأخرى وفي مقدمتها التسليح الأمريكي؛ ولأن حركة المجاهدين العرب الأفغان ابتدأت بتطبيق فريضة الجهاد فقد أُتخمت بالخطابات الحماسية الجهادية، وتم تعبئة أتباعها بالفكر الجهادي، وهذا ما جعلها تكتسب صفة (الحركة الجهادية) وبالتأكيد - ونحن عندما نذكر مفردة (جهادية) - فإننا نعني بها الجهاد بالمفهوم السلفي الوهابي لا الجهاد بمفهومه الإسلامي الصحيح.

وعلى أساس ما مر نفهم أن الحركة التكفيرية كانت تتبع استراتيجية محددة في التعامل مع متبنياتها الفكرية والعقدية تتلخص بما يأتي: إن الفكرة تكتسب محوريتها من الميدان بمعنى أن أي فكرة تتبناها نظرياً، ويتاح لها التطبيق على أرض الواقع، فإنه وبغض النظر عن موقعها في السلسلة الهرمية للمنظومة العقائدية المتبناة إذا سمحت لها الظروف بتطبيقها فإنها ستكون لها الأولوية في العمل الميداني؛ ومن هنا: إن الجهاد الركيزة الأولى للفكر التكفيري، فقد نجح بوصفه مشروعاً في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي التي تم خوضها تحت شعار محاربة الشيوعيين الملحدين؛ ولكن بعد أن انتهت الحرب، وتم إخراج السوفيت من أفغانستان كانت فصائل العرب الأفغان المشبعة بثقافة (الجهاد) على موعد جديد مع تحولات فكرية وعقائدية ولاسيما أنها باتت ترى أنها حققت خطوات كبرى على المستوى الميداني، ولابد من أن يرافق هذا التقدم الميداني تقدماً في طرح أفكار أكثر جرأة وصرامة؛ لأن جرأتها وصرامتها لا تمنع من تطبيقها مادامت أداة التطبيق والفرض متوفرة ومفعلة وهي الدعوة إلى الجهاد.

الحركة التكفيرية مرحلية المسار والتحولات في البنية العقائدية والفكرية

إلى هنا نعرف أن المنهج التكفيري كان في كل مرحلة من مراحل الصيرورة والتشكل يركز على أحد أعمدة بنائه الفكري، ويزيد من تدعيمه بما يناسب الظروف والفرص والإمكانات والمناخات.

ففي الوقت الذي كانت فيه الحركة التكفيرية تخوض حرباً كلامية مع باقي المسلمين في طور التنظير العقائدي، كانت تخوض أيضاً حرباً دموية في عهد الدعوة الوهابية تحت شعار (الدعوة إلى التوحيد)، فأصبحت في تلك المرحلة منشغلة في نشر التوحيد الوهابيّ، واعتبرته هدفها الأول والأخير، فكانت تلجأ إلى إعلان الحرب، وسفك الدماء في فرض رؤيتها على باقي المسلمين تحت مسمى الجهاد وإعادة المسلمين (المرتدين والقبوريين) إلى الكتاب والسنة.

وحين تحولت إلى طور المملكة بوصفها تجربة تطبيقية لمبادئ الدعوة الوهابية، عادت لتمارس التنظير وإعادة صياغة العقيدة الوهابية، وتأطيرها والعمل على نشرها، ثم مرة أخرى أُعيد طرح قضية الجهاد في ظروف جهادية معقدة والهدف هو محاربة دولة الإلحاد.

وحين فرغت من هذه المرحلة ولدت (القاعدة) وهي حركة تكفيرية سلفية وهابية تتبنى من ناحية العقيدة مقولات ابن تيمية وتسير على منهج دعوة محمد بن عبد الوهاب.

كانت هذه الحركة حركة لفكر وعقيدة مرة بمراحل عدة، وكانت في كل مرحلة تضع لبنةً جديدة في بنائها الفكري والعقائدي، فقد ركزت هذه الحركة على مفهوم الجهاد، واعتبرت في خطابها أن معركتها وجهادها المقدس موجه نحو (الصليبيين) الغزاة، واعتبرت أن أفغانستان هي قاعدة الجهاد وتسارعت الأحداث بعد (١١ أيلول) وسقطت أفغانستان والعراق، وتلت ذلك تغيرات كثيرة كانت أبرزها تكاثر غير مسبوق للحركات التكفيرية في مختلف البلدان الإسلامية، وأخذت الانشقاقات والانشطارات تعصف بالقاعدة عمودياً وأفقياً ففي العراق وسوريا كانت داعش، وفي مصر أنصار بيت المقدس، وفي اليمن أنصار الشريعة، وفي ليبيا فجر ليبيا، وفي نيجيريا بوكا حرام، وفي لبنان جبهة النصرة...إلخ.

وكل هذه الحركات التكفيرية وُلدت من رحم القاعدة، والقاعدة وُلدت من زواج غير شرعي بين المملكة السعودية وقوى الاستكبار العالمي.

والمملكة السعودية أقيمت على أساس الدعوة الوهابية، والدعوى الوهابية مستوحاة من عقائد ابن تيمية، وابن تيمية اقتبس منهجه وبناه على أسس ظاهرة الخوارج.

ولذلك لو أجرينا مسحاً عقدياً وفقهياً وفكرياً لهذه الجماعات والحركات التكفيرية فإننا سنجد ما يأتي:

- كل هذه الحركات تؤمن بعقائد ابن تيمية ابتداءً من التجسيم وانتهاءً بتكفير المسلمين.

- كل هذه الحركات تؤمن بدعوة محمد بن عبد الوهاب ولاسيّما في مسائل زيارة القبور، والاعتقاد بالشفاعة... إلخ، فإنها تعدها من مظاهر الشرك؛ لذلك نحن اليوم نراهم ما إن يقتحمون بلدة سواء في العراق أو سوريا، فإنهم يسارعون إلى هدم مراقد الأنبياء، والأئمة، والأولياء الصالحين، ونبشها، والتعدي على حرمة الأجساد الطاهرة فيها.

- إنها تؤمن بالعنف المسلح، وممارسة الإجرام، ولا تتورع عن سفك دماء المسلمين، وهي تصف ذلك بالجهاد لتطهير الأرض من المرتدين، وهذه الممارسات ترجعنا إلى الخيوط الأولى للخوارج.

- أما تعاطيها مع الإسلام فكرياً فكان يعتمد على المنهجية الجامدة والساذجة في التعاطي مع عدد من القضايا، تأتي في مقدمتها ما يسمى (أتباع السلف)؛ وأتباع السلف هذا في نظرهم يتركز في التعامل مع وسائل الحياة تعاملاً متخلفاً؛ فهم يفرضون زياً معيناً، ومظهراً خاصاً؛ إذ يعتبرون إطلاق اللحية، وارتداء الثوب القصير، واستعمال السواك من أهم المظاهر التي يلتزم بها المسلم وإلا وصفوه بالمبتدع والضال والكافر، وهذا بالتأكيد يؤشر إلى خلل في البنية العقائدية والفقهية لدى هذه الجماعات والحركات.

- إنها تعتبر إقامة حكم الخلافة من أولى أولوياتها وهي لا تقدم في هذا الجانب أي نظرية سياسية واضحة؛ بل تكتفي بالشعارات، وتقتصر شعارتها على تطبيق الحدود فقط، وبالتأكيد لا ننسى قطع الرؤوس، والتمثيل بالجثث.
- إنها سارت على منهج الأولويات المقلوبة فمثلا: بدلاً من أن تكون أولويتها العمل على توحيد صفوف المسلمين كي يستطيعوا الوقوف بوجه قوى الاستكبار العالمي، والتوجه نحو القضية المركزية (فلسطين) ومواجهة العدو التاريخي للأمة الإسلامية (إسرائيل)، عملت هذه الحركات على تمزيق صفوف الأمة من خلال إثارة الفتن، والنزاعات، والأحقاد، وكرست منابرها وخطاباتها لقضية واحدى هي تكفير المسلمين، والتحريض على قتلهم وإبادتهم، هذه هي بالحقيقة ملامح الحركات التكفيرية، وهذه هي عقائدها وأفكارها ومناهجها، وممارساتها... إنها حركة مأزومة في فهمها، وجعلت الأمة تعيش أزمة في حاضرها؛ بل محنة قاسية خسرت الكثير... الكثير بسببها من الدماء والمقدرات.

الخاتمة

وفي ختام البحث نخلص إلى نتيجة مؤداها: إن هذه الحركات والجماعات التكفيرية كانت نتيجة لقراءة خاطئة للنصوص الدينية - قرآنية ونبوية - وإن هذه الحركات تم استغلالها من قبل أطراف وقوى عالمية لتنفيذ مشروع أكبر منها وليست هي سوى حلقة من حلقات كثيرة في أدوات التنفيذ.

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية
لنشوء ظاهرة التكفير

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لنشوء ظاهرة التكفير

جاسم الأسديّ*

المقدّمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن وعد الله حقّ، ولقاءه حقّ، وهو المهيمن على خلقه كله بلا عجز ولاملل، بَعُد عن الأبصار، وقرب من مدارك العقول، الواحد الأحد الفرد الصمد، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد، إن الحديث عن الحركات التكفيرية ومبانيها الفكرية والعقائدية يستدعي البدء في بحث وجيز عن بعض الدواعي لنشأتها؛ ولاسيّما في منطقتنا العربية وبالذات الجزيرة، وبذلك يفترض بنا أن نمر بتاريخنا العربي القديم بوصفه المصدر الأساسي للتعصب القبلي الذي استمر مواكباً الصفات العربية السلبية حتى الآن، نجدها في بعض القبائل العربية كسيرة من سيرها، حتى انعكس على طبيعة السلوك الفردي والمجتمعي، وأجلى صورة للتعصب العربي القديم نجدها واضحة وجلية في مجتمع الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام وبعده، فمجتمع الجزيرة في الحالتين كلتيهما مليء بمظاهر الغزو، والسلب، والنهب، والقرصنة، وشواهد التعصب، والتكفير والعنف، ومصادرة الآراء على أنه نوع من الإرهاب الفكري يستتبعه

---

* باحث عراقي مغترب في النرويج بكالوريوس في الشريعة.

إرهاب جسديّ، وذلك لمّا درجت عليه القبائل الصحراوية التي لاتجد ما تستعين به للاستمرار في الحياة سوى الغزو والحروب تجاه القبائل المجاورة بوصفها أحد سبل العيش لكسب الغنائم على حساب القبائل الأخرى، أو السكان القاطنين على ضفاف نهر الفرات بالخصوص، وهذه الحالة تكاد تكون عرفاً اجتماعياً تاريخياً ممنهجاً لتلك القبائل على مدى التاريخ، في ما بينها تارة، تجاه شعوب المناطق المجاورة المطلة على نهر الفرات تارة أخرى، فأغلب الأحيان تكون تلك المجتمعات هدفاً سهلاً لتلك القبائل للحصول على ما تريده من غنائم بمختلف أنواعها حتى أسر النساء بصفة رهائن وغنائم؛ لما يتمتّع به سكان تلك المناطق من حالة استقرار اقتصادي، لامتلاكهم كثيراً من مقومات الحياة الطبيعية، من ثروات غنية ومنتوجات زراعية وحرف صناعية وغيرها، في ما هم (أي القبائل) يفتقرون إليها بسبب الطبيعة الصحراوية التي خلقت عندهم طبيعة قاسية جداً، وطبيعة اجتماعية صعبة تبعاً لاعتمادها على البحث عن الماء والكلأ، مما يستدعي ذلك مد نفوذ القبيلة إلى مساحات أوسع؛ لذا يعتمدون بالضرورة على الغزو تجاه القبائل الأخرى، فسكان الفرات ليسوا ببعيدين عن تلك الصولات والجولات، فكانوا مستهدفين على مدى التاريخ من تلك القبائل القاسية، وذلك لاشتراك وادي الرافدين لامتداد الطبيعة الصحراوية للجزيرة نفسها؛ ولقربه مع كل حدث يحدث فيها سلباً وإيجاباً.

توطئة

لا يخفى أن لتلك الطبيعة القاسية أثراً في سلوك المجتمعات القبلية الصحراوية، فكانت تلك القبائل حرة لا تنضبط بنظام سوى نظامها وقوانينها وأعرافها، ولا ترتبط بنظام دولة، إذ لم تكن هناك دولة أصلاً على مر التاريخ إلا بعد الإسلام، فكانت كل قبيلة يرأسها زعيمها (شيخ) يوجهها فتنقاد له بحسب الحاجة، وكانت من أبرز الحاجات التي يتطلبها وضع الحياة المعيشية اليومية هو القوت اليومي، فليس هناك من رجالات القبيلة من هو مستعد للعمل بالحرف المعروفة كالزراعة، والصناعات اليدوية البسيطة، لأن هذه الأعمال كانت تُعاب عليهم، فالسيف هو مصدر العيش، إذاً القحط والعوز المالي، والقوت اليومي (الحالة الاقتصادية) سبب رئيسي لتلك الغزوات.

وبعد مجيء الإسلام أصبحت القبائل تنقاد وترتبط جزئياً مع السلطة، بحسبما تأتيها الأوامر من زعيمها!! كالقيسية، واليمنية، والصراع الذي دار بينهما[1]، لمقتضيات المصلحة ليس إيماناً ولا احتساباً لدين أو معتقد!، حتى وصل الأمر بوجود الدولة الإسلامية أنْ تشكلت فئات قبلية وطوائف عقائدية اجتهادية وجهادية لها أفكار وقواعد ونظريات تشخّصها عقول على مستوى القمة لها هالة من القدسية، ولها الحق في تبني تلك الأفكار؛ لتؤسس لمعتقداتها أرضية رصينة مغلفة بغلاف الدين؛ كي تكون قابلة لممارسة تلك النظريات فتصبح حالة واقعية مقدسة وملزمة، لايمكن التراجع عنها، ولتصبح عقيدة نافذة يعتقد مريدوها أن تفكيرهم ومعتقدهم هذا هو القرار والمستقر وهو وحده الصدق والحق المطلق، ومن يخالف ذلك إنما هو ضالٌّ، مضلٌّ، مبدع يستحق النار والعذاب من الله!، واستمر ظهور تلك الفئات العقائدية التكفيرية إلى يومنا هذا، وتصرّفت بالدين الإسلامي وكأنها هي الراعية الأولى (للدين الحنيف)؛ ولكن مع كل الأسف انعكست تلك التصرفات على سمعة الدين

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٣، ٣٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٧، ٣/ ٢٢.

الإسلامي، فأصبح في نظر الشعوب الأخرى دين الكراهية، والحقد، والإرهاب.

التعصب والتكفير الديني

ما إن نتكلم على التعصب القبلي إلا ويتبادر إلى الذهن تلك البقعة الجغرافية الصحراوية (الجزيرة) وقبائلها التي تتناحر في ما بينها على حسب هذا المبدأ، وليس حديثنا وتركيزنا على هذه البقعة هو بسبب عقدة شكوى من تلك القبائل أو هذه الفئات.

بل إن التعصب القبلي كان هو المتسيد وصاحب الحظوة في التحكم بمسار المجتمع العربي في الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام، ولم يكن التكفير جارياً بين الناس آنذاك، بحيث إنك تسمع وتقرأ عن وجود أصحاب الديانات الأخرى (أهل الكتاب)[1] متعايشين مع العرب في مدينة واحدة، وكثير يعلم ماهي خلفية ذاك التعصب بين القبائل، فإن له أبعاداً ودواعيَ معروفة منها اقتصادية واجتماعية وجغرافية، (تحدثنا عنها)، واستمرت هذه الحالة بصفة ملازِمة بين القبائل في صراعاتها.

وتحالفاتها لا تنفك عنها، وبسببه أُزهقت أرواح، وألغيت مجتمعات من الوجود، فانتُهكت الإنسانية وحرماتها بمجرد اعتداء بسيط لسرقة دابة لقبيلة ما، أو قتلها، وما شاكَل ذلك .

وبمجيء الإسلام الحنيف بأفكار جديدة مناهضة للجاهلية، حررت ذاك المجتمع المتعصب من تلك العادات وتلك الطبيعة غير الأخلاقية!، ضاربة حالته السالفة بالعمق، بفضل الله ورسوله الكريم والعترة الطاهرة ﷺ، ولكن بقيت هناك شوائب العصور المتردية عند ثلّة لم تنفك عن حالتها وطبيعتها الجاهلية تلك، فأخذت تغلّف إسلامها بتعصبها القديم باسم جديد هو (التكفير)؛ كي يقال: إنهم ملتزمون بالإسلام، وهم رعاته، وهم من يدافع عنه، وهذا في الحقيقة تعصب منهي عنه في الدين كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ المعارف : ٧-٢١٦، وابن قتيبة الدينوري :ص٦٢١، واليعقوبي :١-٢٥٧.

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[١].

ولذلك نبّه رسول الله ﷺ المسلمين من التعصب في كل شيء، فقد قال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢].

فأراد رسول الله أن يقضي على هذه الحالة المستشرية بين العرب؛ ليطهّر الدين من كل شائبة تدنس مبادئه، وتشوه عقائده الناصعة، ويزكي الناس التي تلبستها هذه العادات، ويطهرهم منها كي يكونوا قدوة للناس من بعده.

وليس معنى ذلك حين نرفع راية الدين والدعوة إليه، يجب أن نكفّر الآخرين من مسلمين أو غير المسلمين المخالفين لنا، بالتهديد وقتل الضحايا المسالمين غير المحاربين تجاه الدين الإسلامي.

معنى التكفير

وقبل أن ندخل في الموضوع يجب علينا معرفة ماهية التكفير لغةً واصطلاحاً؛ كي نحيط بمعناه من جوانب عديدة.

فالتكفير بالمعنى اللغوي هو الستر والتغطية .

قال ابن فارس: «الكاف والفاء والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية»[٣].

ومنه تسمية المزارع كافراً، قال الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾[٤]، هنا الكفار بمعنى الزراع والمزارع يستر البذر في الارض[٥] ،ومنه تسمية الكفارات بهذا الاسم لأنها تكفر الذنوب، أي تسترها مثل كفارة الإيمان، وكفارة الظهار[٦].

---

(١) سورة الفتح ، الآية: ٢٦ .
(٢) بحار الأنوار: ج ٣١، و ص٤٠، ميزان الحكمة: حديث ١٣٠٣٥ .
(٣) معجم مقايس اللغة لابن فارس ٥- ١٩١ .
(٤) الحديد: ٢٠
(٥) تهذيب اللغة للأزهري: ٤-٣١٦٢.
(٦) المصدر السابق: ٤-٣١٦٣.

أما المعنى الاصطلاحي: فمصدر كفر، أي حكم بتكفيره، الحكم عليه بالإلحاد، أي إبعاده وإخراجه عن مبادئ دين الجماعة.

وقال الراغب الأصفهاني: «الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها»(١).

فهذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية في هذه المصادر، مفادها متقارب جداً، وحتى لو ذهبنا إلى مصادر أخرى سنجدها متقاربة مع ما سلف، ففي تهذيب اللغة عن الليث ورد أن الكافر لما دعاه الله جل وعلا إلى التوحيد فقد دعاه إلى نعمة ينعم بها عليه إذا قبلها، فلما ردَّ ما دعاه إليه من توحيد، كان كافراً بنعمة الله أي: مغطياً لها بإبائه(٢).

وقال ابن فارس: «الكفر ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق»(٣).

من هذا نجد تقارباً واضحاً جداً بين المعنين اللغوي والاصطلاحي، فنستفيد من هذه التعريفات أن الذي يخالف العقيدة الإسلامية فقد غطّى الإيمان، وأخفاه أي قد كفر(غطى) فيستدعي خروجه من المعتقد الذي عليه عامة الجماعة المسلمة التي قرأت، واعتنقت، واعتقدت بما أنزله الله في محكم كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ، إذاً المقياس هي هذه المعاني، مما يترتب عليه - على حسب هذه المفاهيم - التكفير الصريح وعدم التساهل مع المخالف، ومن يقترف منهجاً غير ما سار عليه الجمع المسلم، يكون خارجاً؛ بل كافراً، ويأتي ذلك لعدم التساهل في فهم المعانٍ وتقريبها لاجتهادات ومعاني ترتقي إلى سماحة الإسلام والتوسعة التي فيه لا تضيق على المسلم، ولا تكبله بمفاهيم وضعها الإنسان نفسه، ومن ذلك تجري مجريات أخرى تبنى على تلك المفاهيم القاصرة، وكأن لغتنا العربية لم تستوعب معاني مرنة وواسعة في هذا المجال الاعتقادي وغيره، وكأنها قاصرة إلا على تلك المفاهيم الموضوعة، أو على أولئك الذين وضعوا للُّغة قيوداً وقوالب محددة لا تتعدى مفاهيمهم هم، مبتعدين بمسافة كبيرة عن

---

(١) المفردات :(ص٧١٥).
(٢) تهذيب اللغة : (٤-٣١٦١).
(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس(٥-١٩١).

سماحة الإسلام وسعته، ومن ثمَّ أدخلوا ما فهموه هم، وكأنها مفاهيم الإسلام الحقيقية في بوتقة ضيقة جداً متناسين أخلاق الأنبياء المرسلين مع أقوامهم وتسامحهم معهم؛ بل متناسين أخلاق نبينا الأكرم بسعة صدره واستيعابه كل المتعصبين في الجزيرة ومتناسين قول الله جلَّ وعلا لرسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، والآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وحين قصرت تلك العقول عن فهم الرسالة وأخلاق نبينا ﷺ أدى ذلك الفهم القاصر والتفسير المحدود إلى هتك حرمة الإسلام أولاً، ثم هتك حرمة الإنسان الذي حرم الله دمه وانتهاك كرامته إلا بالحق ثانياً؛ ولكن نُكِث العهد فأعقب ذلك مآسٍ حقيقية لا يستطيع أحد إصلاحها الا بإصلاح الذوات المنحرفة عن جادة الإسلام المحمدي.

نشأة التكفير

لقد نوهنا سلفاً على أن التعصب هو الحاكم قبل الإسلام؛ ولاسيما في الجزيرة العربية، وما إن دخلت القبائل العربية المتعصبة إلى الإسلام غُلّف ذلك التعصب بغلاف التكفير، وقد كان هذا الأسلوب جارياً منذ بداية تولي الإمام علي ﷺ الخلافة بعد عثمان مباشرة وإلى الآن! وقد تولت مجموعة عرفت بـ (الخوارج) شعار التكفير، وهي مجموعة تدعي أنها تعتنق الإسلام الحقيقي من خلال فهمهم لتفسيرهم كتاب الله وآياته على أذواقهم وإدراكهم المحدود، برفع شعارهم المعروف تجاه الإمام علي عليه السلام سنة (٤٠هـ)[3] بكلمة (إن الحكم إلا لله)، وكأن الإمام عليه السلام لا يعلم بالأحكام، ولا بالتنزيل، ولا بالتأويل بآيات الله، فكانت النتيجة هي أن استحلوا دماء المسلمين وأعراضهم وممتلكاتهم، وذلك بتكفيرهم الإمام وأصحابه بحجة أنهم من أهل الكبائر على حسب فهمهم...؛ وقد ذكر ابن القيم[4] عن تعصب الخوارج في قوله: «وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف

(١) القلم: ٤.
(٢) التوبة: ١٢٨.
(٣) انظر: محمود شاكر، الخلفاء الراشدون، ص ٢٨٢.
(٤) إغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية: (٢/ ٨١).

والنهي عن المنكر»، ويريد من ذلك أنهم لم يندفعوا عن عقيدة أو بفكرة إصلاحية.

وقال أبو زهرة عن الخوارج: «وقد بالغوا في حب الجهاد والاستبسال فيه إلى حد هوس واضطراب في أعصابهم وليس مجرد شجاعة»، ويقول كذلك بل هناك صفات أخرى منها: (حب الفداء، والرغبة في الموت، والاستهداف للمخاطر من غير داعٍ قوي يدفع إلى ذلك)، كما يقول عنهم «هناك هوس عند بعضهم وإضطراب في أعقابهم لا مجرد الشجاعة»(١).

إن أغلب حركات الخوارج كانت حركات مسلحة تجاه السلطات والولاة، مستهدفة بذلك قوتها، ومهددة استقرار الناس وسلامتهم، ولم تنطلق تلك الحركات من منطلق فكري يعتد به!، فكانت السمة السياسية والمعارضة المسلحة طابعها المميز، مدفوعة بدوافع العادات والتقاليد، ودوافع اقتصادية، فلم تكن هناك نظريات تتميز بها تلك الحركات بوصفها نظريات إسلامية تساعد المجتمع الإسلامي على نهوضه وتغيير صور الصراع الغالبة عليه آنذاك إلى مجتمع يعالج مشاكله المستعصية؛ ولاسيما الاقتصادية منها، فكان للعامل الاقتصادي دور فعال في ركوب أغلب تلك المجموعات موجات الصراعات لحل كثير من مشاكلها الاجتماعية من خلال الغزو، ثم الحصول على الغنائم، ولا توجد هناك مبانٍ فكرية حركية تنهض بالفكر الإسلامي إلى مستوى مفكري اليونان أو الفرس مثلاً، ولاسيّما أن القرآن أصبح ينبوعاً تستطيع أن تستقي منه كل الأفكار، لإصلاح الذوات وإيقاظها من سباتها العميق، إذاً مازالت كثير من القبائل آنذاك لم تغيّر طابعها وعاداتها السابقة، فالجهل بالدين، والانتقام لأخذ الثأر، ودوافع اقتصادية، وأخرى نفسية، كانت دوافع رئيسية للانخراط في تلك المجموعات.

ومن أمثلة السير على النهج الجاهلي نفسه لا (الحصر)، إغراءات قطام الخارجية الفاتنة التي وضعت شرطاً لمهرها، وهو قتل الإمام علي عليه السلام، وقد قال أحد الشعراء في ذلك:

ولم أرَ مهراً ساقه ذو سماحةٍ كمهر قطام من فصيح وأعجم

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية، أبو زهرة: ١/ ٦٧.

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بالحسام المصمم.!!![1].

فالدوافع لانبثاق هذه الفئة محصورة لأسباب عدّة؛ منها:

١- الثأر والإغراءات الجاهلية وهي من مخلفات التعصب الجاهليّ.

٢-الحالة الاقتصادية، فأغلب الناس كانت تستهين بالمهن، والحرف، والعمل، والصناعة، والزراعة، فتلجأ إلى الانخراط في مجموعات قتالية كسباً للمال والغنائم؛ بل إن معظم القبائل تفتخر بالسلب، والنهب، وحجمه.

٣- الحالة الاجتماعية، فالتحالفات القبلية تجاه السلطة أو معها تتحكم بمصير المجتمع سلباً وإيجاباً حسب مقتضيات المصلحة.

أما بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام على يد أحد الغادرين من أولئك الذين اندفعوا بأحد الأسباب المذكورة آنفًا، تشعّبت الانحرافات بنشوء مذاهب سياسية، وفكرية عقائدية تتحكم بها مصالح شخصية وأهواء ذاتية مارست دوراً فعالاً في قضية تكفير قطاعات كبيرة من المسلمين، بإدخال أحاديث موضوعة على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بوصفه أساساً لمنطلقها الفكري، فأصبح الانحراف في أذهان كثيرين حقاً والحق باطلاً، وأصبح منظرو تلك الأفكار من كبار مفكري الإسلام!!.

فمثلاً ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث: «يقدم عليكم قوم هم أرق أفئدة منكم» فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون: «غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه، فقدم الأشعريون ومعهم أبو موسى»!![2] وكثير منا يعلم من قراءتنا للتاريخ ماهو موقف أبي موسى الأشعرى من مسألة التحكيم بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، وخيانته الإمام عليه السلام، فكيف يثني عليه النبي صلى الله عليه وآله!!؟ علماً أن النبي صلى الله عليه وآله روي عنه أنّ علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين[3]، ولا يخفى أن أبا موسى الاشعري قد مال بالحكم لمعاوية بعد أن خلع ولاية الإمام علي عليه السلام في

---

(١) كتاب الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، ص ٢، ٢٦٧، والطبري في تاريخه ،وابن أبي الحديد، وابن عبد البر في الاستيعاب، والأصبهاني في مقاتل الطالبيين.

(٢) تبيين كذب المفتري، ابن عساكر:(١، ٤٦).

(٣) الخوارزمي:١٢٢وابن الأثير في أسد الغابة ٣٢،٤، و الحمويني في فرائد السمطين: ١،٢٨١.

مسألة التحكيم!! ولا يخفى أيضاً أن معاوية وجيشه هم الفئة الباغية (القاسطين) (١)، كما قال عنهم رسول الله، فهم الذين قاتلوا الإمام علياً عليه السلام، وفيها قُتِل عمار بن ياسر والقصة معروفة !!فكيف يثني النبي على أبي موسى عند قدومه مع أهل اليمن؟ فهذه واحدة من الروايات الموضوعة، ومثلها كثير بنيت عليها عقائد المسلمين!! ومادام المسلمين تستهويهم الأحاديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فيقدسونها كما يقدسون كتاب الله؛ لذا ركب كثيرون مراكب التحريف، وباعوا ضمائرهم للسلطان؛ ليجندوا أنفسهم لمحاربة الله ورسوله، فيستغلوا عواطف الناس البسطاء، ويسترخصوا دمائهم خدمة لمصالحهم وسلاطينهم وشياطينهم، فهذا المثال وغيره جعل المسلمين ينحرفون عن العقيدة الإسلامية الحقيقية عقيدة النبي وآل بيته الطاهرين(٢)، فجاؤوا بمختلف الأفكار والعقائد الغريبة التي دستها عقول ليس لها أي ارتباط بالعقيدة الإسلامية، أو عقول خلطت العقيدة الإسلامية بأفكار مستوردة ولاسيّما بعد دخول الأعاجم من ذوي اللغات المختلفة والأديان الأخرى، من دون إرشاد حقيقي من علماء المسلمين وقادتهم، فتولتها أيدي المنحرفين عن الصراط، أو الذين يدينون بدين السلطان، وهذا كله جرى بعد استيلاء الأمويين على الخلافة (السلطة)، فأصبحت (عضوضاً)؛ إذ تمددت الدولة واتسعت أطرافها، فدخلت الأعاجم في حوزة الدولة بأفكارهم الموروثة، فحملوها ونقلوها إلى الساحة الإسلامية(٣)، ومن الطبيعي أن يتأثر بعض المسلمين بعقائدهم بنحو أو بآخر، ولا سيّما أن المسلمين قد ضعفت عقيدتهم، وكادت تتلاشى أكثر حين تم استبعاد أهل البيت من كل تأثير، ومن الطبيعي أن تكون الناس في حالة استيعاب لعقائد أخرى، إن لم تشغلها العقيدة الإسلامية الحقيقية، وهنا يتحكم الأقوى وصاحب السلطان في العقول وفي العقائد، ليستطيع فرض إرادته على الساحة بكل سهولة.

وفي هذا السياق أيضاً يكون العرب والمسلمون قد تأثروا واقتبسوا كثيراً من الحضارات القريبة منهم مثل الدولتين الرومانية والفارسية في نظام الحكم وحتى التشريع، كما يورد ذلك

---

(١) مناقب الخوارزمي: ١٢٣ وكتاب صحيح البخاري في كتاب الصلاة ١ ،١٢٢.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين: ص٢٠١.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٤٨٧.

(ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة(١)، حتى طبقة الكتّاب الذين يعتمد عليهم في نقل الأحاديث والروايات وكتابة المصاحف، وحينئذٍ أصبحوا متأثرين ومقلدين لكتّاب الدولتين الفارسية والرومانية، كما يذكر ذلك أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام(٢)، وكذلك الذين دخلوا الإسلام

من ديانات مختلفة حين استقروا واعتادوا العيش في الدول الإسلامية، ألبسوا أفكارهم التي يحملونها بلباس الإسلام كما ذكر أحمد أمين في كتابه: «أن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام بعد الفتح كانوا أتباع تلك الديانات المختلفة، وكانوا قد نشؤوا على تعاليم هذه الديانات، وشبّوا عليها، وكانوا ممن أسلم علماء في هذه الديانات، فلما أطمأنوا، وهدأت نفوسهم، واستقرت على الدين - وهو الإسلام - أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم، ويثيرون مسائل من مسائله، ويلبسونها لباس الإسلام»(٣).

أولئك قد جلبوا معهم أدوات الجدال المعهودة لديهم ما كانت معتادة لدى العرب يستخدمونها بصفة آلة لإفحام الآخرين!، ومن بين تلك الأفكار الدخيلة (الجديدة) هي الفلسفة، وعلم الكلام، وعلم اللاهوت، حتى افتتحت مدارس فلسفية وكلامية لها بالعراق(٤).

وكان أغلب هذه الدراسات والبحوث والنقاشات والجدال تدور حول مسائل العقيدة، كصفات الله، والذات، وقضية خلق القرآن، ومسائل القضاء والقدر، ومسألة فعل الإنسان بالجبر أم بالاختيار، وغيرها من الموضوعات الكلامية.

وفي غضون ذلك برزت مدرسة تدوين الأحاديث سنة (١٤٣هـ)، إذ كان الناس يتداولون أحاديث النبي ﷺ من خلال الحفظ، وليس من صحف مرتبة كما ذكر ذلك

---

(١) قصة الحضارة: ج١٣، ص١٤٦.
(٢) ضحى الإسلام: ج١، ص١٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ج٣، ٨.
(٤) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت: ١٩٨٩-١٣٠-١٣١.

الذهبي[1]، وكذلك ذكر ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري ص٤ (اعلم- علمني الله وإياك أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر الصحابة وكبار تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة...إلى قوله : « إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي ﷺ وسلم خاصة وذلك على رأس المئتين...»، وهنا مقصدنا!!، والأقوال كثيرة في ذلك، إذ إن الأحاديث قد دونت بعد قرن ونصف، فما يدرينا ما ضاع منها، وما يدرينا ما أضيف إليها، وإن التي في الصدور يمكن أن يضاف إليها وينقص منها؛ بل هناك من هو تبع للسلطة يميل حيث مالت، ومن هو داخل في الإسلام تواً لا يعلم ما في الأحاديث صحيحها، وغثها، وسمينها، وكذبها!! إذاً كيف نثق بتلك الأحاديث؟، وكيف نثق بأن ما يبنى عليها صحيحٌ؟ فإذا كانت المقدمة فاسدة، فهل ما يبنى عليها يكون صحيحاً؟!.

حتى البخاري لم يكتب الأحاديث في أثناء سماعها؛ بل كان يؤجل كتابتها إلى حين!!، قال محمد بن الأزهر السجستاني: «كنت في مجلس سليمان بن حرب، والبخاري معنا يسمع ولا يكتب، فقيل لبعضهم: ماله لا يكتب؟ قال: يُرجع إلى البخاري ويكتب من حفظه»[2].أي يكتب الأحاديث من حفظه بعد مدّة من الزمن!!.

وقال أحيد بن الأزهر والي بخارى: قال محمد بن إسماعيل (البخاري) يوماً: (رُبَّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر)، فقلت له: يا أبا عبد الله بكماله؟ قال: فسكت.[3]

ولو كان بحثنا عن الأحاديث وكيفية تدوينها لقلنا عنها كثيراً؛ ولكن بحثنا عن المباني الفكرية لعقيدة التكفير، وهذه المباني لها علاقة وثيقة بالتدوين لذلك تطرقنا إليه، إذاً مدخلية الأحاديث ومنها الموضوعة والمكذوبة لها علاقة وثيقة بمسألة تلك المباني الفكرية وما ترتب عليها من تكفير لعدد كبير من المسلمين وغير المسلمين، وما بني على أثرها من قتل وتشريد

---

(١) الذهبي في تاريخ الإسلام ص١٠٣٤، أحداث سنة (١٤٣)هـ.
(٢) مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ص٤٧٩.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج١٢ ص٤١١.

وإبادة كان أفظع وأشنع من مسألة التكفير ذاته؛ لأن حرمة المسلم عند الله كبيرة جداً!!

إذاً لا يمكننا القول بأن الفرقة الفلانية أو المذهب الفلاني هو الذي بدأ بالتكفير دون الرجوع إلى الأوليات التي دعت تلك الفرق أن تبني عقائدها من أفكار دخيلة على الدين الإسلامي.

لذا لنقف على حقائق الأمور ونفتش عن الصفحة السوداء الملطخة بالانحرافات؛ كي نشخصها ونريها لذوي العقول الناصعة كي تُميزْ بينها وبين الحق الذي بينه رسول الله ﷺ بقوله في حديث الثقلين، وكما ذكر في كثير من الصحاح وبخاصة صحيح مسلم بلفظ[1]: «وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي،أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، ويا للأسف فقد ترك المسلمون وصية نبيهم، فلا عملوا بالكتاب وأحكامه، ولاهم تمسكوا بآل البيت ﷺ، وها نحن نرى ضلالة الأمة، وأين يراد بها من فتن وانحرافات لا تبقي ولا تذر، وظلت الاسطوانة تدور بتكفير أغلب المسلمين، إلّا ما رحم ربي ولم تجد من يوقفها.

مباني التكفير (في مسألة التوحيد)

إذاً بترك المسلمين الثقل الثاني نتج عنه أنْ لجؤوا إلى معتقدات غريبة استمدوها من هنا وهناك بسبب الفراغ العقائدي، فتكونت فرق ومذاهب متفرقة كثيرة، ومن تلك الفرق الإسلامية، المعتزلة، والماتريدية، والأشعرية، والقدرية، والمفوضة، والمرجئة، وغيرها، وبحسب منظور تلك الفرق، أن الشيعة قد دخلت ضمناً مع فرقهم وبعضهم وسمها (بالرافضة)، فاختلفت هذه الفرق بالصفات والذات وفعل الإنسان والجبر والتفويض وغير ذلك مما أدّى إلى تكفير بعضهم بعضاً، وتكفير الشيعة (الرافضة) بالذات.

إن أغلب فرق المسلمين هم من أهل السنة، ولمعظمهم وجهة نظر في مسألة التوحيد، التي

---

(١) صحيح مسلم:٢، ص٢٣٨.

أخذت ثلاثة اتجاهات لثلاث مراحل من التاريخ وهي: اتجاه السلف...، اتجاه الخلف...، اتجاه ابن تيمية...، والسلف هم من كانوا قبل القرون الخمسة الأولى، وقيل القرون الثلاثة الأولى، الصحابة والتابعون، وتابعو التابعين[1].

فكان أغلب السلف من الصحابة ومن تبعهم لا يقولون بالرؤية لله ولا بتشبيهه، وحال معتقدهم هو معتقد أهل البيت ﷺ نفسه، ومنسجم مع آيات القرآن الكريم النافية لإمكان رؤية الله، وقد كذّبت عائشة الأحاديث، والمقولات التي تقول برؤية الله وتشبيهه، كما ورد في صحيح البخاري[2] (عن عامر عن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أمتاه هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد وقف شعري مما قلت ! أين أنت من ثلاث مَنْ حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب...، ثم قرأت: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، ومن حدثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد كذب ثم قرأت: وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت: (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك... إلى آخر الآية الكريمة).

وفي المصدر نفسه عن طريق آخر: «عن عائشة قالت: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب.....إلى آخر الحديث»[3].

ولقد ذكرنا أن كثيراً من أهل الكتاب ممن دخل الإسلام كانوا يحتفظون بمعتقداتهم، وما إن استقرت بهم الأمور بثوا معتقداتهم بين المسلمين، وأفشوها، وصارت تؤخذ وكأنها من العقيدة التي أقرها النبي ﷺ كما روي عن كعب الأحبار، فقد روى المجلسي في البحار: «عن ابن عباس أنه حضر مجلس عمر يوماً وعنده كعب الأحبار؛ إذ قال: يا كعب، أحافظ أنت للتوراة؟ قال كعب: إني لأحفظ منها كثيراً»... فسأله بسؤال عن مكان الله قبل أن يخلق عرشه؟.

---

(١) عقائد السنة وعقائد الشيعة، صالح الورداني: ص٣٧.
(٢) صحيح البخاري ج٦، ص٥٠.
(٣) المصدر السابق :ج ٨ ، ص١٦٦.

فأجاب كعب: «نعم يا أمير المؤمنين، نجد في الأصل الحكيم أن الله تبارك وتعالى كان قديماً قبل خلق العرش وكان على صخرة بيت المقدس في الهواء، فلما أراد أن يخلق عرشه تفل تفلة كانت منها البحار الغامرة واللجج الدائرة، فهناك خلق عرشه من بعض الصخرة التي كانت تحته، وآخر مابقي منها لمسجد قدسه»...، فالتفت علي عليه السلام إلى كعب فقال: (بعض النصوص) يا كعب، ويحك إن الصخرة التي زعمت لا تحوي جلاله، ولا تسع عظمته، والهواء الذي ذكرت لا يحوز أقطاره، ولو كانت الصخرة والهواء قديمين لكان له ما قدمته...، إلى أن قال: «وإنه عز وجل خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمة، وكان قديراً أن يخلق الظلمة لا من شيء كما خلق النور من غير شيء...، إلى قوله: وكان عرشه على الماء ليبلوكم يا كعب، ويحك إن من كانت البحار تفلته على قولك، كان أعظم من أن تحويه صخرة بيت المقدس، أو يحويه الهواء الذي أشرت إليه أنه حل فيه، فضحك عمر بن الخطاب وقال: هذا هو الأمر...إلى آخر الرواية»[1].

وهنا بداية التنظير للتجسيم من قبل (كعب الأحبار اليهودي) الذي فَند أقواله الإمامُ عليٌّ عليه السلام بحضور جمع من الصحابة وعمر بن الخطاب، ينكرون ما ذهب إليه كعب الأحبار، وحتى عائشة أنكرت ذلك منه!!.هنا نريد أن نؤكد بألفاظ وعبارات رائعة عن الإمام علي عليه السلام في مسألة صفات الله عز وجل: «فمن وصفه فقد حده، ومن حده فقد عده...، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ...، فلسنا نعلم من كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم ... لم ينته إليك نظر ولم يرك بصر»[2].

فهذا توحيد الإمام عليه السلام بعيد كل البعد عن التجسيم والتشبيه، وبعيد عن كل صفات المادة المخلوقة، والإمام هو من السلف فلابد قد تشربت عقيدته من رسول الله صلى الله عليه وآله!.

وابن عباس نجده يقول: «من شبّه الله عز وجل بشيء، أو ظن أن الله عز وجل يشبه شيء، فهو من المشركين»، وابن عباس قد عاصر النبي صلى الله عليه وآله وروى عنه كثيراً، وهو من

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ج٤٤ ، ص١٩٤ .
(٢) نهج البلاغة : ج١.

السلف!.»[1].

إذن كان جمهور الصحابة، بما فيهم عائشة يكذبون أحاديث الرؤية بالعين، كما قال الثعالبي في تفسيره: «(ولقد رآه....) فقالت عائشة والجمهور هو عائد على جبرئيل»[2].

وهناك من خالف عائشة بإشهار الرواية الآتية (باختصار): « على أن النبي ﷺ رأى الله سبحانه في روضة خضراء دونه فراش من ذهب على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة، ملك في صورة رجل، وملك في صورة ثور، وملك في صورة نسر، وملك في صورة أسد »!! هذه الرواية قد نقلها ابن خزيمة في كتابه التوحيد،[3] وواضح جداً أن هذه الرواية من الإسرائيليات، وفيها لمسات كعب الأحبار.

فقضية الرؤية جاءت بإنكار جمهور الصحابة من السلف الذين أخذ المسلمون عقائدهم عنهم واقتدوا بهم، وهذا ما ذهب إليه كثير من المسلمين عن أسلافهم بأن ليس هناك تجسيم ورؤية لله عزّ وجلّ، لا من النبي ﷺ ولا من الصحابة، كما يؤكد ابن خزيمة نفسه عن حديث أبي ذر في نفي النبي رؤية ربه بعينه في صفحة ٢٠٦... عن عبد الله بن شقيق، قال: «قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء سألته؟ فقال: كنتُ أسأله هل رأيت ربك؟ فقال أبو ذر :قد سألته فقال رأيت نوراً»[4].

فأبو ذر أكد عدم رؤية النبي ﷺ لله عز وجل وهو الصادق، وصدقه ليس فيه غبار، فهو يتحدث عن وعي وبصيرة، وهو من خيرة الصحابة النجباء حتى شبهه النبي ﷺ بعيسى عليه السلام، وقد مدحه لصدقه، ذكر الترمذي بسنده عن أبي ذر: «قال قال رسول اللهّ ﷺ: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبيه عيسى بن مريم عليه السلام، فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول اللهّ أفنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه

---

(١) الديلمي في فردوس الأخبار: ج٤ ، ص٢٠٦.
(٢) الثعالبي ، الجواهر الحسان: ج٣ ، ص٢٥٣.
(٣) كتاب التوحيد لابن خزيمة : ص١٩٨.
(٤) كتاب التوحيد لابن خزيمة : ص٢٠٦.

له. قال: هذا حديث حسن غريب من هذا»[1].

فجملة الصحابة من السلف لا يقولون بالتجسيم ولا بالتشبيه ولا بالرؤية، إلا من دخل متأخراً إلى الإسلام حاملاً معه ما يعتقد في التجسيم والرؤية!!، فاستخلفوا وراءهم من حمل على أكتافه هذا المعتقد الخطير، بمرتكزات ومبادئ غريبة لا تمت للإسلام بصلة، تؤازرهم وتدعمهم السلطات؛ ضماناً لمصلحتها في تحقيق مآربها، وتقوية لنفوذها وأركان سلطانها بهم، وأبرز من حمل هذا المعتقد هم بنو أمية ومن تخبأ تحت عباءتهم من المتملقين والراكعين للأسياد، فعندما استولوا على الخلافة انتصر تيار التشبيه والتجسيم بعد جيل الصحابة، نكاية بالمعتقد الإسلامي الحقيقي معتقد أهل البيت ﷺ!، ومعروف ما هو حجم العداء والبغض والكراهية الذي يضمره بنو أمية لآل البيت ﷺ منذ بزوغ الإسلام المحمديّ، فجل المعتقدات المحمدية (الإسلامية) لا تتماشى مع أهوائهم ومعتقداتهم، فلجؤوا إلى معتقدات غريبة ليس لها صلة بالإسلام ومعتقداته، وألصقوها بالإسلام بمبررات واهية انتصاراً لمتبنياتهم.

مباني التكفير (في مسألة النبوة)

لقد أخذت تتردد بين أوساط المسلمين مقولة مدعاة عن النبي ﷺ (أنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان)، وهذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ عن طريق الصحابي (عرفجة)[2]، وقد بُرِّر قتل كثير من المسلمين، وقتل أهل البيت ﷺ بهذا الحديث وأمثاله، بدءاً من صحابة رسول الله وإلى الآن، وبه قُتل الإمام الحسين ﷺ بواقعة الطف الأليمة، فكل من خالف السلطان (بنو أمية ومن تبعهم) وإن كان ظالماً فلا بد من أن يخنع ويركع تيمناً بهذا الحديث!، ولكن لنأتي إلى ترجمة هذا الصحابي من هو؟ وهل كان معروفاً ؟ وهل اسمه صحيح في التراجم؟.

فكما هي ترجمته في أسد الغابة: ضريح بن عرفجة. وقيل: عرفجة بن ضريح. أخرجه أبو

---

(١) سنن الترمذي:٥/ ٣٣٤، وسنن ابن ماجه ١/ ٥٥٣.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: مسألة ٣٦٧٧.

موسى، وقال: اختُلف في اسم هذا الرجل على وجوه، قيل: عرفجة بن شريح، وهو الأشهر،ولم يروَ عنه غير هذا الحديث![1].

وفي كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٨٩٩) ترجمة عرفجة بن شريح[2]: ويقال: ابن ضريح، ويقال: ابن شريك، ويقال: ابن شراحيل الأشجعي، له صحبة.

عجباً!! لم يُعرف اسمه الصريح، وله أسماء متعددة، ويُذكر له حديث واحد، ومرفوع عنه، فهل يمكن أن يؤخذ لهذا الحديث مبنًى تُبنى عليه عقيدة؟ ولم يكتفِ بذلك؛ بل إنه بني عليه تبرير قتل ابن بنت نبينا ﷺ؛ لأنه بحسب معتقدهم هذا، إنه خرج عن الإسلام والجماعة، فقتله يوحد المسلمين بتبريرهم!!، إذن يجب أن يُقتل!! وليس عجباً أن يُقتل المسلمون المخالفون لعقائدهم تحت هذا العنوان أيضاً. وحتى لو كان هذا الحديث صحيحاً، فهو لا يعني بالتأكيد ما يذهبون إليه بتفسيرهم؛ لأن التاريخ قد شهد لنا مشاهد الظلم للمسلمين، وللعباد من قبل حكامهم على السواء، فلا يمكن السكوت عنهم بتاتاً، وإن القرآن قد ركز على مقارعة الظالمين مهما كانوا، فلا يمكن أن يعارض حديث الرسول كلام الله، وحاشا لله ولرسوله المعارضة والمخالفة؛ لأنهما ينبعان من معين واحد، وحاشا للأئمة عليهم السلام- ولاسيّما الإمام الحسين عليه السلام - أن يخالف سنّة نبيّه وهو الأعلم بها، وهو سيد شباب أهل الجنة، فلو كان هذا الحديث صحيحاً صادراً عن رسول الله ﷺ لامتنع الحسين من الخروج على يزيد ذلك الحاكم الفاسق الظالم، وهذا يعني توهيناً لرسول الرحمة ﷺ، وتقليلاً من تقديس أحاديثه وسننه، ومثل ذلك كثير من الانحرافات والأكاذيب في كتب القوم، بدأت مع بداية تدوين الحديث، فتم إدخال كثير من الروايات والأحاديث غير الصحيحة افتراءً على رسول الله بوساطة دخلاء على الدين، أو حقداً عليه، أو حسداً على حامليه الحقيقيين، لتتماشى وأهواءهم، مثل (هشام بن عروة) المدلس وهو من رجال البخاري، وما أكثر الأحاديث المروية عنه عن أبيه في البخاري وغيره[3]، والنسائي يقول عنه: إنه لم يروِ عن أبيه

(١) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ص٤٤.
(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج.
(٣) التبيين لأسماء المدلسين: ٨١ هشام بن عروة، وانظر إلى أسماء المدلسين في الكتاب.

في بعض الأحاديث التي رويت عنه لأنه لم يره.

وفي فتح الباري في شرح صحيح البخاري حديث «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»[1]، وهو مسند عن (أبو منيب) ويذكر عنه في الشرح ... (أبو منيب لا يُعرف اسمه، وفي الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه)!!، فكيف يكون الحديث صحيحاً؟.

وقد تلقف المريدون هذا الحديث بوصفه حجة لهم بأن النبي ﷺ هو رجل حروب، وقتال، وحازٌ للرؤوس، فيجب الاقتداء به انتصاراً للدين، واقتداءً به، وتنكيلاً بالأعداء، وقد أصبحت هذه الادعاءات والافتراءات عقيدة لأولئك يحاججون بها مخالفيهم حتى يصلوا إلى تكفيرهم، إن لم يعتقدوا ويقروا ويعملوا بها، فهم يقتلون الأبرياء، ويحزون الرؤوس من المسلمين وغير المسلمين، بالخطأ أو بغير خطأ، وإن سُئِلوا عن الخطأ أجابوا بأن النبي ﷺ كذلك يخطئ، فيكون التبرير جاهزاً في مسألة أن النبي يخطئ ويسهو بحيث إن النبي ﷺ المسدد من الله وآياته يخطئ فكيف بالآخرين؟ وهذا تبرير ما يفعلونه من أفاعيل لا ترضي الله ورسوله، أو يكون تبريراً لما فعله بعض الصحابة من أخطاء وفظائع وجرائم بعضهم تجاه بعضٍ، أو ما أحدثوه من أفعال مشينة، وهنا يلبسون عقيدتهم تلك بروايات وأحاديث مفتراة على النبي ﷺ، فهذا الحديث وأمثاله - إن كان صحيحاً - فشرحه بطريقتهم وفهمهم، هو طعنة للدين وحزّ لرقاب المسلمين، وإظهار أنّ النبي ينشر دينه بالقتل والحروب والإرهاب!!.

فأصبح لديهم تبريرات عديدة لجرائمهم فهم يقتلون، ويحزون الرؤوس، ويسبون النساء، كما يقتل النبي، ويحز الرؤوس، ويسبي النساء، وهم يخطؤون كما يخطئ النبي في أمور الدنيا؛ بل وزيادة بأن لهم أجراً.

ويبنى على ذلك تكفير من لم يقل بقولهم ويعتقد بمعتقدهم هذا، فيصدرون أحكامهم

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ما قيل في الرماح، حديث٢٧٥٧.

مقدماً على مقدمات فاسدة، مقدمات معروفة أحوالها، وبيئتها، وأسباب نشأتها، ورجالها .

ولكن من الواجب علينا الدفاع عن رسول الله ﷺ عن هذه الدعاوى الباطلة، فالنبي لو كان يحصل على قوته ورزقه بالرمح لعاش عيشة الملوك فكل السبل إليه ميسرة من الله سبحانه، ولو أراد أي شيء لاستجيبَتْ له كل ما طالبه من زخارف الدنيا وخدم وحشم، ولكن واقع حاله ينبئ بغير هذا المدَّعى، فكان يمر عليه الشهر والشهران ولا توقد نار في بيته، فلم يكن له من الطعام إلا الأسودان (التمر والماء)؛ كما في صحيح البخاري عن عائشة: «قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنما هو التمرُ والماءُ إلا أن نؤتى باللُّحَيم»[1].

وفيه أيضاً عن عائشة: «قالت: توفيَ رسولُ الله ودرعُهُ مرهونةٌ عندَ يهوديَّ بثلاثينَ صاعاً من شعير»[2].

أما إشكالية أنه يجوز الخطأ على النبي ﷺ أو الأنبياء ﵈، فإننا نواجه ذلك بالدليل القرآني الذي يضع النقاط على الحروف بوصفه دليلاً نقلياً قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[3] إذ إن الشيطان لا يستطيع إغواء الأنبياء بقسمه؛ لأنه يائس من إغوائهم بسبب ما يمتلكونه من الله من التنزيه في الوقوع بالإثم والضلال، وإلا فإنه عدو للأنبياء بالذات، ولو كان باستطاعته غوايتهم لأغواهم، لكنه عاجز عن ذلك فتخلى عنهم!!.

وفي الذكر الحكيم هناك كثير من الآيات تذكر أن الأنبياء ﵈ هم المخلصون، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾[4] وكذلك قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري :٥٩٧٧.

(٢) صحيح البخاري:٢٧٠٠.

(٣) ص: ٨٢ – ٨٣ .

(٤) ص: ٤٥ – ٤٦.

(٥) سورة يوسف: الآية ٢٤.

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثيراً ما تدلل على أن الأنبياء ﷺ معصومون بالإطلاق، وحينئذٍ طاعتهم مطلقة؛ لأنهم في طريق تبليغ ما شرَّعهُ الله للناس من أحكام دينية ودنيوية مفروضة، فهم مطيعون لله، وبالنتيجة على الناس الطاعة لهم، وطاعتهم هي طاعة لله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك فالالتزام بهذا المنهج يقتضي الابتعاد عن أعداء الرسالات السماوية، والأنبياء والرسل، وهذا ما لا يروق لهم ألبتة، لذا هم ومنذ فجر التاريخ يعدون العدة للإجهاز على كل منهج إلهي يريد تنفيذ العدل والمساواة والأحكام الإلهية بين بني البشر.

وقد استغل المريدون العقيدة الثابتة، بأن النبي محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين، فساغ لأنفسهم أن يكونوا هم البديل للإمساك بالشرع المقدس بعده ليضعوا أيديهم عليه، ويغيروا في أحكامه ما يشاؤون من دون رقيب، ومن يقاومهم ويذب عن حياض الدين فمصيره القتل، والتشريد، والتهجير، والنفي، وهذا ما شهده لنا التاريخ على مدى العصور، فخلت الساحة إلا منهم، وإذا (ابن تيمية) يتربع على عرش الدين مغيّراً في أحكامه ما يشاء.

ابن تيمية (شيخ الإسلام)

سمي (بشيخ الاسلام)!! لتشريعاته الجديدة، وأحكام مشوهة لم يعهدها المسلمون من أسلافهم إلا ما قام به أحمد بن حنبل من اعتراضه على بعض الأفكار الفكرية والفقهية التي تزعمها المعتزلة بمؤازرة المأمون العباسي، كمسألة خلق القرآن، ونفي الصفات وتعطيلها، ونفي القدر (بأن العباد هم خالقو أفعالهم)، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، ومسألة الوعد والوعيد، وغيرها من الأطروحات الفكرية التي تبنتها المعتزلة[1]، فكان أحمد بن حنبل الإمام الممهد الأول للفكر السلفي، تصدّى للفكر الاعتزالي هو والأشعرية، وهو القائل بأن القرآن كلام الله، فاشتد الجدل في وقته حتى سجن، ثم تلاهم (ابن تيمية)[2] الناصبي في ما بعد متبنياً أفكارهم، فكان المؤسس الحقيقي للنصب والعداء لكثير من أئمة ومذاهب المسلمين؛

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢٦/١، ٣٢-٣٠/١.
(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: ص٤.

ولاسيّما أئمة مذهب أهل البيت ﷺ، وقد سار ابن تيمية على خطى أحمد بن حنبل نفسه بقوله عن القرآن بأنه كلام الله: «وهو الذي نتلوه نحن مقروءاً بألسنتنا وفي ما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروءاً وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[1]، ولا نريد أن نكثّف البحث عن ذلك فالتخبط والاختلافات والتفرق بين المذاهب قد اشتدت كثيراً، يكفر بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم الآخر، بسبب المتبنيات الكثيرة الخاطئة، التي تبنتها كثير من المذاهب الإسلامية؛ ولاسيما أتباع ابن تيمية، فهم يتبعونه بمقولات عظيمة في التجسيم وقدم العالم، مثل قدم النوع وحدوث أفراده؛ بل ويفتري على بعض علماء المسلمين ممن سبقه بأنهم يعتقدون بالجسم والنوع كما يعتقده أحمد بن حنبل والشافعي؛ إذ يقول: «ومنهم من يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً، لكنه لم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد، قديم النوع كما يقول ذلك من يقوله من أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد »!![2]، في حين نفى بعض أتباع ابن حنبل مثل (أبو الفضل) ما ادعاه ابن تيمية حول ذلك الاعتقاد قال: «إن الأسماء ماخوذة بالشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذي طولٍ وعرْضٍ وسمكٍ وتركيبٍ وصورةٍ وتاليفٍ، والله تعالى خارج عن ذلك كله، فلم يجز أن يسمى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجئ في الشريعة ذلك، فبطل[3]. وفي جواب ابن تيمية عن سؤال في النزول والتجسيم قال : «وأما الشرع فمعلوم أنه لم ينقل عن أحد من الأنبياء ولا الصحابة والتابعين ولا سلف الأمة أن الله جسم، أو أن الله ليس بجسم؛ بل النفي والإثبات بدعة في الشرع»[4]. وقال أيضاً «وقد يراد بالجسم ما يشار إليه أو مما يرى أو تقوم به الصفات، والله تعالى يرى في الآخرة وتقوم به الصفات ويشير إليه الناس عند الدعاء بأيديهم وقلوبهم ووجوهم وأعينهم، فإن أراد بقوله ليس بجسم هذا المعنى قيل له هذا المعنى الذي

---

(١) رسائل سلفيةج٣:رسالة في صفة الكلام للعلامة تقي الدين ابن تيمية:ص٥٥.
(٢) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية: ج١، ص٧٥ ، و ج١، ص٣٢٠.
(٣) كتاب اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل: ص ٤٧ (أبو الفضل عبد الواحد بن عبدالعزيز بن الحارث التميمي).
(٤) كتاب شرح حديث النزول لابن تيمية :ص ٢٥٨.

قصدت نفيه بهذا اللفظ معنى ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول وأنت لم تقم دليلاً على نفيه»[1]. ولا نريد أن نطيل في مسألة اعتقاده بالتجسيم، ولكننا نريد أن نصل إلى القصد الذي نروم من أجله وهو أن ابن تيمية خالف السلف بصريح عباراته، فإنه يؤكد بضرس قاطع بالجسمية لله وقدم العالم بآرائه الكثيرة التي تفوق ما ذكرنا، وهو بهذا يخالف منهج السلف في اعتقادهم بالله كما أسلفنا بموجز الآراء، وحتى ينتصر ابن تيمية لآرائه، يفتري على معظم أئمة السلف من أئمة الأمة، ويتبنى تلك الافتراءات، بل إنه يحاول بكل جهده أن لا يتبنى آراء من لا يتوافق مع ما يريد إضفائه من معتقدات ملوثة على أنها معتقدات إسلامية، هي شبهات لا أساس لها في العقيدة ولا معهودة عند معتقد السلف أو أئمة أهل البيت ﴿﴾، فما بالكم وهو يكيد غيظاً لهم؟!، ولاسيّما الإمام علي ﴿﴾.

بغضه الإمام علياً وأهل البيت ﴿﴾

إن لابن تيمية آراءً عجيبة مليئة بالكراهية ونصب العداء للإمام ﴿﴾، ولا يهمنا نصبه للإمام وللشيعة بالتبع، فإن رأيه في الإمام لا يزيده ولا ينقصه قيد أنملة، ولكن ما يهمنا هو ما يترتب على آرائه من تأثير في عقول أتباعه تترجم بممارسات مليئة بالكراهية، ثم تنفذ بمظاهر الدم وبأشكال مختلفة، وما ظهر من تصرفاتهم فعلاً، لهو خير دليل على ما أنتج فكره من سلبيات عظيمة على المجتمع الإسلامي وتصرفات شبابه.

فالمسلمون يعلمون ما هو دور الإمام علي ﴿﴾، وما قربه من النبي ﴿﴾، ومنزلته عند المسلمين في عهده وبعده وإلى الآن، وفي الأقل أنه من الخلفاء الراشدين عند المسلمين قاطبة، ولكن عندما نفتش عن آراء ابن تيمية حول إيمان الإمام علي ﴿﴾ يظهر الآتي: «وعلي يثبت له حكم الكفر والإيمان وهو دون البلوغ، والصبي المولود بين أبوين كافرين يجري عليه حكم الكفر في الدنيا باتفاق المسلمين، وإذا أسلم قبل البلوغ على قولين للعلماء، بخلاف البالغ فإنه يصير مسلماً باتفاق المسلمين، فكان إسلام الثلاثة مخرجاً لهم من الكفر باتفاق المسلمين، وأما

---

(١) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام :ج١، ص٢٥٩.

إسلام علي فهل يكون مخرجاً له من الكفر؟... إلى أن يقول ومذهب الشافعي أن إسلام الصبي غير مخرج له من الكفر»!!...إضافة إلى قوله: «فلا يمكن الجزم بأن علياً أو الزبير أو نحوهما لم يسجدوا لصنم»!![1]...يريد أن يُنهي المسلمون احترامهم الكبير للإمام عليه السلام بقولهم عنه (كرم الله وجهه)!! لأنه لم يسجد لصنم قط، وهو ابن عم الرسول، وزوج البتول، وأبو الحسنين!!.

ويتحجج في عدم موافقة إجماع المسلمين في القتال معه بقوله: «وأما الإجماع فقد تخلف عن بيعته والقتال معه نصف الأمة أو أقل أو أكثر، والنصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله تقتضي أن ترك القتال كان خيراً للطائفتين، وأن القعود عن القتال كان خيراً من القيام فيه، وأن علياً مع كونه الأولى بالحق من معاوية، لو ترك القتال، لكان أفضل وأصلح وخيراً».[2]

وينكر ابن تيمية حديث النبي صلى الله عليه وآله أن علياً عليه السلام سوف يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ويقول عنه إنه موضوع: «أما الحديث الذي يروي أنه أمر بقتل الناكثين، والقاسطين، والمارقين فهو حديث موضوع على النبي صلى الله عليه وآله، ومعلوم أن الرأي إن لم يكن مذموماً فلا رأي أعظم ذماً من رأي أريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا في دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير عما كان وزاد الشر على ما كان».[3]

كيف يقول عن حديث قتاله الناكثين والقاسطين والمارقين بأنه موضوع؟!!، وقد ذكره كثير من رواة الأحاديث أمثال النسائي، ومسند البزار والطبراني، كما أخرج ذلك عنهم ابن حجر العسقلاني[4].

ويذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني أيضاً في الدرر الكامنة أن ابن تيمية خطَّأ أمير المؤمنين

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية: المجلد الرابع، ص٣٤١.

(٢)المصدر السابق: ص٢٩٢.

(٣) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية: المجلد الرابع ، ص٢٤٧.

(٤) خرجه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ج٤، من السنن الكبرى للنسائي: كتاب الخصائص باب ذكر ما خص به علي من قال للمارقين، ٥/ ١٥٩-١٦٠، ومسند البزار البحر الزخار: ٦، ٢١٥، رقم:٦٠٤.

علياً ﷺ كثيراً قال: «قال في حق علي أخطأ في سبعة عشر شيئاً خالف فيها نص الكتاب»(١)، فهذا نزر يسير من منشورات بغضه، ولذا إن ابن تيمية (منافق) اتفاقاً مع قول النبي ﷺ: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»(٢). وقد ذكر كثير من علماء المسلمين بألفاظ وروايات مختلفة عن منزلة الإمام علي ﷺ ومكانته وفضله، تُسكت ما يلجلج به ابن تيمية من افتراءات على أخي رسول الله ووصيه وأمينه على وحيه .

قال البيهقي: «وكل من نازع أمير المؤمنين علياً بن أبي طالب في إمارته فهو باغٍ. على هذا عهدت مشايخنا وبه قال ابن إدريس- يعني الشافعي رحمه الله»(٣).

لقد نقل لنا علماء المسلمين كثيراً من فضائل الإمام علي ﷺ، لا نحتاج معها إلى التردد والشك والريبة عن شخصيته الكريمة، مما تجعلنا وتجعل القارئ المسلم البصير ينبذ وينكر كل مناكير ابن تيمية وشبهاته سواء عن الامام علي ﷺ أم عن التجسيم، أم أي شبهة من شبهاته الأخرى التي قال بها وأقرها أتباعه، كقوله بالانتقال والحركة في حق الله، ونسبة الجهة له سبحانه وبالجلوس، وبتحريمه التوسل بالأنبياء والصالحين والتبرك بهم وبآثارهم، وزعمه بمعصية زيارة النبي ﷺ (٤)، فتميز فكر هذا الرجل بالشذوذ والتطرف والابتعاد عن المذاهب الإسلامية ورجالاتها، ولا غرابة إنه أول من أسس الكراهية والبغض لشيعة أهل البيت ﷺ؛ إذ وسمهم بالشر قال: «إنهم شر من عامة أهل الأهواء، وأحق بالقتال من الخوارج»!! وينقل عنه أنه قال عن الشيعة: «إذا صار لليهود دولة بالعراق والنصارى، ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم»(٥).

فكانت أفكاره هي المحرك الأساسيّ للنظريات التكفيرية التي لا تعتبر في واقع الأفكار

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر العسقلاني:ج١، ص٣٩.
(٢) صحيح مسلم : حديث رقم ١٣٣ ومسند أحمد: حديث، ٢٥٥٢٣، وسنن الترمذي: حديث رقم ٣٦٥١، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين.
(٣) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد :للحافظ الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي: ص ٢١٩.
(٤) مجموعة الفتاوي :ج٤، ص٣٣٣.
(٥) منهاج السنة النبوية لابن تيمية:ج٣، ص٣٧٨.

فكراً يُعتد به، إنما هي من تفاهات الأمور، وهي من الأفكار المنحرفة مسطرة في كتبه ومنتشرة في الجامعات الإسلامية والمدارس السلفية ويا للأسف، يقرها من يقرها وينكرها من أراد ذلك، ولكنها أصبحت مسلمة عند اتباعه، ولاسيّما الوهابية منهم، أتباع محمد بن عبد الوهاب النجدي الذي تقلد راية التكفير بعده!!.

محمد بن عبد الوهاب النجدي

لا نريد أن نتطرق إلى حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عن نشأته وحياته ووفاته، وهذا مما لا ينفعنا في البحث في شيء سوى ما تأثر به الشيخ، وأثر في أتباعه من عقائد تستوقفنا، وتجعلنا نؤكد بأنها عقائد وأفكار ليس لها صلة بالدين الإسلامي الحنيف، دين السلام، والتسامح، والعلم والمعرفة، والخلق، والآداب، والكرامة، والفداء، والإيثار، وغير ذلك من الصفات الكريمة التي لا عد لها لديننا الحنيف.

فما بين سنة (١١١٥ هـ إلى ١٢٠٧هـ) عاهد الشيخ بأن يجدد ما ابتدعه ابن تيمية من عقائد؛ ولكنه أضاف إليها تطبيقه العملي، فبعد أن تحالف مع آل سعود ليوفر لنفسه غطاءً سياسياً وضع لهم إطاراً شرعياً بـ(الطاعة للحاكم وإتباعه وعدم الخروج عليه) فوفر الأرضية المناسبة لسلطته الدينية المستمدة من نهج ابن تيمية، حتى لا تندثر أو تطوى آراؤه في صحائفه للنسيان، فأمسك بزمام الإرشاد الديني السلفي ليكون هو الداعي لدعوته الجديدة القديمة، مع آل سعود على أن يكونوا هم على السلطة، وفي الغزوات لهم (غنائمها) فتعززت علاقة الشيخ بآل سعود أكثر حين تزوج من أخت الأمير السعودي آنذاك ترسيخاً لتحالفهما، ثم سمح للأمير بغزو نجد [1](وكأنه يوحى له ذلك)!! والاتفاقية ما زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا، بين آل الشيخ وآل سعود!!.

فالمقصد من تمهيدنا المختصر هذا بشأن الشيخ السلفي محمد بن عبد بن الوهاب، ظروف مجيئه والحالة المأساوية المحيطة بالجزيرة التي أدت لتهيئته، ومدى اتساع مساحة الفراغ

---

(١) بحوث في الملل والنحل: لآية الله الشيخ جعفر السبحاني، ج٤، ص٣٣٨.

الفكري بين أوساط المسلمين وعلمائهم في الجزيرة أو في بقية الأصقاع العربية والإسلامية، فكانت هناك أرضية خصبة مليئة بالأمية، أنجبت مثل هذا الرجل، كما يذكر ذلك جميل صدقي الزهاوي: «لما رأى ابن عبد الوهاب أن قاطبة بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة، لم يزالوا على البساطة والسذاجة في الفطرة، وقد ساد عليهم الجهل حتى لم تبقَ للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج، وجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن تزرع فيه بذور الفساد، مما كانت نفسه تنزع إليه وتمنيه به من قديم الزمان...إلى أن قال فحمله هذا الأمر على تكفير جميع طوائف المسلمين .وجعلهم مشركين بل أسوأ حالاً، وأشد كفراً وضلالاً، فعمد إلى الآيات القرآنية النازلة في المشركين فجعلها عامة شاملة لجميع المسلمين، الذين يزورون قبر نبيهم ويستشفعون به إلى ربهم»[1]، ثم إن ضعف الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، جعلته يُشكل عصابات تغزو المسلمين فقط !! وتقتلهم في مدنهم وتعيث فيها الفساد، وتهاجم قوافل الحجاج طمعاً بالغنائم بحجة الجهاد لدعوة التوحيد، وبضعفها أيضاً سمحت للمخابرات البريطانية العبث بمقدرات المسلمين لتجد من تربي لها منهم شيوخاً يخدمونها مستقبلاً طمعاً لنهب ثرواتهم وثروات الجزيرة والمنطقة العربية والإسلامية، خدمة لمشروعها الاستعماري .

ويأتي ذلك لعدم وجود دولة أو قائد موحد للجزيرة، فترى أهلها ملتفين حول قبائلهم لحمايتها من الغزوات، بسبب تفشي غزو القبائل بعضها بعضاً الآخر، أو قطع الطرق للنهب والسلب، أو السفر إلى البلدان المجاورة، فليس هناك موردٌ للرزق، لعدم وجود حرف معتادة يعملون بها كالزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، أو الاشتغال بأعمال خدمية إن لم تكن إنتاجية مثلاً، أو بعرض البضاعات المنتجة محلياً وغيرها، بعكس البلدان المجاورة للجزيرة، كالعراق، والشام، ومصر، واليمن؛ إذ كانت شعوب هذه البلدان منذ فجر التاريخ تتّقن الحرف، والزراعة، والصناعة، والعلوم المتنوعة، والفنون المختلفة، ويشهد لنا التاريخ نبوغ مفكرين وأدباء وفلاسفة ومبدعين من هذه البلدان، في حين لم يذكر لنا التاريخ عن مفكري أهل الجزيرة أو مبدعيها إلا القليل!، فالجهل والتخلف والعقلية الجافة الصحراوية والحروب

---

(١) جميل صدقي الزهاوي، الفجر الصادق: ص١٤.

المتناحرة المتتالية بين قبائلها، هي السمة الغالبة على حياة الجزيرة فأصبحت بهذه الحالة معزولة عن الحضارة الإنسانية .

تكفيره المسلمين

ركز الفكر الوهابي على أمور عديدة، برر من خلالها قتل المسلمين في أنحاء العالم الإسلاميّ، منها وأبرزها: زيارة القبور والتوسل بالصالحين بحجة أنها شرك وبدع، فجعلوا أنفسهم حاكمين على المسلمين وما تستبطنه قلوبهم، فالشريعة الإسلامية لا تتحكم بدواخل ما يستبطنه الإنسان، فهو شأن مرتبط بين الإنسان وربه!، فمثلاً نقول من أين لهم العلم أن المسلم عندما يأتي قبور الصالحين لزيارتهم هو بمثابة عبادتهم؟ ما هو العلم الذي علموه من سرائرهم حتى يحكموا بشركهم؟ ألا يكون ذلك رجما بالغيب؟ وهم يعتقدون أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ثم ما الذي يجعل المسلم يقتدي بالصالحين غير شواهدهم ومعالمهم؟ كي تبقى معلماً يرتاده محبّوهم، وهل في الحب شرك؟ ألم تزرع محبة الصالحين السلام والطمأنينة بين الناس في ربوع البلدان؟ لكن أولئك أشعلوا صراعات مأساوية، لأسباب عدة منها: إنهم جاؤوا بإرادة دولية وتخطيط صهيوني سابق لتهيئة الساحة للاستحواذ على مقدرات المنطقة العربية والإسلامية ومحو مقدساتها، وهو سبب بارز جداً، ثم إن الحالة الاقتصادية للجزيرة المتردية جداً غير مهيئة لتكوين جيوش ينشرون دعوتهم بها إلا بغزو المدن المجاورة وأخذ الغنائم لتمويل جيوشهم، وكما قلنا سابقاً إن الحالة الاقتصادية في الجزيرة جعلت من أهلها أن يكوّنوا قبائل متحالفة لصد هجمات القبائل الأخرى، وهذا الأمر جلي منذ القدم؛ ولذلك قامت الجيوش الوهابية بإذلال وقتلهم أهل مكة والطائف والمدينة والرياض وكربلاء والنجف وغيرها من المدن العربية الإسلامية !!، إذ غزوها ودمّروها بحجة أن أهل هذه المدن غير مسلمين كما جاء في كتاب عنوان المجد لابن بشير في احتلال الرياض في أحداث ١١٨٧هـ: (وفيها سار عبد العزيز بالجنود المنصورة وقصد الرياض ونازل أهلها أياماً عديدة وضيق عليهم واستولى على بعض بروجهم وهدمها المسلمون وهدموا المرقب وقتل على أهلها رجالاً كثيراً...) أي: إن جنود محمد بن عبد الوهاب جنود (التوحيد)، وهم مسلمون

يحاربون أهل الكفر في الرياض وغيرها فيقول: «ففر أهل الرياض في ساقته - أي ساقة حاكمها- الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على أحد، هربوا على وجوههم إلى البرية السهباء قاصدين الخرج وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً....»[1] وفي الحقيقة أن حروبهم هذه بحاجة إلى وقود، ووقودها الأموال والغنائم التي يغنمونها كي تكون هبات يكرمون بها جنودهم...، إلى أن قال: «ويغنمون، ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها، وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والطعام والأمتاع وغير ذلك، وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها...»، فانظر إلى حجم الغنائم التي حصدوها من المشركين!!.

وفي تاريخ سنة ١١٦٦هـ من تاريخ نجد، عن العلامة الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي مكة آنذاك في كتابه فتنة الوهابية : «وكان يأمر من حج حجة الإسلام أن يعيد حجته مرة أخرى؛ لأنه حج وقت أن كان مشركاً! كما يطلب ممن يريد الدخول في دينه أن يشهد على نفسه بأنه كافر وأن أبويه ماتا على الكفر، وأن فلاناً العالم كافر»[2] .

ثم يقول صاحب الكتاب عن جنود الوهابية جنود التوحيد أو يلقبهم بـ (المسلمون) قائلاً : «ثم غزا المسلمون ثادقاً فلما اقتربوا منها ليلاً عبؤوا الجيوش، وأعدوا الكمين، فلما ظهر مقاتلة البلد عاجلهم الكمين فولوا هاربين وقتل منهم - محمد بن سلامة - ستة آخرين ... وأخذ المسلمون أغنامهم» ولاحظ كلمة المسلمون يطلقها على جنود الوهابية في حين يطلق على أهل المدن بأنهم أهل شرك أو كفر «وقد غزا المسلمون ثرمداً مرة ثانية في السنة نفسها والأمير عليهم عثمان، ولم يقع قتال إذ لم يخرج من أهل المدينة أحد لقتالهم...، فدمر المسلمون المزارع وانقلبوا راجعين»[3].

ويذكر ابن بشير أيضاً في أحداث مكة: «أن لحوم الحمير والجيف بيعت فيها بأغلى الأثمان، وأكلت الكلاب، وأخذ الناس يهجرونها نتيجة الخطر الجاثم على أطرافها، فلم يبقَ فيها إلا

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد:١/١٥.
(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد: ص ١٠٦.
(٣) المصدر السابق: ص١٠٢.

النادر من الناس»[١].

وهناك رسالة وجهها الملك سعود إلى أهل مكة يذكرها ابن بشير، يقول فيها: «من سعود بن عبد العزيز إلى أهل مكة والعلماء والآغوات وقاضي السلطان كافة.

السلام على من اتبع الهدى أما بعد: فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢] فأنتم في أمان الله ثم في أمان أمير المسلمين ابن عبد العزيز، وأميركم عبد المعين بن مساعد، فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام»[٣].

وهذه الرسالة فيها عبارات تهديد إلى مسلمي مكة (المشركون)!!بنظر ابن سعود يدعوهم فيها إلى الإسلام (الوهابي)!!.

مباني العقيدة الوهابية

إن أبرز المباني الفكرية التي تعتقدها الوهابية هي عقيدة التجسيم، وقد ذكرنا سابقاً أنها من العقائد الباطلة التي تسربت من الإسرائيليات، كما ذكرنا عن (كعب الأحبار) ووهب بن منبه، والتجسيم هو نفسه التشبيه يُتخيَّل بأن الله تعالى هو شكل من الأشكال، أو يمكن أن يصوّر على صورة ما، أو صورة رجل يجلس على الكرسي، وهذا ما تدلنا عليه كتبهم التي يتكلمون عليها، على أنهم بهذا الكلام وهذا الاعتقاد (موحدون)، وبهذا الاعتقاد أيضاً يثبتون له بأن له أعضاءً يؤكدونها كما وصفها الله لنفسه مثل الساق والوجه واليد والقدم والجلوس وغيرها من صفات الأجسام، كما جاءت في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٤]،

---

(١) المصدر السابق: ج١، ص١٣٥.
(٢) آل عمران: ٦٤
(٣) عنوان المجد في تاريخ نجد: ص٢٦١.
(٤) القصص: ٨٨.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2]. فهم بهذه الصفات لا يؤلونها؛ بل يثبتونها كما جاءت، وكما وصف الله نفسه، وبهذا الاعتقاد يجسمون الله، ويقتضي بهذا الاعتقاد القول بالمحدودية، وكل محدود يحتاج إلى محيط يحيط به وهو الفضاء، والجسم كذلك يتقوم بالأبعاد، والأبعاد بحاجة إلى الصورة، وكل ذلك من بداهة الأمور، لأن الله سبحانه هو خالق الأجسام ومقومها ومصورها، ولكن ذلك باطل عندهم!!.

وكذلك يدللون على جسمية الله كما في الرواية الآتية عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث آخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[3].

وهذه الرواية ليست في البخاري فقط، فهي موجودة في صحيح مسلم وسنن أبي داود ومسند الترمذي وغيرهم.

وروى ابن أبي عاصم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورة وجهه»[4].

إذاً لله وجه كما في هذه الرواية وكما صححها الألباني، وهذه إحدى المباني الأساسية من عقائد الوهابية (عقيدة التوحيد)، يرتكزون عليها وبها يوحدون الله على حسب معتقدهم، ويجرون على مخالفيهم حكم التكفير، هذا نزر يسير من عقائد الوهابية التزموا بها وجعلوها عقائد لا نزول عنها.

ونحن لا نتجنى على القوم، فكتبهم مليئة بهذه العقائد التجسيمية وغير التجسيمية انفردوا بها من دون تأويل، فوقعوا بالتجسيم، في حين كثير من المسلمين ينزهون الله بتأويلهم

---

(١) طه: ٥.

(٢)القصص: ٨٨، و سورة طه: ٥ ، وسورة الفتح : ١٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل: (٦٣٢١) ، وصحيح مسلم، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل: (١٧٦٩) ، وكذلك يذكره أبو داود في سننه، وأحمد بن حنبل في مسنده والترمذي وغيرهم.

(٤) قال عنه الشيخ الألباني: إسناده صحيح.

هذه الصفات إلى معان كالقدرة والهيمنة والعلم وغير ذلك.

مسألة التوسل والتبرك

وكذلك اشتهر عند الوهابية قضية حرمة التوسل بالأنبياء والصالحين، فمن يتوسل بهم مشرك، ويرمون المسلمين، إن عملوا بها (بالمشركين)، كما يرمون الشيعة والصوفية عندما يتوسلون بالأئمة الطاهرين والصالحين (بالمشركين)!!، ولكنهم يعملون بخلاف ما روي في كتب كثيرة عن أئمة الحديث، عن عثمان بن حنيف : «أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إيتِ الميضأة فتوضأ ثم ائتِ المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل :اللهم إني أسالك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك ورُح إلي حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب فأخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة؛ وقال: حاجتك؟، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له (معتذراً) ما ذكرتُ حاجتك حتى الساعة، وقال ما كان لك من حاجة فأتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقيَ عثمان بن حنيف؛ فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليَّ، فقال له النبي ﷺ: إئتِ الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم ادعُ بهذه الكلمات، فقال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط»(١) قال الطبراني والحديث صحيح.

وقد أتينا بالرواية كاملة؛ لأنها تخالف ما أتت به الوهابية من عقيدة باطلة حول التوسل!! وهذه الرواية من معتقدات كثير من علماء ورواة الحديث عند أهل السنة ورواتها، وهي تكفي

---

(١) أخرجه الطبراني(٣٦٠هـ) في معاجمه الثلاثة وأقره الحافظ نور الدين الهيثمي(٨٠٧هـ) في مجمع البحرين في زوائد المعجمين الصغير والأوسط (ج٢ص٣١٨) وصححها، الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، والبخاري إمام المحدثين في التاريخ الكبير في ترجمة الصحابي عثمان بن حنيف، وحتى ابن تيمية روى جواز التوسل برسول الله ﷺ بعد موته عن السلف في كتابه (ص١٢٣ دار الكتاب العربي ١٩٨٥) وغيرهم كثير .

عن غيرها من الروايات بشأن مشروعية التوسل، كتوسل عمر بن الخطاب بالعباس عم النبي ﷺ، وغيرها من الروايات، أما التبرك فهناك رواية يذكرها الطبري[1]، في تبرك المسلمين ببعر جمل عائشة فيشمونه ويقولون بعر جمل أمنا عائشة أطيب من المسك!.

وليس إثبات تكفير الوهابية للمسلمين إحضار كثرة الروايات، بل هم يكفيهم تكفير المسلمين ولو رواية واحدة سواء تكون ضعيفة أم موضوعة أم بأي شكل من الأشكال.

وعلى العموم فقد استمرت حروب الوهابية وآل سعود تجاه المسلمين المسالمين في مدنهم وآقاليمهم وقراهم حتى ملكوا ما ملكوا من أقاليم في الجزيرة، تحت راية (التوحيد)!! وتكفير كل من يخالفهم، فسميت تلك الأقاليم باسم عائلة (آل سعود)، وهي التي لا يتجاوز أفرادها عدد الأصابع، وهكذا قويت شوكتهم وترسخت دولتهم، بمؤازرة المخابرات الأمريكية والبريطانية ووجودها في الجزيرة؛ ولاسيما مع مواكبة اكتشاف البترول وسيطرة شركات هاتين الدولتين، وحصولهما على امتيازات كبيرة جداً في مقابل التعهد بحماية دولة آل سعود، فوجود هذه الشركات يستدعي حمايتها من قبل دولتيهما، بإنشاء قواعد عسكرية ومركز عمليات معينة، ويأتي ذلك مواكباً لحماية إسرائيل (على وشك الإنشاء) من أي اعتداء عليها سواء من العرب أم أي معتد آخر!.

هذه الدولة أصبحت قوية ومترامية الأطراف منذ تكوينها وإلى الآن تحت شعار (راية التوحيد) المدعاة، برغم القسوة والحملات الحربية التي شنتها على كثير من المسلمين ومدنهم وقراهم، بسبب تلك الحماية الدولية لها والازدهار الاقتصادي من موارد البترول مؤخراً كلها تصب لصالح ترسيخ هذه الدولة ووجودها التي أصبحت طعنة في خاصرة الإسلام والمسلمين.

وأما الدفاع الذاتي للبيت السعودي أو (الفكر الوهابي) فيأتي بالمرتبة الثانية، وبعوامل عديدة :

---

(١) تاريخ الطبري:ج٣،ص٥٣٠.

١- لما كانت الدولة السعودية يوجد على أراضيها الحرمين الشريفين (الكعبة المشرفة وقبر النبي ﷺ في المدينة المنورة)، فالمسلمون يكنون لهما وللسعودية قدسية خاصة، فلا يمكن لأي مسلم أن يعتدي على هذه البقعة احتراماً لقدسية هاتين المدينتين، إذاً هي في مأمن.

٢- الموارد التي تحصل عليها المملكة في مواسم الحج من شتى أصقاع الأرض، وموارد البترول العالية جداً، تجعلها تكتفي لأن تكون قوة اقتصادية لا بأس بها في المنطقة.

٣- إن كثيراً من المسلمين يعتبرون السعودية وعلماءها قدوة، ومرجعاً دينياً لهم، فما يفتيه رجالاتها الدينون يعتبر من المقدسات، فتنفيذها واجب شرعي!!.

٤- يعتبر المسلمون أن هذا التطور العمراني للحرمين وبعض المدن وازدهار المملكة، ما هو إلا بسبب (السياسة الحكيمة) لقيادة المملكة وعلمائها الأعلام!.

ومن ذلك يعتبر الفرد السعودي نفسه ذا شخصية مميزة؛ لأنه محروس في الأرض المقدسة، مما يجب عليه أن يتميز بمقدار عالٍ من التصرف يميزه عن غيره من الأفراد في العالم، ولكن رأينا العكس من ذلك، فالتحسن الاقتصادي ووفرة الأموال لن تجعل هذا الفرد كما يؤمل منه! فحالة الفرد السعودي الآن هو فرد غير متقن للحرف والأعمال والصناعات، لأنه غير معتادٍ عليها، فلم يرث أيّاً من الصناعات أو الحرف عن أجياله السابقين، إلا ما ندر من الذين استطاعوا إنشاء شركات أو عقارات تجعلهم في غنى من البحث عن أعمال أخرى، وقد ذكرنا أن أهل الجزيرة يستصغرون الأعمال والحرف حتى أطلق على أي حرفة بـ (المهنة) أي هم يستهينون بالحرف والأعمال اليدوية، كما يذكر ذلك الاجتماعي الدكتور علي الوردي في بحثه المسمى الضائع من الموارد الأخلاقية لدى البدو[1]، وعليه فيضطرون للاستعانة باليد العاملة

---

(١) عن بحث للدكتور علي الوردي :الضائع من الموارد الأخلاقية لدى البدو: في شخصية المجتمع البدوي قال: (ومن أكبر العار على أحدهم أن يقال عنه أنه صانع أو حائك. فذلك يعني في نظرهم أنه ضعيف يحصل على قوته بعرق جبينه كالنساء ولا يحصل عليه بحد السيف. ومن هنا أطلقوا على العمل اليدوي اسم المهنة والمهنة مشتقة من المهانة كما لا يخفى...إلخ).

الرخيصة من الهند والباكستان وسريلانكا وغيرها من البلدان الآسيوية الفقيرة، ولم نجد من يستغل هذا التطور العالمي في التكنلوجيا والحاسب الألكتروني ومجالات الاتصالات الحديثة وغيرها لتطوير المجتمع العربي والإسلامي، ولكن ما إن مرت أجيال عديدة وإذا الفرد السعودي (والشباب على وجه الخصوص)، لا يجيدون العمل لكثير من الحرف والأعمال، وكأنهم مشلولو الأيدي، إلا ما يوفره لهم الخدم والحشم والأيدي العاملة المستوردة، فأصبحت الشخصية السعودية ناقصة وفي حالة فراغ قاس!، ولذلك نشأت مشاكل اجتماعية لدى كثير من شباب المملكة، وحتى شباب دول الخليج؛ نتيجة الفراغ الكبير في حياتهم، مما سلكوا مسلكاً آخر، هو اللجوء إلى ممارسات سيئة كتناول المخدرات (كما نشر في مقال في شبكة الإعلام العربية)[1]، ومشاكل الشذوذ الجنسي كما ذكرت الدكتورة (نورة الشريم) أستاذة علم النفس بكلية التربية بجامعة الملك سعود لشبكة إسلام أون لاين. نت: «أشارت الى دراسة للدكتور علي الزهراني في نفس الجامعة عن سوء معاملة الاطفال والمراهقين في المجتمع السعودي، وتوصلت إلى أن حوالي ٢٢٧٪ من الأطفال تعرض للتحرش الجنسي، و٦٢١٪ رفضوا الإفصاح عن الأشخاص الذين أساؤوا إليهم، كما بينت أنها قامت بدراسة استطلاعية تم إجراؤها على عينة من ١٠٠فتاة فوق سن الـ٢٣ فوجدت أن ٧٥٪ منهن تعرضن للتحرش الجنسي من العمال و١٥٪من المعارف ،و١٠٪من المحارم ...»[2]، وغير ذلك كثير، ولكن في حالة يقظة وشعور بعضٍ منهم بالذنب من هذه العادات، نجدهم يرجعون إلى الدين، فلا يرون أمامهم إلا فتاوى التكفير!!، والجهاد المليئة بالمحفزات المالية والإغراءات الأخرى، كجهاد النكاح، ورضاعة الكبير، ونكاح الذكر، والمحارم وغيرها، فأصبح أولئك

---

(١) إدمان وترويج المخدرات يهددان المجتمع السعودي :شبكة الإعلام العربية: تقرير عن الإعلامية إلهام محمد علي بتاريخ ١٥-٠٤-٢٠١٣، وقد جاء في التقرير(إن ٧٠٠ ألف حبة كبتاجون (مخدر) تستخدم يومياً في المملكة في ظل وجود ١٤٠ألف متعاط منتظم وأن قيمة استهلاك المخدرات في السعودية تصل إلى تسعة مليارات سنويا، وأن عدد المقبوض عليهم سنوياً يصل ٣٧ألف شخص)... وانظر إلى تقرير اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات في المملكة العربية السعودية تعزو أسباب تفشي ظاهرة المخدرات إلى اسباب عدة من أبرزها ضعف العقيدة الدينية والذات الأخلاقية واضطرابها...، وقد ذكرنا نبذة بسيطة من التقارير من مئات منها حول المخدرات في المملكة.

(٢) نشر في موقع د، سعود بن عيد العنزي بتاريخ ١٨-١٢-٢٠٠٨ عن الدكتورة نورة الشريم أستاذة في جامعة الملك سعود

وقوداً للأفكار العقائدية الجافة، ووسيلة لإشعال فتيل شرارتها في أي بقعة من بقاع العالم، لأن العقلية السليمة يستحيل عليها الانقياد لتلك الأفكار.

ونحن إنما تكلمنا على المجتمع السعودي، باعتبار أن رجال الدين هناك هم المتصدون لتبنيات هذا الفكر الوهابي، وعقائده التكفيرية، وللدعوة الوهابية، فمن الطبيعي أن تجرف هذه الدعوة الشباب السعودي المسكين الذي تغلب عليه (الأمية)، ولا تقتصر هذه الحالة على الشباب السعودي فحسب، فإن كثيراً من الشباب العربي وبلدان المغرب بالخصوص، والإسلامي على العموم، لديهم السلوك نفسه، بل والأكثر من ذلك أن كثيراً من شباب المغتربين في دول أوربا وأمريكا قد أغرتهم المغريات الوهابية بالأموال والامتيازات الأخرى بعد أن كان أغلبهم يتعاطى المخدرات والحشيش والشذوذ الجنسي !!، وفي حالة استفاقته أو توبته لا يجد إلا التكفير عن ذنوبه، وتوبته تقتضي الذهاب للجهاد في سوريا أو للعراق- وهو الأولى لجهاد الرافضة -!!، وسابقاً كان الجهاد إلى أفغانستان، ومنهم من يذهب وذهنه، إما فارغ أو حاقد على نفسه وعلى الناس لشعوره بالنقص أو مليء بالأفكار المنحرفة من كتب التطرف وعقائد ابن تيمية التجسيمية والتكفيرية.

فالوهابية هم من رسخوا هذه العقائد ونشروها بين أوساط المسلمين شرقاً وغرباً، بالترغيب - بضخ الأموال والهدايا والهبات والإغراءات تارة - وبالترهيب تارة أخرى- بالوعد والوعيد والذبح والتفجير والتفخيخ - فأصبح الفكر الوهابي المتطرف والحالة الاقتصادية السلبية منها والإيجابية لمجتمع الجزيرة، وطبيعة بعض العادات الاجتماعية، حالة تنذر بالوباء الكارثي لمجتمع الجزيرة وللعالم الإسلامي، والعالم أجمع، وما حالات الإنذار في شوارع مدن العالم وطرق التفتيش في مطاراتها، وصناعة أجهزة حديثة لكشف المتفجرات وأجهزة كشف هيكلية جسد الإنسان التفصيلية إلا بسبب تفشي تهديد هذا الفكر المنحرف لأمن المجتمعات الانسانية قاطبة والذي تَسَمّى باسم الإسلام، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا : وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا ؟ قَالَ: هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا

يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[١]

الخلاصة:

في نهاية بحثنا هذا نخلصُ إلى أن الأفكار والعقائد التكفيرية هي مجرد أفكار سطحية، شغلت العقول البسيطة أكثر من ألف عام، فلم تنتج لنا فكراً مبداعاً ينتفع منه المسلمون لحل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا فكراً معاصراً يواكب العصر، ولا مقبولية في الأقل لدى المجتمعات الإنسانية، وزيادة على ذلك رأينا مزيداً من الاستنزاف غير المبرر في جهد الأمة في كثير من المجالات، بسبب الصراعات الجانبية التي أصبحت شأناً يومياً، جعلت الإنسان المسلم يراوح في مكانه لا يقدم قدماً إلا ويؤخر الأخرى، فلم ولن تزيد في المسلمين إلا تخلفاً وانقساماً، والأفكار إلا انحطاطاً، والعواطف الإنسانية إلا انكساراً والأخلاق إلا ضياعاً، فبدل أن توظف الأفكار الإسلامية لخدمة الأمة وإزدهارها وتطورها لتجعل الفرد المسلم يرتقي وينافس أقرانه في المجتمعات الإنسانية الأخرى، أصبح بعكس ذلك تماماً، فالسيف مصلت على رؤوس مخالفيهم (من المسلمين) وغير المسلمين، تروق لهم إزهاق الأنفس ونزف الدماء، فالشذوذ طبائعهم والجنس عقيدتهم والمخدرات عاداتهم، فأصبح كل مسلم متهماً بسببهم، ينادى والقلوب غير آمنة لجانبهم، وغير مستقرة لأخلاقهم وتصرفاتهم، وما تركيزنا على المجتمع السعودي إلا بسبب انطلاق أغلب قيادات وأفكار المد التكفيري (الوهابي) من هناك، من تلك البقعة التي تشكو من عقدة الخسران المبين في زاوية من زوايا الزمن، وحينئذٍ حين تسلّمت زمام الأمور انقضّتْ على كل ما يحمله الدين الإسلامي من خير، وأخلاق، وسلام، ونور إلى الإنسانية، فاستبدلت تلك الصورة المشرقة التي جاء بها نبي الرحمة ﷺ إلى صورة قاتمة ظلامية لا يرى فيها إلا والدين ينزف من سيف القبح والرذيلة.

وزاد في الأمر سوءاً بانتشار الفكر التكفيري هو (العامل الاقتصادي)، فسابقاً كان

---

(١) صحيح البخاري:(١٠٣٧) ، وصحيح مسلم :(٢٠٩٠٥) وقد أشار كثير من العلماء إلى أن الحديث إشارة إلى علماء نجد.

القحط هو السبب في الغزو!! وفي الحاضر التحسن الاقتصادي هو السبب في انتشار هذا الفكر ثم الاعتداء على الشعوب، فالحالة الاقتصادية في هذه البقعة بسلبياتها وإيجابياتها، أصبحت سبباً آخرَ في تفشي الفكر التكفيري (الوهابي)، وفي الحقيقة لقد مسخت إيجابياتها الفكر الإسلامي الأصيل، بدل أن ترفع من شأنه وما يتطلع إليه المسلمون من آمل لتحقيق العدالة والرفاهية للمجتمعات الإسلامية.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين

إضاءات في عوامل تكوّن التكفير وبلورة المشروع

إضاءات في عوامل تكوّن التكفير وبلورة المشروع

باسمة حامد*

مقدمة

لا شك فيه أن نشوء الجماعات التكفيرية لم يأتِ من فراغ، فالفكر المتطرف الذي يعيث في الأرض فساداً ودماراً وقتلاً وتخريباً صناعة صهيو- أمريكية بامتياز، الهدف منها إثارة حالة طائفية بغيضة تشوه الإسلام وتشغل الشعوب العربية والإسلامية عن قضاياهم المصيرية. وفي وقت غابت فيه الرؤية الواضحة عن الظاهرة (التكفيرية) ومسبباتها وأبعادها، نحاول في هذا البحث الإضاءة عليها كمشروع مدعوم من الغرب الاستعماري والمال (النفطي) وله أبعاد وغايات وتحالفات بات من الضروري وضع استراتيجية شاملة لمواجهته فكرياً وثقافياً وعقائدياً واجتماعياً وليس عسكرياً فقط.

التكفير ليس ظاهرة طارئة!

التكفير ليس ظاهرة طارئة على مجتمعاتنا، فإشكالية التعامل مع النص الديني فهماً أو تطبيقاً إشكالية جدلية مازالت قائمة منذ بدء الدعوة الإسلامية وحتى يومنا هذا.

وتعد حركة مسيلمة الكذاب[1] أول تمرّد على الحكم الإسلامي المركزي وانتهت بخسارته ومقتله، وبعدها ظهر الخوارج في النصف الأوّل من القرن الأول الهجري، في مناسبة حرب

* باحثة وإعلامية، سوريا- دمشق.

(١) ادعى النبوة في عهد النبي ﷺ فأظهر الله كذبه ولصق به لقب الكذاب.

صفين، حيث اتهمت أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بالكفر لأجل (قبوله التحكيم الذي أجبروه هم عليه) وحاربوه بذريعة أنه (وصي فضيّع الوصيّة)[١] فضلاً عن تكفيرهم عدد آخر من الصحابة. ومنذ العقد السابع من القرن العشرين أرست الدعوة السلفية أفكارها على تكفير ما تسميهم (الشيعة أو الرافضة).

وتعد (الوهابية)[٢] من أكثر الاتجاهات (الدينية) تطرفاً، وتشويهاً للإسلام[٣]، فزعيمها نشر أفكار ابن تيمية المتشددة زاعماً أنها من (الكتاب و السنة) كتحريم التوسّل بالنبي، وتحريم السفر لزيارة قبر الرسول ص وغيره من الأنبياء والصالحين بقصد الاستغاثة بهم عند الدعاء[٤]. وأتباعه يحرّمون الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وكفّر ابن عبد الوهاب مئات الملايين من أهل السنّة وحصر الإسلام في أتباعه، وكانوا في عصره لا يتجاوز عددهم نحو مئة ألف. وأهل نجد الحجاز الذي هو وطنه لم يأخذ أكثرهم بعقيدته في حياته، وإنما كان الناس يخافون منه لمّا علموا من سيرته لأنه كان يسفك دماء من لم يتبعه[٥].

ومعلوم أن الكثير من مشايخ المذاهب الأربعة استنكروا الفكر الوهابي، ومنهم مفتي الحنابلة بمكة المكرمة الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد النجدي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ، والشيخ ابن عابدين الحنفي المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ، والشيخ أحمد الصاوي المالكي المتوفى سنة ١٢٤١ هـ[٦]، ومفتي الشافعية بمكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ الذي رد على أفكاره بفصل عنوانه (فتنة الوهابية) قال فيه : «كان كثير من مشايخ ابن عبد

---

(١) www.haydarya.com/maktaba_moktasah/13/book_09/01.htm

(٢) تُنسب لمحمد بن عبد الوهاب النجدي كان ابتداء ظهور أمره في الشرق سنة ١١٤٣ هـ واشتهر أمره بعد ١١٥٠ هـ بنجد وقراها، توفي سنة ١٢٠٦ هـ.

(٣) ورود في بعض المصادر أن شقيقه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب سأله يوماً: كم أركان الإسلام؟ فقال خمسة، فقال له: أنت جعلتها ستة، السادس: من لم يتبعك فليس بمسلم هذا عندك ركن سادس للإسلام. ولما طال النزاع بينهما خاف أخوه أن يأمر بقتله فارتحل إلى المدينة المنورة وألف رسالة في الرد عليه وأرسلها له فلم ينته.

(٤) www.alsunna.org/Dhhwar-aalHrkah-aalwahaabyah-waaanHraafhaa.html

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

الوهاب بالمدينة يقولون: سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه، فكان الأمر كذلك. وزعم محمّد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه إخلاص التوحيد و التبرؤ من الشرك، وأن الناس كانوا على الشرك منذ ست مئة سنة، وأنه جدّد للناس دينهم، وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد»[١]، ثم قال: «إن رجلاً صالحاً كان أعمى وكان مؤذناً وصلى على النبي ﷺ بعد الأذان بعد أن كان المنع منهم، فأتوا به إلى محمد بن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل. ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والأوراق وفي هذا القدر كفاية»[٢].

ومع مطلع القرن الواحد والعشرين، بدأت الجماعات التكفيرية وفي مقدمتها (القاعدة) تتصدر المشهد الدولي بقوة، وثمة دلائل كثيرة تظهر وجود تحالف سري بينها وبين واشنطن وحلفائها الغربيين والعرب، حيث استخدمت الإدارات الأمريكية المتعاقبة تلك الجماعات لتحقيق مآربها السياسية ثم عادت وتخلت عنها حين خرجت عن السيطرة كما تصرفت سابقاً مع (القاعدة) وتتصرف اليوم مع (داعش).

فقد تأسس تنظيم (القاعدة) بدعم أمريكي للسعودي أسامة بن محمد بن عوض بن لادن بهدف استقطاب (جهاديين) يقاتلون الغزو السوفييتي لأفغانستان سنة ١٩٧٩م. وخلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي عمل التنظيم على تصدير ثقافة الإرهاب إلى العالم مستنداً على الكراهية التي تكنها معظم الشعوب لأمريكا وساعده على نشر أفكاره وجود عشرات الفضائيات (الدينية المتطرفة، إلا أن عملياته ضد المصالح الأمريكية كانت دائماً تتسبب بتداعيات كارثية على المنطقة[٣].

---

(١) www.alsunna.org/Dhhwar-aalHrkah-aalwahaabyah-waaanHraafhaa.html

(٢) المصدر السابق.

(٣)بعد تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي، كينيا، وفي دار السلام، تنزانيا يوم ٧ آب ١٩٩٨ قام الرئيس آنذاك (بيل كلينتون) ، بإعطاء أوامره بقصف عدة أهداف في السودان وأفغانستان بصواريخ كروز في ٢٠ أغسطس من العام نفسه، وقد دمرت هذه الصواريخ في السودان مصنع الشفاء للأدوية الذي كان يغطي احتياجات ٥٠٪ من الأدوية في السودان، أما تفجير برجي التجارة العالمي في نيويورك بحادثة ١١ سبتمبر فكانت تداعياتها أشد وبالاً على العالم الإسلامي، لأنها كانت ذريعة الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش لاحتلال العراق و أفغانستان تحت شعار (مكافحة الإرهاب).

ولم يختلف نهج القاعدة بعد مقتل ابن لادن على يد القوات الأمريكية بتاريخ ٢ مايو ٢٠١١ في أبوت آباد الباكستانية. لأن الزعيم الجديد أيمن الظواهري واصل نهجه بزعزعة أمن بلدان المنطقة بتأجيجه الفتن واستجلاب التدخل الخارجي وتحريض الطوائف على بعضها وإرسال مقاتليه إلى ساحات الصراع لإسقاط الأنظمة بالقوة . فمثلاً في مصر دعا أنصاره إلى مواجهة الجيش وحثهم على الجهاد لإقامة (الخلافة الإسلامية) وقال : «إن الصراع في مصر ليس صراعاً سياسياً ومغانم حول السلطات، لكنه صراع ضد الإسلام، والشريعة وضد إقرار الله تعالى بتحكيم شريعته في الأرض.. إذا كان العلمانيون والليبراليون من أعداء الإسلام، رغم خلافاتهم وطمعهم في السلطة نجدهم اجتمعوا من أجل القضاء عليكم والتخلص من الحركات الإسلامية، فلماذا لا تتحدوا مثلهم ولا تتنازلوا تحت أي ضغوط عن عقيدتكم »[1]. وفي سورية وجه دعوات عديدة (للجهاد) متذرعاً بأنه: «من حق أهلنا في سورية ومن حق الأمة كلها أن تستخدم ما تراه من وسائل لاستئصال النظام»[2]، وناشد الفصائل المسلحة للتوحد فيما بينها ضد النظام : «لمواجهة عدوكم العلماني الطائفي الذي تدعمه القوى الرافضية الصفوية وروسيا والصين وتتواطأ معه القوى الصليبي»[3].

ويلاحظ أن موجة (الربيع العربي) أفرزت كثيراً من الجماعات الإرهابية، ومعظمها خرج من رحم (القاعدة)، ويمارس إرهاباً بوجه جميع المكونات الدينية والإثنية (خصوصاً في سورية والعراق ومصر) ومنها جماعة (أنصار بيت المقدس)[4] وجماعة (التوحيد و الجهاد) وتنظيم القاعدة في بلاد المغرب العربي و حركة (بوكو حرام) في نيجيريا، و(جبهة النصرة) التي تأسست على خلفية الصراع في سورية في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، وتبنت كثيراً من

---

(١) www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2012/10/121013_zawahri_prophet_film

(٢) www.dp-news.com/pages/detail....ticleid=111435

(٣) http://www.i24news.tv/ar/ أخبار/middle-east/140123

(٤) هي أكبر جماعة إسلامية متشددة في مصر تتخذ من شمال شبه جزيرة سيناء معقلاً لها، تشكلت عام ٢٠١١ أعقاب الإطاحة بالرئيس المخلوع حسني مبارك، أكدت بعد عزل مرسي أنها تنتقم (لحملة القمع الدامي) التي شنتها السلطات على أنصاره. أعلنت مبايعتها لأبي بكر البغدادي ثم أطلقت على نفسها اسم ولاية سيناء المصرية وتستهدف الحركة قوات الجيش والشرطة بهجمات دموية من بينها الهجوم على تفتيش عسكرية شمالي سيناء في ٢٤ أكتوبر ٢٠١٤ التي راح ضحيتها أكثر من ثلاثين جندياً مصرياً.

الهجمات التي استهدفت مراكز عسكرية وأمنية وتقاتل النظام السوري إلى جانب جماعات تكفيرية أخرى (كالجبهة الإسلامية)، و(جيش المجاهدين)، و(جيش الإسلام)، و(جبهة ثوار سورية)، وتنظيم (دولة الإسلام في العراق و الشام).

لماذا استفحل خطرها؟!

ثمة عوامل كثيرة ساعدت على انتشار الفكر التكفيري وتنامي نفوذ جماعاته المسلحة ومن أهمها:

أ- التضليل الإعلامي المهول الذي تمارسه وسائل إعلام عربية وغربية بلا مهنية ولا موضوعية ولا ضمير، وأدى إلى خلق حالة صراع شاملة ساعدت بؤر التخلف والجهل على انتشارها وإيجاد بيئة حاضنة لها.

ب- التحالف الأمريكي مع دول النفط العربي .

ت- تسييس الدين، وضعف الجانب العلمي والفقهي والجهل بالقرآن والسنّة وعدم التوفيق بين النصوص الشريعة لدى كثير ممن يدعون أنهم علماء.

ث- إتاحة المنابر لكل من هب و دب لإطلاق دعاوى الجهاد في غير محله بزعم (نصرة المسلمين) واستبدال ثقافة الحوار ومبدأ الصلح خير بخطابات التحريض والانقسام والتخوين والعنف على قاعدة (لا بأس من أن يموت ثلث الشعب مقابل أن يهنأ الثلثين بالحياة) [1].

ج- فشل المناهج التربوية والتعليمية في ترسيخ فكرة المواطنة، والانتماء للوطن الأمر الذي أنتج تأثراً شعبياً على مستويات معينة بأفكار الحركات المتشددة والتنظيمات (الإسلاموية) السرية المشبوهة التي تتستر برداء الدين لتنفيذ أجندات خارجية .

ح- تهميش دور المثقفين وعلماء الدين من أصحاب الفكر التنويري المعتدل.

---

(١) من فتاوى عضو هيئة كبار العلماء السعودية الشيخ صالح اللحيدان عن الوضع السوري!!

خ- الاستبداد السياسي والاضطهاد والقهر الاجتماعي وانشغال السياسيين والحزبيين بمصالح ضيقة بهدف الوصول إلى السلطة دون معالجة الآفات الاجتماعية الناجمة عن المشاكل الاقتصادية والتهميش والفساد والفقر والظلم والبطالة.

ما أهدافها؟!

مما لا شك فيه أن المشروعين التكفيري والصهيوني هما أساسا اللعبة القذرة التي تديرها الولايات المتحدة ضمن خطة (الفوضى الخلاقة)، وخطر الجماعات التكفيرية يكمن في أنها تتستر برداء الإسلام بينما تُستخدم كأداة لتغيير هوية المنطقة في إطار مشروع (الشرق الأوسط الجديد) الذي بشرت به وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندليزا رايس خلال العدوان (الإسرائيلي) على لبنان في تموز ٢٠٠٦.

والحال، إنها تلك الجماعات تؤدي دوراً هداماً يضعف الأمة العربية والإسلامية، ويقوي شوكة أعدائها وفي مقدمتهم (إسرائيل)؛ لأنها تسعى إلى تحقيق أهداف متعددة في وقت واحد ومنها:

١-تشويه جوهر الإسلام وصورته الإنسانية، وتأصيل العداء الإيديولوجي بين شعوب المنطقة لتحويل الصراع العربي والإسلامي مع الكيان الصهيوني إلى صراع سني شيعي.

٢-تغيير المعادلات القائمة وإسقاط أنظمة لا تساير الأجندة الأمريكية واستبدالها بأخرى ترضخ لواشنطن وتنفذ سياساتها.

٣- استهداف كل دولة على حدةٍ؛ لاستنزاف طاقاتها وثرواتها، وضرب مقومات اقتصادها والبنى التحتية وتخريب الآثار وتهجير الأقليات منها، وتفريغها من الكفاءات العلمية وإجبارها على التوجه إلى الدول الغربية.

٤-تمزيق النسيج الوطني والاجتماعي والإثني في البلاد العربية للقضاء على سمة التعايش المشترك والتنوع الطائفي في مجتمعاتها بنحوٍ يبرر التدخل الخارجي بحجة أن الغرب أتى (لإنقاذ الأقليات الدينية) .

٥-الضغط على إيران وضرب محور المقاومة والقضاء على الجيوش العربية وإراحة الكيان الصهيوني من عبء الصراع مع العرب والمسلمين، ومن ثمّ تمكينها إعلان دولتها اليهودية على أرض فلسطين المحتلة.

آفة العصر

لا شك أن الجماعات التكفيرية فاجأت العالم بقدراتها القتالية والعسكرية والمالية، ومنذ اجتياح (داعش) لأربع مدن عراقية في ١٠ حزيران ٢٠١٤ وإعدامه لصحفيين غربيين تزايدت المطالبات الدولية باجتثاث تلك الآفة من جذورها وتجفيف منابعها ومحاسبة الدولة الراعية لها.

فالهجمات الإرهابية التي وقعت في عدد من الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة وكندا أثارت مخاوف من حقيقة تغلغل المتواطئين الغربيين مع التنظيمات الإرهابية داخل المجتمعات الأجنبية، ودلت أن الخطر التكفيري لا يستثني حتى الدول التي صنعتهم، ولا سيما أن تقارير مجلس الأمن الدولي كشفت أن الإرهابيين الأجانب يتدفقون إلى سورية والعراق على نطاق غير مسبوق مع سفر نحو ١٥ ألف مقاتل أجنبي للانضمام إلى تنظيم (داعش) الإرهابي وتنظيمات متطرفة أخرى.

وجاء في التقرير المنشور بصحيفة (الغارديان) البريطانية: أن تراجع نفوذ القاعدة نتج عنه ما يشبه تفجراً لحماس الجهاديين للدخول في تنظيمات بديلة أكثر تطرفاً وقوة ولاسيما تنظيم الدولة الإسلامية.. وأن أعداد الإرهابيين منذ عام ٢٠١٠ تزايدت بأضعاف المرات عما كان عليه احتشاد المقاتلين الإرهابيين بين عامي١٩٩٠ و٢٠١٠ وهي تتنامى باطراد، وذكر أن «١٥ ألف شخص سافروا إلى سورية والعراق للقتال في صفوف هذا التنظيم وتنظيمات متطرفة أخرى وقد جاؤوا من أكثر من ثمانين دولة بينها مجموعة من الدول التي لم تواجه في السابق تحديات مرتبطة بتنظيم القاعدة. وأكد أن المزيد من الدول «تواجه الآن وأكثر من أي

وقت مضى التحدي الذي يمثله مقاتلون محترفون ومتمرسون في القتال لدى عودتهم من سورية والعراق»[١].

ويشكل تقرير لجنة الأمم المتحدة اعترافاً دولياً واضحاً بالظاهرة الخطيرة التي تمثلها الجماعات التكفيرية على العالم كله ولا سيما أن آلاف المواطنين الغربيين تشربوا من أفكارها وإيديولوجيتها المتطرفة ولا سيما أن نسبة المتعاطفين معها في البلدان المتقدمة كفرنسا وبريطانية مثلاً نسبة كبيرة[٢] (لا يكاد يمر يوم تقريباً دون أن تكشف وسائل الإعلام الأجنبية عن مقتل أحد الإرهابيين البريطانيين الذين يقاتلون في صفوف تنظيم داعش أو انضمام آخرين إليه بعد تسللهم عبر الأراضي التركية) ما يعني اعترافاً أممياً صريحاً بأن الإرهاب وجماعاته التكفيرية آفة عصرنا الراهن، وهي آفة خطيرة عابرة للقارات والحدود ولا تُنْسَب لدين ولا تختص بقوم، وهي ناتجة عن التطرف الديني الذي لا يكاد يخلو منه أي مجتمع من المجتمعات المعاصرة . وكل التقارير الإعلامية والأمنية تؤكد أن الجماعات التكفيرية تحولت إلى آفة عالمية متعددة الجنسيات وعابرة للحدود والقارات، وهو ما أدى إلى حدوث تغييرات وتطورات نلخصها فيما يأتي:

على الصعيد الدولي:

قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتشكيل تحالف دولي من أربعين دولة لمحاربة (داعش)، وفي أوربا، طالب وزير الدفاع البريطاني (مايكل فالون) حكومة بلاده بالتعاون مع الدول الغربية لمواجهة التطرف ومنع المتطرفين من مغادرة بريطانيا للقتال في سورية أو العراق خوفاً من ارتداد إرهابهم[٣] إلى أوروبا. كما اتخذ رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون

---

(١) www.sana.sy

(٢) كشف موقع التلفزيون النمساوي في تقرير له حول الإرهاب في أوروبا والنمسا أن (عدد المناصرين والمتعاطفين مع تنظيم داعش وصل إلى المئات ولاسيما في العاصمة فيينا حيث من المتوقع وجود أكثر من ٢٥٠ متعاطفاً أو مناصراً عبر صفحات التواصل الاجتماعي ومواقع الانترنت والمنتديات وغيرها إلى جانب وجودهم في مدن أخرى).

(٣) في كلمة ألقاها في لندن يوم ١٣ فبراير ٢٠١٣ حول (مكافحة الإرهاب في الخارج) قال وزير الخارجية البريطاني السابق وليام هيغ: (الجهاديين قد لا يشكلون أي خطر علينا عندما يذهبون إلى سورية ولكن إذا ظلوا على قيد الحياة يمكن أن يعودوا مزودين بإيديولوجية أكثر تصلباً وبخبرة في الأسلحة والمتفجرات).

إجراءات متعددة وخاصة لإبعاد الأشخاص المشتبه في اشتراكهم في القتال مع الجماعات المتشددة خارج البلاد. وفي مقابلة مع قناتي (فرانس 24) و(TV5 موند) وإذاعة فرنسا الدولية يوم ١١ أكتوبر ٢٠١٢ اعترف الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند بوجود إرهابيين فرنسيين في سورية والصومال ومالي(١) وحذّر من خطر عودتهم إلى بلادهم مع نوايا إرهابية.

وكانت صحيفة (فايننشال تايمز) البريطانية قالت في وقت سابق أن الحكومة الفرنسية قدرت أن نحو ٣٦٠ إرهابياً فرنسياً متورطون في (الجهاد بالخارج قتل منهم (٣٦) فيما عاد نحو ٢٠٠ آخرين إلى البلاد(٢) وصدرت أحكام بالسجن بحق نحو خمسين منهم . ووجه نواب بلجيكيون انتقادات شديدة لسياسات الحكومات في بروكسل، وبقية العواصم الغربية على خلفية تعاطيها مع الأزمة في سورية.

واتهم النواب أجهزة استخبارات الدول الأوروبية بتجنيد الشباب، وإرسالهم للقتال في سورية إلى جانب المجموعات المسلحة المتطرفة. وبعضهم كشف عن تمويل الجماعات المسلحة بتسعة ملايين يورو تحت عنوان (الإغاثة الإنسانية)، معتبرين بأن ما يحدث في الداخل السوري مؤامرة على بلد بغية تدميره وليس حرباً أهلية.

وعلى الصعيد العربي والإقليمي:

على خلفية المخاوف من المد التكفيري أدرجت الإمارات لائحة تضم ٨٣ منظمة وحركة وأسماء من ضمنهم (يوسف القرضاوي)، رئيس ما يسمى (الاتحاد العام لعلماء المسلمين) . وفي تونس أعلن محامون تونسيون عن نياتهم رفع دعوى قضائية ضد الشيخ المذكور نظراً لما آلت إليه أوضاع الشباب التونسي بعد إصداره لفتاوى الجهاد ضد (النظام السوري)(٣) .

وفي سورية أصدرت وزارة الأوقاف سلسة (فقه الأزمة)؛ لتصحيح المفاهيم

---

(١) www.alalam.ir/news/1341284

(٢) sana.sy

(٣) www.alalam.ir/news/1487369

والمصطلحات الإسلامية التي شوهها الفكر التكفيري، وشكّل علماء بلاد الشام اتحاداً يضمّ علماء المسلمين في سورية ولبنان وفلسطين والأردن للردّ على الفتاوى الضالة والحدّ من أضرارها.. وفي مصر أُطلق مرصد للرد على الفكر المتشدد، وما جاء به من مغالطات وافتراءات بأسلوب منهجي وعلمي، ويتابع المرصد الذي يعمل به٣٠ باحثاً من الإعلاميين والسياسيين والشرعيين من ذوى الخبرة في عمليات الرصد والمتابعة، بصفة يومية وعلى مدار ٢٤ ساعة مقولات وفتاوى التكفير في جميع وسائط التواصل المقروءة والمسموعة والمرئية وعلى شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي»[١]. وفي السياق ذاته، أعلنت مؤسسة الأزهر عزمها إطلاق قناة فضائية لمواجهة. (الفكر المتطرف وفوضى الفضائيات).

وفي إيران نُظّم مؤتمر دولي في مدينة قم المقدسة في نوفمبر ٢٠١٤ لمواجهة خطر التيارات التكفيرية بمشاركة ١٠٠٠ عالم وباحث من ٨٦ دولة، وكان قائد الثورة الإسلامية السيد علي الخامنئي قد دعا مراراً للعمل بوعي وتضامن لتجريد العدو من أداوته، لأن القضية الفلسطينية هي قضية المسلمين الأولى، والتكفير في الظروف الراهنة إحدى أدوات أعداء الإسلام لإثارة التفرقة في صفوف المسلمين وإلهاء بعضهم ببعض خدمة مصالح الكيان الصهيوني»[٢]، وثمة دعوات كثيرة لمناهضة الجماعات التكفيرية بسبب استفحال خطرها السياسي والاجتماعي والثقافي والعقائدي على المجتمعات العالمية.

المشروع التكفيري وتحالفاته

دأب الغرب الاستعماري على نشر سياسة (فرق تسد لزعزعة استقرار الشرق الأوسط)، وفي الوقت الراهن تمثل جماعاته التكفيرية الأداة المثالية لتطبيق تلك السياسية لخلق حالة صراع طائفية ومذهبية تضمن بقاء (إسرائيل من جهة، وتنعش صفقات السلاح والغاز والنفط من جهة أخرى).

---

(١) www.alalam.ir/news/1487369

(٢) http://nahrainnet.net/east/iran

وفي وثائق (إدوارد سنودن) المسربة ما يثبت هذا التحالف، حيث تؤكد تلك الوثائق أن معهد الاستخبارات والمهمات الخاصة وبالتعاون مع الاستخبارات البريطانية ام آي 6 والموساد ووكالة الأمن القومي الأمريكي مهدوا لظهور تنظيم داعش الإرهابي لاستقطاب المتطرفين من جميع أنحاء العالم في مكان واحد في عملية يرمز لها بـ (عش الدبابير).. وأظهرت الوثائق أن العملية المذكورة هي خطة بريطانية لحماية (إسرائيل) تقضي بإنشاء دين شعاراته إسلامية ومكون من مجموعة أحكام متطرفة ترفض أي فكر آخر أو منافس له وسلاحه موجه نحو الدول الإسلامية الرافضة لوجوده. كما كشفت التسريبات أن المدعو (أبو بكر البغدادي) كان قد خضع لدورة مكثفة استمرت لمدة عام كامل وقام بتدريبات عسكرية على أيدي عناصر في الموساد بالإضافة إلى تلقيه دورات في فن الخطابة ودروساً في علم اللاهوت"[١].

وليس خافياً على أحد أن الجماعات التكفيرية (كجبهة النصرة) وغيرها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالنظام القطري، ونذكر بأن الوساطة القطرية لعبت دوراً بارزاً في إطلاق مخطوفي مدينة أعزاز اللبنانيين قرب حلب، وراهبات معلولا وجنود (الأندوف) في الجولان المحتل.

وباعتبارها أول المستفيدين من انشغال سورية ومصر والعراق (الجيوش العربية المشبعة عقائدياً بعقيدة القتال ضدها) بمعالجة الأزمات الداخلية التي أنتجها المشروع التكفيري، لم تكن إسرائيل خارج دائرة الجهات الداعمة للمجموعات الإرهابية على اختلاف مسمياتها، ولا سيما أنها تتخوف من قيام أنظمة ديمقراطية في المنطقة تستند إلى دعم شعبي يفرض تغيير السياسات الاستسلامية الرسمية اتجاهها ويدعم حقوق الفلسطينيين بتحرير أراضيهم المحتلة ويضمن حقوقهم بالعودة، ولذلك كان حضورها ملحوظاً في المشهد السوري منذ اندلاع الأزمة، فهي تساعد الإرهابيين علناً بأشكال متعددة من الدعم العسكري

---

(١) سنودن - الاستخبارات - الأمريكية: http://sana.sy/

واللوجستي وتقديم الخدمات العلاجية لهم[1]لأنهم يشكلون خطراً على حركات المقاومة لا عليها[2].

ويشكل ما يسمى بـ(الربيع العربي) مادة مناسبة لإثبات حقيقة التحالف (التكفيري - الصهيوني)، فمنذ أواخر العام ٢٠١٠ بدأ مشايخ التكفيريين يستغلون المنابر الإعلامية لنشر الفتاوى المشبوهة ودعوات (الجهاد ضد الأنظمة الديكتاتورية) ما ساهم في تراجع الاهتمام العربي والإسلامي بفلسطين كقضية مركزية وتكريس الفتنة وسفك دماء آلاف الأبرياء في مختلف البلاد العربية. ولتنشيط ذاكرة القارئ نذكر بأن (القرضاوي) طالب بالتدخل الخارجي وفرض حظر جوي في ليبيا وسورية وناشد المسلمين في ماليزيا وأندونيسيا والسنغال وأستراليا وكل البلدان العمل على قتال النظام السوري ودعم المعارضة السورية بالسلاح!!

وقد أدان اتحاد علماء بلاد الشام تلك الفتاوى واعتبرها «تكفيرية وتحريضية على سفك الدماء في سورية.. وخروج عن القواعد الشرعية والنصوص المأثورة وأحاديث وسنة النبي محمد ﷺ»[3]. وأكد أن التكفير الجماعي الذي يوجه إلى فئة من أبناء الأمة يخالف قواعد الشريعة ونصوص السّنة في حين يكون التكفير الشخصي لفرد معين على إنكار لضرورة من ضروريات الدين وبقرار من حاكم شرعي وبعد محاكمة يستمع فيها لدفاعه. فلا تكفير من غير دليل. وإنما يكفر الشخص بما نطق به ولو احتمل الأمر الذي يعد مكفرًا أكثر من وجه

---

(١)بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠١٣ اعتبرت قيادة المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي(معالجة هؤلاء) بداية للتعاون المستقبلي مع سورية بعد سقوط النظام، تفاصيل الخبر على الرابط التالي: www.alalam.ir/news/1459306

(٢) من يوم الأربعاء ١٠ إبريل ٢٠١٣ صرح رئيس الطاقم الأمني السياسي في وزارة الحرب (الإسرائيلية) عاموس جلعاد لصحيفة يديعوت أحرونوت أن كيانه (يفضل سيطرة تنظيم القاعدة في سورية على بقاء نظام الأسد ومحور الشر) أي إيران وسورية وحزب الله، لمراجعة الخبر يرجى الاطلاع على الرابط التالي:
www.alalam.ir/news/1463087

(٣) www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=04062013&id=a3cb7863-1556-48ee-b291-e96a56630418

فإن الحكم بالتكفير يعد جناية خطيرة في شرع الله تعالى. وأشار الاتحاد في بيانه إلى أن الأمة الإسلامية بأشد الحاجة إلى من يحقن دماء أبنائها، ويبحث لها عن مخرج من الفتن التي أدخلت الأمة في نفق مظلم لا ندري أين نهايته. داعيًا أبناء الأمة إلى البحث عن أسباب وحدتهم واجتماع شملهم وعوامل الوفاق والوحدة بينهم وعن سبل إخماد نار الفتنة وحقن الدماء، وتوجيه الأسلحة ضد من ينتهكون حرمة المسجد الأقصى ويدنسون حرماته.

كما حرّم (القرضاوي) على الشعب المصري الخروج عن طاعة الرئيس المعزول: «لا يجوز لأحد أن يرفع صوته بالمناداة بإخراج محمد مرسي من نظام الحكم في مصر، لأنه رئيس منتخب انتخاباً شرعياً صحيحاً، وهو ولي أمرنا وتجب طاعته في غير معصية.. والخروج عن طاعته حرام»[1] مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[2]، وطالت خطاباته دولاً أخرى: «إيران من النصيرية ليس لها من الإسلام شيئاً، وهم مشركون بالله»[3]، وكان لحزب الله اللبناني نصيب منها إذ وصفه بحزب «الطاغوت والشيطان»[4] معلناً مشروعية الجهاد في سورية ضده وضد الدولة السورية، كما يهاجم الطائفة العلوية ويصفها (بالنصيرية) وبأنها: «أكفر من اليهود والنصارى»[5]!!

وفي الواقع، لقد نجح الغرب الاستعماري - تحت غطاء ما يُسمى (معارضة معتدلة وثوار وبالتوازي مع عملية تضليل إعلامية مهولة عنوانها (الربيع العربي)- في جذب آلاف التكفيريين[6] إلى المنطقة لخلق الفوضى والقتل العبثي فيها بكل ما تحمله من حقد ووحشية وفكر منحرف، مستغلاً تخبط الأنظمة العربية - بما فيها تلك التي تملك مشروع مقاومة (لإسرائيل) - ومستفيداً من غياب مشروع عربي قومي نهضوي متكامل، حيث تمكنت

---

(١)من خطبة الجمعة ٢١ يونيو ٢٠١٣ من مقابلة معه في قناة العربية: ٩ يونيو ٢٠١٣.

(٢) النساء: ٤.

(٣)من الكلمة التي ألقاها في مؤتمر (موقف علماء الأمة من القضية السورية) الذي انعقد بالقاهرة في ١٣ يونيو ٢٠١٣

(٤)من مقابلة معه في قناة العربية: ٩ يونيو ٢٠١٣.

(٥)http://tvshia.com/arabic/index.php/news/617

(٦)تؤكد تقارير الأمم المتحدة أن الحكومة السورية تواجه إرهابيين من ٨٣ جنسية في العالم.

(القاعدة) وملحقاتها من الاستيلاء على ليبيا وتهديد مصر ودول المغرب العربي، والسيطرة على بعض المناطق اليمنية، بينما تنتشر (جبهة النصرة) في الجنوب السوري وتسيطر مناطق عدة على الحدود مع الجولان المحتل. بدوره ظهر (داعش) على الخارطة باحتلاله مساحات عراقية وسورية شاسعة توازي مساحة بريطانية معلناً (دولة الخلافة)، وقد أرادت واشنطن حصر أضراره بين سورية والعراق وإيصاله إلى الحدود الإيرانية للضغط على طهران في ملفها النووي، وسعت لإبعاده عن كردستان لأسباب سياسية تتعلق بطبيعة التحالف بينها وبين رئيس الإقليم مسعود البرزاني فشكلت تحالفاً دولياً خارج مجلس الأمن لمحاربته لكن الضربات الجوية لم تحد من قدراته بسبب غياب رؤية مشتركة لدول التحالف. ولمزيد من التفاصيل المتعلقة بالمشروع التكفيري وتحالفاته نورد شهادة رئيس الحكومة التشيكية الأسبق بيرجي بارويبك رئيس حزب يسار القرن ٢١ حول الحكومة التركية وإسرائيل: (تعملان على تصعيد الإرهاب في سورية والمنطقة عن طريق توفير الدعم المادي واللوجستي للتنظيمات الارهابية فيها، وحكومة (العدالة والتنمية) لا تزال تحت تأثير (الحلم العثماني)[1].

وللأهمية أيضاً، نشير إلى تقرير نُشر بتاريخ ١٤/ ٨/ ٢٠١٤ قدمته إدارة مكافحة الإرهاب في جهاز الأمن الروسي(بي سي بي)[2]عن تنظيم داعش الإرهابي وبعض طرق حصوله على الدعم المالي والعسكري واللوجستي، ويقدم التقرير تفاصيل هامة حول دور الغرب والسعودية وتركيا بهذا الخصوص، مستنداً إلى معلومات موثقة ووثائق وصور جوية وتسجيلات صوتية وأفلام مسجلة وكذلك تحليل التحركات الميدانية بواسطة (جي بي أس). فيذكر أن :(عدداً من المشايخ الوهابية المتطرفة في المملكة اقترحوا مؤخراً على الملك السعودي أن يتم تخصيص جزء من عائدات حج هذا الموسم لدعم (داعش) ولعوائل قتلاهم رغبة في المشاركة في ثواب (جهادهم)، حتى تحل الرحمة والبركة في أرض المملكة، لافتاً إلى:

---

(١) www.sana.sy

(٢) أورد التقرير مجموعة من الوثائق السرية التي تثبت ذلك وسلمت للحكومة العراقية.

(المساعدات المالية الغربية التي تأتي من الولايات المتحدة والدول الغربية كمساعدات لحكومة مسعود بارزاني رئيس إقليم كردستان والذي يقوم بدوره بتقديمها (لداعش) تحت عنوان تكلفة النفط الذي يبيعه التنظيم، ومنوهاً بأن (الحكومة الأردنية تتولى مسؤولية تدريب عناصر (داعش) المقاتلة والاستخباراتية وتزويد التنظيم بمعلومات عن تسليح الجيش العراقي وبناه التحتية ونقاط القوة والضعف فيه. ويورد التقرير معلومات هامة عن الدور التركي: (تم توفير بعض المعدات والأجهزة المتطورة بتنسيق مع تركيا كذلك قامت حكومة اردوغان بالتنسيق مع الدول الغربية وبالاستفادة من الأموال الغربية بشراء ٢٠٠ سيارة بك آب تويوتا يابانية وتم تجهيزها بمعدات حربية وأجهزة اتصالات، ثم تسليمها لجماعة داعش). وتقوم تركيا بتوفير قطع الغيار والذخيرة للمعدات العسكرية الثقيلة والمتوسطة التي غنمها (داعش) من الجيشين العراقي والسوري وبحسب التقرير «قامت تركيا مؤخراً بإعطاء تراخيص لجمع التبرعات النقدية وغير النقدية لصالح (داعش) وذلك لخلق شعبية له بين المواطنين الأتراك»[1] .

لكن صمود محور المقاومة بوجه المشروع التكفيري وتقدمه الميداني عليه في سورية والعراق أفشل أهداف الغرب ومخططاته وجعل الحراك الجاري بالمنطقة تسونامي عربي يضع إسرائيل في بيئة غير مستقرة على حد تعبير المستشرق الصهيوني (يوسي فيرتر)، وتتطلب: «قدراً كبيراً من التأهب التكتيكي والاستراتيجي على صعد مختلفة وفق تأكيدات الباحث الصهيوني (إيتمار لافين)»[2].

---

(١) www.manar.com/page-19329-ar.html

(٢) www.mepanorama.com/256

بوصلة التكفيريين لا تتجه إلى فلسطين!!

مع سعي الجماعات التكفيرية لتحويل الأنظار عن قضيته، لم يلمس المواطن الفلسطيني أي تفاعل جدي مع الحماسة التي أظهرتها الشعوب في تطلعاتها وتضحياتها واستعداداتها لدفع أثمان الحرية والكرامة والعزة الوطنية، ولم يشعر أن الحكومات الإسلامية مهتمة بقضيته بقدر اهتمامها بإرضاء الولايات المتحدة.

وقد انعكست التحولات الدقيقة الجارية في المنطقة منذ أواخر العام ٢٠١٠ على فلسطين، حيث تراجع الاهتمام الشعبي بقضيتها؛ لأنها ليست أولوية بالنسبة لأصحاب مشروع (الخلافة الإسلامية) لاهتمامهم فقط باستلام السلطة حتى ولو كلف الأمر سفك دماء الأبرياء وتشويه صورة الإسلام. وواقع الحال أن القضية الفلسطينية تمرّ بظروف تاريخية صعبة نظراً للأحداث الساخنة التي تعصف بالبلاد العربية (وبوجه خاص سورية والعراق ومصر). ويستغل حلفاء الكيان الصهيوني الانكفاء العربي الراهن لتصفية القضية الفلسطينية بمحاولات (التطبيع)، وفرض حل لا يحافظ على أدنى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني باسم (التسوية)، وفي الوقت الذي تقوم فيه (إسرائيل) بتعزيز قوتها وتفوقها العسكري والتكنولوجي، وبناء المزيد من المستوطنات وتهويد القدس، تحارب الجماعات التكفيرية كل عناصر القوة العربية والإسلامية (العقيدة، والنسيج الاجتماعي، والتعليم، والحضارة، والاقتصاد ..إلخ).

وما يساعدها على تحقيق أهدافها عدة عوامل أهمها:

- الانقسام الداخلي الفلسطيني والخلاف القائم بين (فتح وحماس).
- الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها (حماس) بالملف السوري، انعكس مباشرة على مسار القضية الرئيسية للعرب والمسلمين، إذ إن إضعاف دور الدولة العربية الوحيدة التي لطالما ساندت حركات المقاومة ودعمت الحقوق الفلسطينية، واستنزاف قدراتها بحرب شرسة

للعام الرابع على التوالي يصب في مصلحة الكيان الصهيوني الذي سعى جاهداً لتثبيت دعائمه على قاعدة :(استغلال التوتر السني الشيعي في المنطقة، لعقد تحالفات جديدة)[1].

● فتاوى التكفير التي تزج المجتمعات العربية في صراعات داخلية، (بعض مشايخ التكفير) أفتى بقتال (النظام السوري) بحجة أن قتاله أولى من قتال إسرائيل وأفتى بعضهم الآخر بحرمة إطلاق الصواريخ على (إسرائيل) معتبراً أن ذلك (خيانة للشعب السوري).

● إدارة الظهر لـ(إسرائيل)، فحركات الإسلام السياسي والجماعات التكفيرية يستخدمان فلسطين كورقة دعائية لكسب التأييد في الشارع العربي والإسلامي ويستثمران عدم فاعلية التيارات القومية والوطنية.

فحين تستلّم (الإخوان) السلطة في مصر أعلنوا قطع العلاقات مع سورية على حين التزموا التزاماً كاملاً بمعاهدات (كامب ديفيد)، وتبادل الرئيس المعزول (محمد مرسي) التحيات الحارة مع (شيمون بيريز)، معرباً عن رغبته في مساندة عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وفي رسالته المؤرخة بتاريخ ١/ ٣/ ٢٠١٢ يحرض المرشد العام للجماعة (محمد بديع) «الشعب السوري على مواصلة انتفاضته للمطالبة بحقوقه المشروعة في الحرية والكرامة والعدالة والمساواة؛ لأن النظام السوري الجائر ما زال سادرًا في غيِّه، سالكًا سبيل الشيطان وجنوده، حتى بلغ شرُّه أحطّ الدركات، ولم يعد أبداً أميناً على شعبه ولا حامياً لوطنه، بل صار مثالاً للظلم والاستبداد والطغيان والعنف والإرهاب في أبشع صوره .. أعمى عينَه ظلمُه، وصمَّ أذنَه بطشُه .. وظنَّ أن التوغل في القتل والظلم والإفساد في الأرض سيئد الثورة السورية المباركة يوماً، وسيجعل الشعب السوري يركع ويتراجع، ولكن هيهات. لقد نسي أن الدماء وقود الثورات، وأنه كلما أوغل في الدماء كلما اقتربت نهايته التي

---

(١) الرئيس السابق للموساد (مائير داغان).

ستكون عبرةً مثل من سبقوه، وما طغاة مصر وتونس وليبيا واليمن ومن قبلهم فرعون وهامان وهيلا سلاسي وغيرهم من الطغاة المتجبرين منه ببعيد... إلى النظام السوري الغاشم...لا تنسَ أنك أجير عند شعبك، ولتحقق مطالبه المشروعة، ولتنزل على رغبته بضرورة تركك السلطة لمن يرتضيه ويختاره بإرادته الحرة، ولتكفَّ عن سفك الدماء ودكّ المدن بالأسلحة الثقيلة... لقد تفوَّقْت في إجرامك على محاكم التفتيش في أوربا في العصور الوسطى، وجرائم الطغاة والجبابرة في تاريخهم الأسود، في القتل الجماعي، والتعذيب والاعتقال الوحشي، والتجرد من الشفقة والرحمة حتى مع النساء والأطفال والمسنين، والاستكبار والاستقواء على الضعفاء العزل، من الأطفال والشيوخ والنساء، والتشفِّي بإهانتهم وإذلالهم وقهرهم وسحق كرامتهم بقلوب قاسية متحجرة»[١]. كما أن زعيم حزب النهضة التونسي راشد الغنوشي أرسل إشارات مطمئنة للكيان الصهيوني بإعلانه دعم الثورة السورية وإغلاق السفارة السورية في تونس، وخلال زيارته للولايات المتحدة أكد[٢]: «أن الدستور الجديد لن يتضمن مواد تدين إسرائيل»[٣].

وما سبق يثبت أن تحرير فلسطين ليس هدفاً لا للتكفيريين ولا الإسلاميين، وما يؤكد هذا التوجه العلاقات الإسرائيلية مع الجماعات التكفيرية في سورية ومساندة الكيان الصهيوني لها كما حصل حين قصفت الطائرات الإسرائيلية مواقع عسكرية في منطقة (جمرايا) قرب دمشق يوم ٥/ ٥/ ٢٠١٣ لدعم الإرهابيين بعد الضربات الموجعة التي تلقوها على يد الجيش العربي السوري.

لذلك صار واضحاً أن تلك الجماعات تدير ظهرها لفلسطين؛ لأن إسقاط الأنظمة هدفها الرئيسي، وللتأكيد نشير إلى رسالة داعش للسلطة الفلسطينية : «جئناكم بالذبح والقتل فلن

---

(١) www.mepanorama.com/256

(٢) http://anbamoscow.com/aworld/20111207/372908453.html

(٣) www.shorouknews.com

نخذل نصرة المسلمين المستضعفين بإذن الله حتى نُخرج من سجونكم كل موحد، ونقول لمن له عقل: باب التوبة مفتوح قبل القُدرة عليكم»[١]، وفي رسالة أخرى للفلسطينيين يزعم التنظيمُ انتماءه لفلسطين بالقول: «لسنا جماعة حزبية كتنظيمات الذل والهوان التي باع الكثير من قياداتها الدين لصالح السياسة في قتال الأعداء والدخول في البرلمانات الشركية وموالاة الكافرين وقادة الشيعة بأنهم مسلمون وتمرير دعوتهم ودينهم للضفة وغزة، حسبنا الله ونعم الوكيل.. شعبنا الصابر المجاهد، إننا نحمل لكم شرف الانتماء لهذا الدين بحق بإذن الله على منهاج النبوة بفهم سلف الأمة»[٢].

لكن الرياح تجري بما لا تشتهي إسرائيل وحلفاؤها التكفيريون، فالمنطقة باتت على صفيح ساخن من المفاجآت، وصمود محور المقاومة، سيعيد تشكيل القوى الفاعلة وسيؤسس لنظام عربي جديد موحد متماسك وقوي لا يعترف بحدود (سايكس بيكو) الوهمية المصطنعة، ولا يرى حلاً جذرياً للصراع (العربي - الصهيوني) إلا بانتزاع الورقة الفلسطينية من الأجندات الدولية وزوال الاحتلال عن أرض فلسطين، فقد أثبت هذا المحور إدراكه لحجم التآمر الدولي على العرب والمسلمين وتماسكه واستعداده لكل الاحتمالات، وتمسكه بالحقوق العربية والتفافه حول عقيدة القتال ضد إسرائيل وقدرته على منع تحويل الصراع مع إسرائيل إلى سني شيعي، فمشروعه قائم على تحرير الأراضي المحتلة، ودعم صمود الشعب الفلسطيني وحق العودة والحفاظ على القضية الفلسطينية من الضياع في متاهة التسويات والاتفاقات والمفاوضات وإيقاظ الوعي العربي والإسلامي حول خطورتها.

خطر وجودي

تشكل الجماعات التكفيرية خطراً وجودياً ليس على المجتمعات فقط، بل وأيضاً على جميع الأنظمة السياسية من (جمهوريات وممالك وإمارات)، فقد جعلت مستقبل المنطقة على كف

---

(١) www.tayyar.org

(٢) المصدر السابق.

عفريت.

ومما لا شك فيه أن المخاوف المتزايدة حيال الإرهاب بوصفها ظاهرة أممية أثرت في المشهد السياسي العام في العالم بعد أن صار محسوماً بالأدلة القاطعة عدم قدرة أي نظام سياسي حاكم من تفادي المد التكفيري حتى ولو كان حليفاً أو داعماً له[١].

ومن المهم في هذا الإطار التدقيق بحجم التراجع الشعبي لمشروع (الإسلام السياسي) على المستوى العربي والإقليمي في ظل المؤشرات الكثيرة التي تؤكد التفاف الشعوب على دولها ومؤسساتها وجيوشها ورفضها للمشروع التكفيري، فالإخوان المسلمون سقطوا في مصر سقوطاً مدوياً، وحركة حماس خسرت الكثير من رصيدها العربي والإسلامي، وحزب (العدالة والتنمية) الحاكم في تركيا فاز بصعوبة بالانتخابات البلدية في آذار الماضي، وفقد الأغلبية في كثيرٍ من المدن مقابل التقدم الذي أحرزته قوى المعارضة البرلمانية الأخرى، ما يعني أنه سيجد صعوبة بالانتخابات البرلمانية المقررة مطلع العام المقبل (٢٠١٥) .. خصوصاً أن الاحتجاجات المناهضة للحكومة مازالت مستمرة بالداخل على خلفية مشاكل مع حزب العمال الكردستاني وقضايا فساد وأخطاء سياسة داخلية وخارجية. وفي سورية أعيد انتخاب الرئيس بشار الأسد بنسبة ٨٨.٧٪ من أصوات الناخبين، وكان قد فاز بالمرتبة الأولى في التصويت الذي أجرته قناة الميادين لاختيار شخصية العام ٢٠١٣، بنسبة تصويت بلغت ٣٧.٩٧ من إجمالي الأصوات، وبعدد أصوات بلغ ١٩٣٤٠٤ صوتاً.

وفي تونس، تقدم حزب (نداء تونس) العلماني في الانتخابات على حركة النهضة الإسلامية التي بدأت بوادر الانقلاب الشعبي عليها على خلفية القلق من المد التكفيري، فقد قام أكثر من ٧٠ نائباً ونائبة في المجلس التأسيسي التونسي بالتوقيع على عريضة موجهة إلى

---

(١)دعا البغدادي أنصاره إلى (الجهاد في كل مكان)، ولا سيما في السعودية حيث (رأس الأفعى ومعقل الداء)، وطالبهم بتفجير (براكين الجهاد).

رؤساء المجلس والحكومة والجمهورية ينددون ويحذرون فيها من انتشار الفكر الوهابي في تونس. حيث عدّ بعض النواب أن قدوم الدعاة السلفيين إلى تونس بمثابة الغزو الوهابي لدولة معروفة باعتدالها الديني. وأفاد هؤلاء أن تكرر دعوات الوهابيين إلى تونس تحت عنوان (نشر الإسلام) بمباركة من كتلة النهضة التي رفضت التوقيع على العريضة يأتي في إطار مشروع تجهيل الشعب وضرب ثوابته العقائدية . وندد النواب بمثل هذه الممارسات المستوردة تحت غطاء الوهابية محذرين من أي شكل من أشكال الوصاية التي يمارسها هؤلاء الغرباء على الدين الإسلامي والشعب التونسي"(١).

ولفهم حجم المخاوف الدولي من هذا الخطر نتوقف عند المعطيات الآتية:

١- توجه المجتمع الدولي لتعويم الحل السياسي للأزمة في سورية (مؤتمر جنيف حول سورية، ومبادرة ستيفان دي ميستورا، والمبادرة الروسية).

٢- فتح قنوات اتصال عربية وغربية مع القيادة السورية وبروز تيارات سياسية تطالب بإعادة العلاقات الدبلوماسية المقطوعة معها بالتوازي مع دعوات التعاون الأمني والتحالف مع رئيسها بشار الأسد في جهود محاربة الإرهاب، ومعظم عواصم القرار أصبحت تنتهج سياسة الانفتاح على سورية للاستفادة من كنز المعلومات الاستخباري الذي تملكه حول ما يسمى الجهاديين.

٣- تنحي رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي لصالح حيدر العبادي بعد اجتياح تنظيم داعش للموصل ومدن عراقية أخرى.

٤- الانفتاح الأمريكي والغربي على إيران تحت مظلة التفاوض حول ملفها النووي، والتسليم بحقها في امتلاك الطاقة النووية لإنتاج تفاهمات يبدو أنها في طريقها إلى التبلور حول الملفات العالقة في لبنان والبحرين واليمن وسورية والعراق.

---

(١) alalam.ir/news/1442264

٥- تزايد منسوب السخط العربي والدولي من الدول الداعمة للإرهاب كقطر والسعودية وتركيا، وإدراج عدة حركات إسلامية من أبرزها الإخوان المسلمون على لائحة الإرهاب في عدد من الدول .

٦- طي صفحة الخلاف الخليجي وإعادة سفراء الرياض وأبو ظبي والمنامة إلى قطر، وإشارة الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي في ٢٤-١٠- ٢٠١٤من أن بلاده تخوض حرب وجود تعليقاً على استهداف جنود مصريين في سيناء، ودعوة وزيرة الخارجية سامح شكري إلى تكاتف الجهود الدولية لمحاربة التنظيمات الإرهابية المختلفة المستشرية في المنطقة والتعامل مع خطرها بحسم من دون التركيز على تنظيم بعينه وإغفال باقي التنظيمات خاصة في ضوء ما يجمعها من أفكار متطرفة وأيديولوجيا واحدة، فضلاً عن التعاون في ما بينها على المستوى العملياتي[1].

التكفيريون يهددون السلم الأهلي

بات واضحاً للرأي العام العالمي أن الجماعات التكفيرية بوحشيتها وهمجيتها لا تنتهك حقوق الإنسان فقط، بل تهدد كيانات الدول وتسلبها إنجازاتها وأمنها واستقرارها وإرثها التاريخي وقيمها الحضارية، كما أنها تخالف وسطية الإسلام واعتداله وجوهر دعوته في التعايش السلمي بين كافة الشعوب على اختلاف أديانها ومذاهبها ومكوناتها العرقية والإثنية.

ونظراً إلى عمليات التهجير والتطهير العرقي التي ترتكبها الجماعات التكفيرية بحق الأكراد والمسيحيين والإيزيديين والعلويين والدروز والشيعة والشبك والتركمان وغيرهم . نستنتج أنه ما من أحد بمنأى عن مخاطرها حتى الطائفة السنية التي تدعي تلك الجماعات حمايتها من الاضطهاد والتمييز.

وفي الواقع، إن ضرب السلم الأهلي والتعايش المشترك بين مختلف الطوائف في مجتمعات عُرفت تاريخياً بالتعددية والتنوع عبر آلاف السنين هو أهم الأهداف التي يحاول الغرب

---

(١) www.sana.sy

الاستعماري تنفيذها لإفراغ الشرق من المكون المسيحي تطبيقاً لمشروع الشرق الأوسط الكبير، وطمس معالم الهوية العربية والقضاء على التنوع الديني، وإحداث تغيير ديموغرافي في المنطقة يخدم مصالحها، بحيث تظل جبهات الصراع مشتعلة إلى ما لا نهاية وينحصر الاقتتال بين طرفين: الجيوش العربية والمتطرفين الذين تصدرهم من دولها، وهكذا تتخلص منهما في وقت واحد، وهو ما يفسر تشجيعها على هجرة المسيحيين العرب ومنحهم حق اللجوء السياسي. والشواهد على توظيف الغرب الجماعات التكفيرية لأداء هذه المهمة كثيرة ومنها:

١- تدمير التراث الحضاري لجميع الطوائف والمكونات دون استثناء.

٢- ما قام به تنظيم داعش الإرهابي من إحراق للكنائس في معلولا ونينوى والموصل بالإضافة إلى عمليات سبي لنساء عراقيات وسوريات، وافتتاح سوق نخاسة لبيع الإيزيديات والمسيحيات [١] منهن بمدينة نينوى، وقد تناقلت صفحات التواصل الاجتماعي صوراً لمجموعة من النساء مقيدات بالسلاسل قيل إنهن في العراق، يسوقهن في الشوارع عناصر من تنظيم داعش الإرهابي، وكانت وزارة شؤون المرأة العراقية وجهت بياناً إلى جميع الجهات المعنية في الحكومة الاتحادية وحكومة منطقة كردستان والمجتمع الدولي للتدخل السريع لوضع حد للمجازر التي يرتكبها داعش بحق المدنيين العزل من هذه المكونات وإنقاذ نسائها من السبي والاسترقاق[٢].

٣- تقرير الأمم المتحدة يوم الجمعة ١٤/ ١١/ ٢٠١٤ حول مسؤولية داعش بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في مناطق من سورية يسيطر عليها مسلحو التنظيم. ففي

---

(١) أفادت وكالة (فرانس برس) يوم الجمعة ٨ أغسطس- آب نقلاً عن المتحدث باسم الهلال الأحمر العراقي محمد الخزاعي قوله إن (عناصر داعش خطفوا النساء من الإيزيديات والمسيحيات كسبايا، وعرضوهن في أحد الأسواق لبيعهن).وأضاف الخزاعي أن (التنظيم احتجز عشرات العائلات في مطار تلعفر من التركمان والإيزيدية والمسيحيين، وقتل جميع الرجال). وذكرت مصادر إعلامية وأمنية في محافظة نينوى أن التنظيم اختطف أكثر من ٤٠٠ امرأة من الطائفة الإيزيدية، وقام بتوزيعهن على معسكرين لإجبارهن على ما يسمى (جهاد النكاح).

(٢) www.alalam.ir/news/1621391

تقرير أشرف عليه ممثلها (باولو سيرجيو بنيرو) تأكيدات أن المجموعة المسلحة تنتهج سياسة عقوبات تمييزية مثل الضرائب أو الإرغام على تغيير الدين على أسس الهوية الإثنية أو الدينية، وتدمير مواقع دينية وطرد منهجي للأقليات. وأشار التقرير إلى أن الهجمات على نطاق واسع ومنهجي ضد المدنيين الأكراد وضد أقلية الإيزيديين تشكل جرائم ضد الإنسانية مثل عمليات الإخفاء القسري خلال هجمات ضد المدنيين في مناطق حلب والرقة تترافق مع جرائم وتعذيب. وأضاف التقرير الواقع في ٢٠ صفحة أن داعش قام بقطع رؤوس ورجم رجال ونساء وأطفال في أماكن عامة في بلدات وقرى شمال شرق سورية. وتعلق جثث الضحايا عموماً على صلبان لمدة ثلاثة أيام كما توضع الرؤوس فوق أسلاك عامة لتكون بمثابة تحذير للسكان حول عواقب رفض الانصياع لسلطة المجموعة المسلحة»[١].

٤-تصريحات البطريرك اليوناني (بارثولو مايوس الأول) لصحيفة (دير ستاندارد) النمساوية بتاريخ ١٦/ ١١/ ٢٠١٤ من أن ما يجري في سورية والعراق: بمنزلة عملية اقتلاع لجذور الحضارات ومهد الديانات، وجاء في تعليق الصحيفة ما يلي: «التنظيمات الإرهابية مثل داعش وجبهة النصرة (فرع تنظيم القاعدة في سورية) قامت بقتل المدنيين من جميع مكونات المجتمعين السوري والعراقي، ودمرت البلاد وقتلت المسيحيين والمسلمين على السواء وطردتهم من ديارهم». وأضافت «أن (داعش والنصرة) دمروا جذور الأديان والحضارات وهجروها بعد أن تعرضت شعوب تلك المنطقة على مر العصور لعمليات قتل وتهجير وإبادة جماعية من التتر والمغول والعثمانيين وخاصة الأرمن والأرثوذكس اليونان على يد السلاطين العثمانيين حتى بداية الحرب العالمية الأولى»[٢].

٥-الصحفي (دانيال وليامس) من (الواشنطن بوست) الأمريكية كتبت من أربيل عن نهاية الوجود المسيحي في العراق : «ما لم يدركه الرئيس أوباما أن ١٢٠ ألف مسيحي عراقي لجؤوا إلى كردستان لن يعودوا إلى أوطانهم حتى لو اختفى جلادوهم فجأة. لقد أمضيتُ ١٠

---

(١)الأمم- المتحدة- داعش- جرائم- حرب http://arabic.rt.com/news/764810 .

(٢) www.alwatan.sy/view.aspx?id=23465

أيام من هذا الشهر في أربيل مع النازحين المسيحيين الذين قالوا لي إنهم لن يعودوا إلى الموصل، فقد خسروا كل شيء منازلهم وأعمالهم، والبعض منهم أمضى بضعة أسابيع في السجن حيث خضع لمحاولات إرغامه اعتناق الإسلام. لكن التجربة الأسوأ كانت رؤيتهم لجيرانهم وأبناء بلدتهم ينضمون إلى داعش ويتعاونون معه ضد المسيحيين وسائر الأقليات ... والواقع أن ما حدث خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة هو ذروة مسار لاضطهاد المسيحيين بدأ قبل ١١ سنة»[١].

٦- تحذير مجلة (فورين بوليسي) الأمريكية من العنف والتدمير الذي يلحق بالمجتمعات المسيحية في العراق على يد الجماعات الإسلامية المتطرفة التابعة لتنظيم القاعدة، مشيرة إلى أن سيطرة الجهاديين على شمال العراق يمثل كارثة للعراقيين، لكن تدمير الثقافة المسيحية القديمة كارثة للعالم كله. وقالت المجلة، في تقرير مطول «إن الأمر بدا مثل اختفاء بعض الغطاء الجليدي من القطب الجنوبي الضخم أو انقراض أحد الأنواع النادرة من الكائنات، مضيفة إن هناك شعوراً بأن أحد المقومات الأكثر قيمة للحياة على الأرض على وشك أن تختفي في جميع الاحتمالات إلى الأبد...إن استيلاء داعش على الموصل هو كارثة لشعب العراق الذي يواجه الآن إحياء حرب طائفية شاملة، وكابوساً استراتيجياً ونفسياً للولايات المتحدة، التي ضحت بكم هائل من الدماء والمال للإطاحة بصدام حسين وبناء حكومة قابلة للحياة، والأخيرة هذه، على ما يبدو، دون جدوى». وأشارت إلى أنه على مدى الأيام القليلة الماضية، تشهد البلاد كارثة أكثر تحديداً تتمثل في هجرة وتشتيت آخر بقايا المجتمع المسيحي العراقي، ونقلت عن الأب (إميل شمعون نونا)، بطريرك الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية في الموصل، قوله : «إن البقية القليلة من مسيحيي البلاد فرت قبيل غزو داعش للمدينة. وأوضح الأب نونا أنه منذ الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، تضاءل مسيحيو مدينة

---

(١) http://newspaper.annahar.com/article/173097

الموصل من ٣٥ ألفا إلى ٣ آلاف فقط بسبب العنف ضدهم، لافتاً إلى أن الآن لم يعد أحد موجوداً من المواطنين المسيحيين، إذ التحق أغلبهم باللاجئين الذين فروا ضمن نصف مليون عراقي إلى إقليم كردستان، مع سيطرة داعش على الموصل»، وقالت المجلة: «إن فرار البقية القليلة من مسيحيي الموصل كانت قبل كل شيء، بسبب السمعة الدموية للجهاديين، والتي عززتها داعش بنشر صور وحشية على حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي لعميات قتل جماعي، حيث قُتل نحو ١٧٠٠ جندي عراقي رميا بالرصاص، هذا علاوة على ما فعلته داعش بمسيحيي سوريا وفرض الجزية عليهم في مدينة الرقة. وفور وصول مقاتلي الجماعة الجهادية إلى المدينة قاموا بإشعال النار في الكنيسة الأرمنية. وأوضحت أن طيلة ألفي عام كان العراق موطناً للثقافة المتميزة والحيوية للمسيحية الشرقية، لكن هذه القصة التاريخية قاربت على نهايتها، وأنه وفقاً للتقديرات الرسمية فإن عدد مسيحيي العراق عام ٢٠٠٣ كان يبلغ نحو ١.٥ مليون نسمة، أي حوالى ٥٪ من السكان، لكن توسع الصراع الطائفي والهجمات الإرهابية دفع أولئك المواطنين خارج بلادهم فارين إلى معسكرات اللاجئين أو الدول الغربية، وكان من بين أولئك الضحايا الأب بولس فرج رحو، سلف المطران نونا، الذي تم خطفه وقتله خارج كنيسته في الموصل عام ٢٠٠٨»[1].

ثقافة السكين

قامت الجماعات التكفيرية في المناطق التي تسيطر عليها بإفراغ المناهج التدريسية من المضمون العلمي والمعرفي والبعد الوطني والجمالي والفلسفي واستبدالها بثقافة سطحية قائمة على نزعة عنصرية ومفاهيم شمولية أحادية الجانب لا تأخذ بعين الاعتبار ضرورة ربط الأجيال بحضارة المنطقة وتاريخها العريق ولا تمكينها من الاطلاع على الإنجازات العلمية والاكتشافات الإنسانية.

إذ تقود تلك الجماعات عملية تجهيل واسعة وممنهجة في سورية والعراق تتضح معلمها

(١) http://mcndirect.com.ukwsp3.com/showsubject_ar.aspx?id=55113

من خلال تدمير المدارس والجامعات واغتيال الكفاءات العلمية وتهجيرها بهدف طمس الهوية العربية وإفراغ البلدين من عناصر القوة، وما يثبت دقة هذا التحليل الواقع المزري الذي آلت إليه العملية التعليمية في مناطق سيطرتها وتركيزها على استهداف لمؤسسات العلمية والتربوية على كامل الأراضي السورية منذ اندلاع الأزمة. حيث أعلنت منظمة اليونيسيف(١) أن عدد المدارس المتضررة والمدمرة في سورية قد ارتفع ليصل إلى حوالي ٢٩٦٠ مدرسة وبلغ عدد موظفي التعليم الذين قتلوا بأعمال إرهابية ٢٢٢ موظفاً، ووصل عدد المدارس المستخدمة كمأوى للنازحين والفارين١٤٠١.

ففي إطار مساعيه لفرض الأمر الواقع وتغيير التوجهات وتبديل القناعات الوطنية والقومية أصدر ما يسمى ديوان التعليم التابع له تعميماً(٢) موجهاً للمؤسسات التربوية والتعليمية في المناطق الخاضعة لسيطرته في سورية بتاريخ ٢٩ آب ٢٠١٤ نص على ما يأتي:

١-إلغاء المناهج الدراسية الموضوعة من لدن الدولة السورية بشكل نهائي وفي مقدمتها: (التربية الفنية الموسيقية، والتربية الوطنية، ودراسات اجتماعية، والتاريخ، والتربية الفنية التشكيلية، والرياضة، وقضايا فلسفية واجتماعية ونفسية، والتربية الدينية الإسلامية، والتربية الدينية المسيحية)، على أن تضاف مواد تعويضية لها.

٢-حذف النشيد الوطني السوري أينما وجد، وشطب جملة (الجمهورية العربية السورية) أينما وجدت واستبدالها بـ (الدولة الاسلامية). وتستبدل كلمة الوطن أو الوطنية أو سورية أو وطني أينما وجدت بـ الدولة الإسلامية أو دولته الإسلامية أو بلاد المسلمين أو ولاية الشام...إلخ.

٣- تشطب تسمية وزارة التربية (متبعة من قبل الدولة) وتستبدل بـ وزارة التربية والتعليم.

---

(١) www.youm7.com/story/2013/5/10

(٢) www.aldaleelalshamel.com/the_news_list.php?new_feed_id=1470

٤- تطمس جميع الصور التي لا تتوافق مع الشريعة الإسلامية.

٥- يمنع تدريس مفهوم القومية أو الوطنية، وإنما الانتماء للإسلام وأهله والبراءة من الشرك وأهله ... إذ إن بلاد المسلم هي البلاد التي يحكم فيها شرع الله.

٦- يسد المعلم نواحي النقص المترتبة على الحذف بأمثلة لا تتعارض مع الشريعة أو سياسة دولة الخلافة.

٧- يحذف أي مثال في مادة الرياضيات يدل على الربا أو الربوية.

٨- يحذف من مادة العلوم كل شيء يتعلق بنظرية داروين أو رد الخلق للطبيعة أو الخلق من عدم، ورد كل الخلق لله سبحانه وتعالى.

٩- يقوم المعلم بتنبيه الطلاب دائماً إلى أن قوانين الفيزياء والكيمياء هي قوانين الله في الخلق.

أما في العراق، فقد استبدل التنظيم شعار جمهورية العراق من المناهج التدريسية والمباني الحكومية بـ (الدولة الإسلامية - ديوان المعارف)، وألغى مادة الوطنية العراقية والجغرافية والديانة المسيحية والموسيقى والاجتماعيات والمناهج الفلسفية والنفسية من المدارس، وهدّد المعلمين بقطع رواتبهم إن لم يباشروا بالدوام (أكثر من خمسين ألف معلم ومدرس في نينوى بدؤوا يلتحقون بمدارسهم التي دعاهم إليها البغدادي متجاهلين الحكومة العراقية، خشية عقوبة البغدادي التي غالباً ما تنحصر بين الإعدام والجلد في أقل الأحوال)[1].

وأما في التعليم الجامعي، فقد أُلغيت كليات الحقوق والعلوم السياسية والفنون من جامعة الموصل الحكومية وهي واحدة من أكبر المراكز التعليمية والبحثية في الشرق الأوسط وثاني أكبر جامعات العراق بعد جامعة بغداد، وفرض على طلابها الذكور الزي الأفغاني فيما فرض الخمار على الطالبات، وقرر أن يكون دوامهن من الساعة ٩ صباحاً إلى الساعة ٢ بعد

---

(١) http://rudaw.net/arabic/middleeast/iraq/300920144

الظهر بينما يداوم الطلاب من الساعة ٢ بعد الظهر إلى الساعة ٦ مساء[1].

وكما جاء في مقالة (السيف أصدق أنباءً من الكتب)[2] للصحفي طالب جرادي، فُرضت مناهج التربيّة الدينيّة الرائجة في المملكة العربيّة السعوديّة، من دون تغيير كبير فيها ومنها كتاب التوحيد والفقه والسلوك وكشف الشبهات ونواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب، الذي ينسب له فكر السلفية الجهادية والذي تطرق في كتبه إلى الفرقة الناجية التي تحدث عنها النبي محمد ﷺ وهي بحسب زعمهم (تنظيم الدولة الإسلامية) استناداً إلى ما رواه بعض علمائهم على أن الفرقة الناجية هم الذين يجتمعون على أمير، في إشارة إلى أميرهم الحالي أبو بكر البغدادي.

وقد انعكست تلك الإجراءات على العراقيين وأثرت في مستقبل أبنائهم تأثيراً سلبياً، حيث تؤكد المصادر الإعلامية أن خمس مئة ألف طالب وطالبة تركوا مقاعدهم بعد تعليق الحكومة العراقية الدوام في المدارس والجامعات إلى ما بعد تحرير الموصل، في الوقت الذي تحولت فيه أروقة الحرم الجامعي في الموصل وبعض مدارسها إلى مقرات لـ (داعش) ودور سكنية للمقاتلين الأجانب والوافدين معه[3]. وهذا النمط من التعليم يشكل خطراً على الأجيال الصاعدة بلا شك، إذ لا تستطيع الحكومتين العراقية والسورية فرض مناهجهما الدراسية بسبب عدم وجود سلطة لهما في تلك المناطق ولانشغالهما بتأمين مدارس مؤقتة للطلاب النازحين[4]. والمقلق أن التنظيم يسعى جاهداً لتعميم إيديولوجياته الوحشية بشتى الطرق والوسائل، ويستغل الفقر المتفشي ليدرب مئات الأطفال بالإكراه على القتال في معسكراته ثم ينقلهم إلى جبهات القتال مقابل حفنة من المال، وتتناقل المواقع الإلكترونية

---

(١) www.shasha.ps/more/120015

(٢) www.thawraonline.sy/...articles-list/57000-2014-11-11-08-27-42

(٣) يشار إلى أن وزارة التربية العراقية أكدت أنها بحاجة إلى نحو ستة آلاف مدرسة لسد النقص الحاصل في عدد المدارس، انظر: http://yejournal.com/archives/17549

(٤) أكد مدير التخطيط في وزارة التربية العراقية في تصريحات صحفية أن عدد المدارس التي دمرها (داعش) بين حزيران ونوفمبر ٢٠١٤ بلغ أكثر من ألفي مدرسة.

صوراً لأطفال صغار مخطوفين في الرقة يُزج بهم في المعارك الدائرة شمال سورية.

والملاحظ أن داعش ينتهج سياسة التجويع والترغيب والترهيب لإرغام الأسر على إرسال أبنائهم إلى مراكز التدريب، ويقدم للأطفال والشبان الصغار إغراءات مادية لجعلهم جواسيس يعملون لصالحه لإخبارهم عن الناشطين أو من يتحدث بسوء عنهم، ويقوم بمضايقة الأسر التي تضم أطفالاً فوق سن العاشرة في موارد رزقها، لإجبارها على تقديم تنازلات وإرسال أبنائها مقابل تقديم مواد غذائية لها، ونجح هذا الأسلوب في استقطاب الكثير من الأطفال إلى معسكراته، حيث يضم المعسكر الشرعي للأشبال والموجود في مدينة الطبقة في الريف الغربي لمدينة الرقة، في كل دفعة ما بين ٢٥٠ إلى ٣٥٠ طفلاً. ويخضع الأطفال إلى نوعين من التدريب: الأول بطيء والثاني سريع، وفي الحالة الأولى يدخل الطفل معسكراً شرعياً مدته ٤٥ يوماً، يتم خلاله غسل دماغه تماماً. ثم يساق بعد ذلك إلى معسكر حربي مدته ٣ أشهر، يتم تدريبه خلالها على كافة أنواع الأسلحة والقنابل.

وفي الحالة الثانية يدخل الأطفال معسكرا شرعياً مدته ٢٠ يوماً، ثم يؤخذون إلى معسكر تدريبي لا تتجاوز مدته الشهر ومن ثم بشكل مباشر إلى القتال، (وفي هذه الحالة يكون التنظيم منخرطاً في معارك ساخنة كمعركة عين العرب).

وتفيد مصادر إعلامية بأن عدد الأطفال الذين قتلوا منذ السابع من أكتوبر الماضي حتى الآن بلغ أكثر من ٣٠ طفلاً من أبناء مدينة الرقة. وأكثر من ٤٥ شاباً في معارك داعش في مدينة عين عرب وغيرها، وأن غالبيتهم تم استخدامهم لتنفيذ عمليات تفجيرية[1]. ونشير إلى أن استغلال الأطفال ليس حكراً على التنظيم باعتبار أن الجهات المختصة لن تشك بهم، فقد نشرت جبهة النصرة صورة نسبتها لأم المجاهدين الأفغانية تقوم بتجهيز عبوة مكتوب عليها هذه هي حياتي.. هذا هو ديني[2] ليفجرها أحد الأطفال السورين الذي لا يبلغ من العمر ١٠ سنوات بأحد الحواجز الأمنية، والواقعة ليست الأولى من نوعها، فقد أصدرت الجبهة سابقاً

---

(١) ar.shafaqna.com

(٢) http://exposingfreearmy.wordpress.com/2012/12/29

فتوى تفرض على أهالي مدينة حلب والأماكن التي تسيطر عليها إرسال أطفالهم الذين بلغوا الـ١٠ سنوات إلى الجهاد، وحمل السلاح.

وكانت وزارة حقوق الإنسان العراقية كشفت أن داعش يجند أطفالاً فوق سن ١٢ سنة على أنهم انتحاريون وترسلهم إلى محافظة الأنبار للاتجار بهم بأسعار تفاضلية تصل إلى ٣ آلاف دولار.. وجاء في بيانها «أن جذب الأطفال يتم عن طريق شباب يقدمون لهم المغريات وكذلك يتم غسل أدمغتهم بأفكار تكفيرية تعصبية بدعوى الجهاد». ولفت البيان إلى «أن مسلحي التنظيم يسقوهم عصائر مملوءة بحبوب الكبسلة والهلوسة قبل إرسالهم للتفجير»(١)، بدورها أكدت المفوضية العليا لحقوق الإنسان في (١٣ تموز ٢٠١٤)، أن «التنظيم استخدم الأطفال كدروع بشرية في مدينتي تكريت والموصل»(٢).

وفي السياق نفسه، يذكر تقرير لليونيسيف صدر تحت عنوان الحصار .. الأثر المدمر للأطفال(٣) أن نحو ثلاثة ملايين طفل سوري داخل سورية أو في الدول المجاورة غير قادرين على الذهاب إلى المدارس بانتظام، وأوضح أن هذا الرقم يشكل نحو نصف سكان سورية ممن هم في مرحلة الدراسة، وأن ما يقدر بمليون طفل سوري محاصرين أو في مناطق يصعب الوصول إليها، وأن الملايين مهددون بأن يكونوا جيلاً ضائعاً.

تضخيم القوة

لا شك فيه أن الجماعات التكفيرية تجيد لعبة الإعلام، فقد نجحت في تسويق أفكارها بما تملكه من إمكانات إعلامية وتكنولوجية وسيكولوجية فائقة، مستخدمةً أحدث الأدوات (من هواتف محمولة وكاميرات ديجتال وأجهزة لوحية وكمبيوترات ومواقع إلكترونية

---

(١) www.alalam.ir/news/1621146

(٢) المصدر السابق.

(٣) http://enabbaladi.org/archives/15864

ونشرات، مطبوعات وأفلام وتطبيقات).

وبالحديث عن أسلوبها الإعلامي نستطيع تسجيل الملاحظات الآتية:

١-الأداء النشط والمميز للغاية في مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك، وتويتر، وأنستغرام). وثمة تعليق لافت لمراسل (الغارديان) في بغداد (مارتن تشارلوف) على هذه النقطة، يقول فيه: «إن الخوف من اجتياح داعش للعاصمة سببه حملات مواقع التواصل الاجتماعي وليس الحقيقة»[1].

٢-الترويج لأفكارها بمختلف الوسائل الدعائية، إذ نجد شعاراتها مطبوعة في اللوحات الإعلانية والثياب والقبعات وغيرها.

٣-تعمد أسلوب السخرية[2] من أعدائها، إذ تظهر مقاطع مصورة مثلاً التكفيريين، وهم يمزقون جوازات السفر الخاصة بهم، وهم يتهكمون على حكام دولهم، ونستطيع رصد هذه الميزة بخطابات (أبي بكر البغدادي) ففي التسجيل، الذي نشرته مؤسسة الفرقان الإعلامية التابعة لتنظيمه بعنوان **(ولو كره الكافرون)** ومدته ١٧ دقيقة، يسخر البغدادي غداة الأنباء التي تحدثت عن مقتله في غارة أميركية من التحالف الدولي الذي شكلته واشنطن للقضاء على داعش فيصف أن خطة التحالف فاشلة، وأن دوله ستجد نفسها مضطرة للنزول إلى الأرض لقتال عناصر تنظيمه، وكان للدول العربية نصيب من السخرية : مشاركتها في الحملة الصليبية لم تكن سوى مسرحية إعلامية.

٤-من الوسائل الترويجية البارزة لدى الجماعات التكفيرية (خاصة جبهة النصرة)

---

(١) www.elshaab.org/news/119358

(٢) رفع ناشطون مقطع فيديو على مواقع التواصل الاجتماعي يظهر فيه أحد شيوخ الوهابية يدعو أتباعه إلى التلذذ و(التسلية) في حز العنق قبل قطعه.. وحين يذكره أحد الحاضرين بالحديث النبوي الشريف (ولا تمثلوا .. المثلة حرام حتى ولو بالكلب العقور) يرد عليه (الشيخ) التكفيري قائلاً : (هذا ليس بالذبح)!! و أصر ساخراً أن الذبح يجب أن يتم (بتمرير السيف على عنق الإنسان على عدة مرات)، واخذ يصورها بيده بشكل ساخر ويضحك من يجلس أمامه. رابط الفلم: www.youtube.com/watch?v=dbfBXpp8rbw

الأناشيد الإسلامية.

٥- تستثمر تجارب مقاتليها الناشطين على مواقع التواصل، إذ يكتبون ويصورون ممارساتهم الوحشية، وتستفيد كذلك من مؤيديها الذين يدعمونها بالترويج لدعايتها وشعاراتها ويقومون بترجمة أفكارها إلى لغات عالمية متعددة.

وبتحليل المحتوى الإعلامي لما تنشره من مواد نلاحظ تركيزها على تحقيق أهدافها من خلال ما يأتي:

- إحداث صدمة عند المتلقي لخلق الرعب لديه بصور مروعة وبربرية لحالات قتل وتعذيب بقطع اليد أو الصلب أو الرجم أو الذبح أو حرق الضحايا أحياء كما حصل في حادثة إعدام الطيار الأردني معاذ الكساسبة، ويشار هنا إلى تقرير لمجلس الأمن الدولي لاحظ عدم وجود انضباط في الدعاية الإعلامية والاجتماعية لتنظيم داعش[١].

- تضخيم عناصر القوة لديها من خلال تصوير مقاتليها في حشود كبيرة تتدرب في مساحات صحرواية واسعة، مع الحرص على إبراز الأجانب منهم لإثارة فزع الغرب، (الكثير من التسجيلات تظهر إرهابيين غربيين يتحدون حكوماتهم باللغة إنكليزية متقنة)، وإبراز معدات عسكرية ضخمة ومخازن مملوء بالذخيرة والأسلحة الخفيفة والثقيلة والمتطورة والنوعية.

- إطلاق كمٍّ هائلٍ من الشائعات في إطار الحرب النفسية التي تخوضها بوجه أعدائها.

- اعتماد خطاب يتضمن مصطلحات إسلامية كـ: الجهاد، والخلافة، والولاية، والإمارة، والبيعة، والجزية، والخليفة، وأمير المؤمنين، والغزوة، والغنائم وما إلى ذلك لإضفاء الطابع الشرعي على سلوكها.

- التعرض للرموز والمرجعيات والمقدسات الدينية لدى الطوائف والمذاهب كافة دون

---

(١) www.sana.sy

أي ضوابط أخلاقية أو خطوط حمراء الأخرى لاستعدائها وجرها إلى ردود أفعال فوضوية.

• إظهار الاهتمام بالجانب المعيشي والاجتماعي للمواطنين الخاضعين لسيطرتها، فتصدر مشاهد عن عناصرها وهم يتجولون في الشوارع لتنظيم حركة السير ومراقبة الأسواق والإشراف على المخابز وتوزيع المعونات الغذائية على المدنيين وإغلاق المحال التجارية وقت الصلوات.

• تبرز صوراً تظهر تقشف عناصرها (شعث غبر حفاة) للادعاء بأنهم يسيرون على (نهج السلف الصالح) وتستشهد بآيات قرآنية محددة لتزعم أنها المقصودة بها.

• في لعبة الصورة تظهر مهارة عالية شبيهة بأفلام هوليود السينمائية، فالفيديو الخاص بعملية ذبح جماعية لـ١٥ جندياً سورياً والذي نشره تنظيم داعش يوم الأحد ١٦ نوفمبر تشرين الثاني مصور بكاميرات فائقة الدقة باستخدام زوايا متعددة، ومقاطع بطيئة الحركة، ومؤثرات صوتية، وقد حلل خبراء مختصون الرسائل التي أراد داعش إيصالها فقال بروفيسور الشؤون الدولية بجامعة جورجيا (لوك جونسون): «إن إظهار وجوه المجرمين هي طريقة التنظيم لتضخيم قيمة الصدمة، وجعل المسألة شخصية بشكل أكبر، وأكثر إيلاماً للناس في الغرب عندما يرونه، بدوره رأى الخبير بمركز آي اتش اس فراس أبي علي أن كشف وجوه عناصر التنظيم ليس تغييراً في الاستراتيجية بقدر ما هو طريقة التنظيم لـ إظهار ثقة أكبر.. ويضيف إنها مجرد وسيلة للقول: نحن لسنا خائفين»[١].

• الحرص على مخاطبة المتعاطفين معها حول العالم خاصة المهمشين من أفراد العصابات الذين لا يوجد أمامهم الكثير من الخيارات المستقبلية[٢] بهدف استقطاب وتجنيد أكبر عدد ممكن من الأشخاص، ففي شريط بعنوان لا حياة من دون جهاد يظهر مقاتلون أجانب من داعش يحثون آخرين لكسر الحدود والانضمام إليهم. ما يعني أنها تدرك أهمية اعتماد لغات متعددة في رسائلها للوصول إلى جنسيات دولية متعددة.

---

(١) الثلاثاء ١٨/ ١١/ ٢٠١٤ موقع SyriaNow

(٢) egynews.net

وكل ما سبق يثبت أن الجماعات التكفيرية تملك كفاءات علمية متخصصة في الصناعة الإعلامية نجحت في تظهير صورة مضخمة عنها، إذ بدت أقوى مما عليه هي في الواقع، وهو ما أكدته صحيفة (التايمز) البريطانية بتعليقها على فيديو نشره داعش يظهر إعدام جماعي لجنود سوريين جاء فيه: «التنظيم يدير حملة دعاية واعية وذكية ويدرك أن إعداماً بالغ الوحشية سيرسل موجات من الفزع في شتى بقاع العالم»(١). ولاحظه أيضاً مراسل صحيفة الغارديان البريطانية في القاهرة (باتريك كينغزلي) بتعليقه على فيلم صليل السيوف٤ إذ يصفه أنه: «بمستوى أفلام هوليوود من حيث الإتقان ويظهر كيف أن داعش يخوض حرباً مع حكومة العراق المستبدة ويطلب من الناس الذين يعيشون في المناطق التي تقع تحت سيطرته أن يعودوا للحياة التقليدية التي عاشها المسلمون الأوائل»(٢).

ومن المفيد الاطلاع على بعض التحليلات التي تتناول هذا الجانب ومنها تحليل الكاتب صياح عزام في مقالة بعنوان الصناعة الإعلامية المدهشة لصورة داعش وجاء فيها: إن صورة داعش قد صُنعت في الموصل على الأرض، وخاصة عندما صعد (البغدادي) على منصة الخطاب بهدوءٍ واتزان ليلقي خطاباً يعلن فيه إقامة دولة الخلافة، صورة (البغدادي)في الموصل، يقف خلفها خبراء ومحترفون وفنّيون في تقنيات التواصل والإعلام وعلم النفس، ولا سيما فيما يتعلق بالرسائل المشفرة المرسلة عبرها والملتقطة إعلامياً ونفسياً واجتماعياً وعسكرياً في جوانبها السياسية والطائفية والدينية، وكذلك ظهر الاهتمام الكبير بالصورة المتعلقة بظهور البغدادي والموكب المهيب الذي رافقه عند الحضور والمغادرة والشباب المحتشد في الجامع لسماع خطابه ... كل ذلك صُنع دولياً وبتقنية عالية لإبراز صورة يراد تثبيتها في الأذهان كقدرة لا حدود لها على التحدي والرعب. هذا كله، ناهيك عن الأبعاد النفسية لرسائل داعش الصادرة عن احتلال الموصل وما تبع ذلك من مشاهد الذبح والتهجير الجماعي والاستباحات اللاإنسانية، وإجبار أتباع الديانات الأخرى على الأسلمة أو

---

(١) egynews.net

(٢) www.elshaab.org/news/119358

دفع الجزية أو الرحيل[1].

فكر منحرف وعقيدة مشوهة!

مؤكد أن التّكفير ليس منحصراً بدين واحد أو بمذهبٍ دون آخر، لكن نمو الجماعات التّكفيرية وتنامي انتشارِها والتداعيات المرافقة لها تجعل من قراءة هذه الظاهرة وتكوين رؤية نظرية واضحة عنها، أمراً في غاية الأهمية.

ومن الناحية الموضوعية، تشكل الإيديولوجيا الوهابية المتشددة المصدر الرئيسي للتيارات التكفيرية، لأن تعاليمها - يا للأسف - منتشرة في بقاع شتى من العالم، فالمال الخليجي تستر بشعار نشر الدعوة الإسلامية والحوار بين الحضارات لتأسيس آلاف المدارس والمساجد والمعاهد الدينية المتشددة في أفريقيا وآسيا وأوربا، وتم استقطاب المهاجرين والعاطلين عن العمل و فئات أخرى مهمشة من ذوي الثقافة المحدودة. وبعد خضوعهم لعلمية غسل أدمغة، يبدؤون بالتنقل إلى جبهات القتال حيثما يفتي مشايخهم بذلك، فتارة **يجاهدون** في الجزائر، وتارة أخرى في أفغانستان فالعراق ثم اليمن وسورية ومصر وليبيا وهكذا، وتستند الجماعات التكفيرية على فتاوى ضالة نابعة قائمة على التحريض الطائفي والمذهبي والاستعباد والتهميش والتدمير والتخريب وإثارة الانقسام والفتن ومشاعر الكراهية والبغضاء بين أبناء الشعب الواحد، وتستشهد في مسلكها المنحرف ذاك بفهمها الخاص للدين الإسلامي. وتحاول صرف الأنظار عن الأضرار الجسيمة التي تلحق بالمسلمين جراء العمليات الانتحارية عبر تمجيد الانتحاري ووصفه بأنه رفع الهوان عن الأمة[2]!!

وتعد (السلفية الجهادية) من أكثر الاتجاهات تكفيراً، لكونها تتبنى خطاباً تصادمياً لا يقبل المراجعة حتى مع أقرب الجماعات إليها كـ الإخوان المسلمين، إذ تتهم عناصرها بجمع الثروات أكثر من التزامه بعقيدة الجماعة. ويجاهر أتباعها بتكفير كل الأنظمة السياسية الحديثة

---

(١) www.alwatan.sy/view.aspx?id=21796

(٢) العبارة تكررت في خطابات (بن لادن) تعليقاً على التفجيرات الانتحارية في الرياض و الخبر و برجي التجارة العالمي.

ويعتبرونها طاغوتاً ويتمسكون بالدعوة إلى حاكمية الشريعة ويسترشد بالدعوة السلفية الوهابية كمنهج علمي وعملي، والنظر إلى كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب كأحد المراجع الرئيسية للتيار الجهادي العالمي ومن بعده رسائل أئمة الدعوة النجدية خاصة الدرر السنية. فبعد الجهاد الأفغاني أضحى التراث الوهابي مصدراً رئيسياً أضيف إلى مصادر التراث المعرفي الجهادي ممثلاً بفتاوى ابن تيمية وتلاميذه وسيدِ قطب ومحمد قطب وعبد الله عزام(١). ومع أن كثيراً من التنظيمات المسلحة كـ (أكناف بيت المقدس، وأنصار بيت المقدس، والتوحيد والجهاد) تتبع الفكر السلفي، وتتخذ من القدس شعاراً لها إلا أنها لم تطلق رصاصة واحدة للدفاع عنها!!

وفي تحليل البناء الفكري والعقائدي للجماعات التكفيرية على اختلاف أسمائها، يتضح أنها تتشارك جميعاً بسمات واحدة أهمها:

• لا تملك مشروعاً سياسياً واضحاً أو برنامجاً معيناً في كيفية إدارة الحكم أو التنمية، وما عندها ليس إلا حالة سلطوية تسعى لتخريب مفهوم المواطنة وهدم كيان الدولة وتدمير مؤسساتها وشرعيتها الدستورية و تقويض أي مسار سياسي سلمي قائم ولا تعير اهتمامها للمواثيق والقوانين الناظمة.

• أفكارها شمولية وشعاراتها فضفاضة، فهي تحارب كل ما يعارضها الرأي تحت شعار الإسلام هو الحل: رافضة كل المبادئ الإنسانية السامية التي أقرّها الإسلام كالتحاور والتسامح والتشاور ونبذ الخلافات وتوحيد الصف والتعايش السلمي واحترام الأديان.

• استخدام معايير مزدوجة وفقاً للمصالح الذاتية، فمثلاً لا تقاتل من أجل إسقاط النظام القطري أو التركي بينما تستميت لإسقاط النظام السوري مع أن قطر وتركيا ترتبطان بعلاقات وثيقة مع الكيان الصهيوني وأمريكا بعكس سورية التي مازالت تدعم حركات المقاومة في فلسطين و لبنان.

---

(١) www.annabaa.org/nbanews/2013/12/063.htm2013

- لا تعترف بالحدود بين الدول، بل تعتبر أن العالم ساحة جهاد مفتوحة لعملياتها يحق لها توحيدها تحت راية الخلافة الإسلامية المزعومة، ولذلك تطلق على نفسها أسماء كبيرة جغرافياً من قبيل: دولة الإسلام في العراق والشام أو القاعدة في الجزيرة العربية أو القاعدة في المغرب العربي، لذلك فإن انتماءها للعقيدة لا للوطن.

- تعتبر أن جهاد العدو القريب أولى من جهاد العدو البعيد أي: إن أولوياتها تكمن في إسقاط حكام المسلمين لا قتال إسرائيل؛ ولذلك تختلف وتتصادم مع حركات المقاومة الوطنية (مثال: حالة حزب الله وجماعة أحمد الأسير في لبنان).

- تستغل حماسة عناصرها (ولا سيما الأجانب منهم) الناتجة عن فهم خاطئ للإسلام، واللافت أن كثيراً ممن يُزج بهم للقتال في سورية هم أفغان وشيشان وسعوديون وأتراك ..إلخ

- تستغل الأطفال والمراهقين: وهذا أمر مثبت بالتقارير والأدلة، فقد كشفت مصادر أمنية بريطانية أن النسبة الأكبر من الجهاديين البريطانيين من المراهقين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٢١ عاماً. [١]

- مقاتلوها يتميزون بثقافة ضحلة وسطحية ومستوى تعليمي محدود، وللأهمية نشير إلى دراسة أنجزها (مرصد الشمال لحقوق الإنسان) تعزو أسباب التحاق مجموعة من الشباب المنحدرين من منطقة شمال المغرب خصوصاً تطوان، بجبهات القتال في سورية والعراق، إلى مستواهم التعليمي والثقافي والسياسي المحدود، ومشاكل ذاتية تتمثل في الانطواء، وعدم التكيف والتوافق الاجتماعي والعزلة.. وكشفت الدراسة التي تُعد أول بحث ميداني بشأن المواصفات السوسيو ديمغرافية للشباب المقاتل في سورية والعراق والمنحدرين من شمال المغرب، أنَّ ٧٤ ٪ من العينة المبحوثة من فئة اجتماعية متدنية تقطن أحياء هامشية، في حين أنَّ ٢٣ ٪ فقط ينتمون إلى الطبقة المتوسطة. وحسب المؤهل التعليمي، لوحظ أنَّ أكثر من ٥٧ ٪

---

(١) http://syrianow.sy/index.php?d=35&id=114862

من العينة المبحوثة مستواها التعليمي ابتدائي، وهو ما يجعل هذه الفئة سهلة للاستقطاب وغسل الدماغ والانضمام للجماعات المتطرفة، في حين بلغ العينة ذات المستوى التعليمي إعدادي ٢٧ ٪مقابل ٦ ٪ ثانوي و١٠ ٪ جامعي[١].

- أساليبها وحشية لا أخلاقية، فالتكفيريون ينقادون للغريزة وليسوا مستعدين للرحمة أو الشفقة، فحكم الإعدام ذبحاً أو شنقاً أو صلباً يُنفذ بسرعة البرق من قبلهم على كل مَنْ يُتهم بالزندقة والخيانة والزنى والسرقة ولا يُستثنى من أحكامهم الأطفال[٢] والعجز والنساء.

- إدخال مصطلحات ومفاهيم مشبوهة وسلوكيات شاذة ما أنزل الله بها من سلطان دون إثباتها بشكل علمي ومنهجي، كـفتوى جهاد النكاح[٣]التي أثارت سخطاً واسعاً في الأوساط الدينية والاجتماعية لتسببها بكوارث مجتمعية كبيرة، في هذا الإطار نددت وزارة شؤون المرأة التونسية بالظاهرة، واصفة إياها بـ الممارسات النكراء التي تمثل خرقاً صارخاً للقيم الدينية والأخلاقية. وقالت الوزارة في بيان لها: «إنَّ ذلك يخالف القيم التي يبنى عليها المجتمع وحقوق الإنسان المصادق عليها من قبل الدولة التونسية والقوانين السارية بهذا الشأن. وحمّلت وزارة المرأة بعض الدعاة المتطرفين المسؤولية لتشجيعهم هذا الفعل، مشيرةً إلى أنَّ هناك شبكات وأشخاصاً ساهموا في إقناع الفتيات التونسيات بالسفر إلى سورية تحت مسمى (جهاد النكاح)»[٤]، وننوه بأن المرصد السوري المعارض تمكّن من توثيق ٨٠ حالة لنساء سوريات، قام داعش بسبيهنَّ، في مناطق مختلفة بمحافظتي الرقة ودير الزور بتهمة العمالة للنظام، وكان المرصد قد أشار إلى أن التنظيم وزع على عناصره في سورية خلال شهر آب من العام ٢٠١٤ نحو ٣٠٠ فتاة، وسيدة من أتباع الديانة الأيزيدية، ممن اختطفن في

---

(١)www.alalam.ir/news/1651757

(٢)أفتت (جبهة النصرة) بقتل (كل طفل سوري، في أية مداهمة تكون ضد عائلات مؤيدة للرئيس السوري بشار الأسد) وتبرر أن (أطفال العائلات المؤيدة للأسد، يجب قتلهم جميعاً وهذا محلل شرعاً، لأن هؤلاء سيصبحون عندما يكبرون رجال لدى بشار الأسد، وسيقفون معه ضدنا، فعلينا القضاء عليهم وقتلهم.. الدين يشرع ذلك لأنه لا يجب أن يكون هناك أحد يوالي الطاغية، أو أن يخرج أحد في المستقبل ليعمل ضد خلافتنا)..

(٣)الفتوى نُشرت على صفحة الداعية السعودي محمد العريفي على موقع تويتر.

(٤)http://pukmedia.com/AR_Direje.aspx?Jimare=20371

العراق قبل أسابيع، وذلك على أساس أنهن سبايا من غنائم الحرب مع الكفار، وفي عدة حالات وثقها المرصد قام عناصر التنظيم ببيع المختطفات، لعناصر آخرين من التنظيم، بمبلغ مالي قدره ١٠٠٠ دولار أميركي للأنثى الواحدة، بعد أن قيل إنهنَّ دخلن الإسلام، ليتم تزويجهنَّ لمقاتلين من تنظيم داعش الذين قاموا بدفع الأموال للحصول على اللواتي اشتروهنَّ بأموالهم[١]. وكان مسؤول محلي في محافظة ديالى العراقية يوم الأحد ٢٥ أغسطس ٢٠١٣، من أن تنظيم القاعدة طالب أرامل قتلاه من القيادات والعناصر بتطبيق ما يسمى بفتوى جهاد النكاح لدعم مقاتليه، وقال قائم مقام قضاء الخالص عدي الخدران في حديث للسومرية نيوز، إن خلايا الرصد الاستخباري المكلفة بمتابعة أنشطة خلايا القاعدة في بعض مناطق ديالى، رصدت وجود مطالبة من قيادات عليا في تنظيم القاعدة لأرامل قتلى التنظيم من القيادات والعناصر بضرورة التطبيق الفعلي لفتوى جهاد النكاح لدعم عناصر القاعدة نفسياً. وأضاف أن محاولة تطبيق القاعدة لفتوى جهاد النكاح التي صدرت من قبل رجال دين ضالين لدعم الجماعات المسلحة في سورية يدلل على أنها فتاوى عابرة للبلدان وتؤكد أن مسار القاعدة في سورية أو في أي بلد آخر هو سياق متصل بالأحداث الجارية في العراق. [٢]

قواسم مشتركة بين المشروعين

بعدما أطاحت بأنظمتها واستبدلتها بأخرى تفاءل الكثيرون بثورات الربيع العربي ووصول الحركات الإسلامية إلى سدة الحكم في عدة بلدان عربية كتونس وليبيا ومصر، إلا أن هذا التفاؤل أخذ ينحسر تدريجياً مع انكشاف أهداف الظاهرة التي تسللت إلى المنطقة ضمن وعود دولية وصفقات إقليمية.

والحقيقة، أن النظام السياسي لدى الحكومات الإسلامية والجماعات التكفيرية يتشابهان لجهة الاعتماد على عنوان عريض وفضفاض: (الإسلام هو الحل). وبالمقارنة والتحليل سنلاحظ أن سياسات المشروعين تتقاطع على المستويين الخارجي والداخلي في جوانب كثيرة،

---

(١) http://ar.shafaqna.com/muslim-women/item/55115

(٢) www.alalam.ir/news/1509550

ومنها:

المنطق الطائفي:

ونستحضر هنا نموذج (أردوغان - أوغلو) إذ إن خطاباتها مفعمة بالمصطلحات الطائفية الحاضرة بقوة في خطابات التكفيريين، فزعيم داعش أبو بكر البغدادي دعا في تسجيل صوتي الفصائل المسلحة للتوحد والصلح والتفرغ لقتال النصيرية والروافض، في إشارة إلى النظام السوري، وباللغة التحريضية نفسها تحدث (الشيخ) يوسف القرضاوي عن الرئيس السوري بشار الأسد في بداية الأحداث قائلاً: «يعامله الشعب على أنه سني، وهو مثقف وشاب، ويمكنه أن يعمل الكثير، ولكن مشكلته أنه أسير حاشيته وطائفته»[1].

الاستئثار بالعامل الاقتصادي:

وهي السمة المشتركة بين الحكومات الإسلامية والجماعات التكفيرية هي الهيمنة على مفاصل الحياة الاقتصادية في المناطق الخاضعة لسيطرتها بهدف التحكم في شؤون الناس وإدارتهم بالضغط المعيشي والابتزاز.

النزعة التوسعية:

ومن الواضح أن الحكومات الإسلامية بالمنطقة كالجماعات التكفيرية ترفض التأطير ولا تلتزم بالحدود القطرية وتسعى للتوسع داخل البلدان الأخرى المجاورة وغير المجاورة، والمثال الأبرز عن هذه الحالة حكومة (العدالة والتنمية) في تركيا، إذ إن سياساتها حيال الملف السوري يؤكد نزعتها التوسعية ونذكر بأنها فتحت الحدود أمام اللاجئين السوريين ونصبت المخيمات لهم قبل حدوث أي مظهر من المظاهر المسلحة بأسبوعين، فضلاً عن محاولاتها المتكررة لإنشاء منطقة عازلة وحظر جوي فوق سورية ودعم للمعارضة المسلحة وغيرها من التصرفات. أما النزعة التوسعية عند الجماعات التكفيرية فلا تحتاج إلى دلائل وإثباتات لكون مؤشراتها واضحة في حركة داعش بين سورية والعراق شمالاً، وحركة جبهة النصرة بين

---

(١) خطبة الجمعة ٢/ ٤/ ٢٠١١

سورية والأردن جنوباً. فالقاعدة تؤمن أن جيوش الطغاة من حكام ديار المسلمين هي بعمومها جيوش ردة وكفر، وفي أدبيات جبهة النصرة ما يثبت هذه السمة إذ يقول زعيمها أبو محمد الجولاني في شريط مسجل عنوانه قابل الأيام خير من ماضيها، منشور على الانترنيت: نحن كمسلمين لا نؤمن بعملية أو أحزاب سياسية ولا بانتخابات برلمانية، بل نؤمن بنظام حكم إسلامي تبسط فيه الشورى وينشر فيه العدل(١).

مواجهة الأنظمة:

فكلاهما يرفض التحاور مع الأنظمة ذات الطابع العلماني ويصرّ على إسقاطها من دون الأخذ بعين الاعتبار التداعيات والأضرار الناجمة عن هذه السياسة، فالجماعات التكفيرية تلجأ إلى أساليب العنف لتحقيق أهدافها من هجمات إرهابية وسيارات مفخخة واغتيالات وقتل عشوائي بقذائف الهاون وغيرها. والحكومات الإسلامية لا تعارض سلوك الإرهابيين لأنها يتشاركان الأهداف والطموحات الجيوسياسية. ونذكر هنا بمواقف الحكومة التركية التي انتقلت من سياسة (**صفر مشاكل**) إلى سياسة (**صفر جيران**) إذ ليس لديها علاقات جيدة مع أي من الدول المجاورة وغير المجاورة كسورية والعراق ومصر وقبرص واليونان وروسيا وحتى مع حليفتها الولايات المتحدة أيضاً. ونشير إلى موقف جبهة النصرة من النظام السوري التي يشرحها أبو محمد الجولاني بإعلانه رفض أهل الجهاد لأي عملية سياسية وانتخابات برلمانية في سورية(٢). ويتطابق هذا الموقف مع مسار قيادات سلفية مصرية من بينها محمد الظواهري في: تشكيل لجنة عليا لإرسال مسلحين إلى سورية للحرب ضد قوات بشار الأسد وتجهيزهم بالمال والسلاح، وحث الشباب والرجال على الذهاب إلى سورية؛ لأن الطوائف الشيعية أشد عداوة لأهل السنة من اليهود وفق تعبير مرجان سالم، ودعم المسلحين بسورية بالأرواح والسلاح سيستمر وسيزداد(٣) كما قال علي فراج.

---

(١) http://almesryoon.com

(٢) المصدر السابق.

(٣) www.alalam.ir/news/1478488

التمييز والعنصرية:

ونشير هنا إلى سياسة التهميش التي تنتهجها حكومة (العدالة والتنمية) التركية ضد الأكراد والمواطنين السوريين في لواء أسكندرونة السليب، ومع أنها استمدت شعبيتها من شعارات براقة كـ (الحرية والعدالة الاجتماعية) إلا أنها لا تطبقها بدليل المظاهرات المنددة بسياساتها والتي تُقمع من قبلها، سمة الشعارات تعتمدها أيضاً الجماعات التكفيرية ومنها جبهة النصرة، ففي أحد بياناتها يدعو الجولاني: جميع الفصائل المقاتلة على الأرض الساعية إلى إحلال عدالة الإسلام ونصرة الشريعة، أن نتعاهد على الحفاظ على مسار الجهاد في الشام من أن ينحرف لغير جادة الإسلام، وأن نحشد جميع جهودنا للوصول للهدف الأسمى إقامة حكم إسلامي راشد على الأرض المباركة، وأن نخلص أرضنا من كل هيمنة غربية أو شرقية ظالمة[1].

---

(١) http://almesryoon.com